**سماحة آية الله العظمى المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي** (دام الله ظله)

# الأخــلاق

## عنوان الإيمان ومنطلق التقدم

# المقدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمد وآله الهداة الميامين.

وبعد:

كما تنظر لوجهك في المرآة كل يوم، لترى حسن خلق الله، وجمال صنعه.. تأمل ولو لدقائق معدودة معالم شخصيتك، لتعرف هل أنها مصاغة وفق مكارم الأخلاق ومحاسنها، أم وفق مذام الأخلاق ومساوئها.

هذه الخطوة تبين لك أين أنت على خارطة الأخلاق، كما تعرفك على ما أنت عليه من مستوى ومنـزلة..

غير إن الكثير من الناس يتحاشون ذلك، لأنهم لا يريدون أن يواجهوا حقيقتهم، فيصطدموا بواقعهم الذي يحمل في طياته الكثير من الشوائب والأدران.. لذا تجدهم يتغاضون عما هم عليه، مبررين ذلك بما لا يرضونه هم لأنفسهم.

ولكن هذا لا يدعونا أن نستسلم لهذه الحالة، وأن ننخرط معهم في هذا النفق المظلم؛ بل يجدر بكل واحد منا أن يوفر في نفسه الشجاعة الكافية ليكتشف مساوئه، ويقف على عيوبه.. حتى يرى - بتوفيق الله تعالى - موقع قدميه على خارطة الأخلاق، من أجل أن يبدأ مسيرة التغيير والاصلاح.

ومما لا شك فيه، أنه لا يقوم على هذا التغيير إلاّ من عرف ما للأخلاق الحسنة من معطيات وفيرة، وخيرات عظام. لذا نلفت الانتباه الى شيء من ذلك..

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من سعادة المرء حسن الخلق، ومن شقاوته سوء الخلق". [1]

وقال صلى الله عليه وآله: "إن الخلق الحسن يذيب الذنوب، كما تذيب الشمس الجمد؛ وإن الخلق السيء يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل". [2]

وقال صلى الله عليه وآله: "خياركم أحسنكم أخلاقاً، الذين يألفون ويؤلفون". [3]

وقال صلى الله عليه وآله: "أفضلكم إيماناً أحسنكم أخلاقاً". [4]

وقال صلى الله عليه وآله: "حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. فقيل لـه: ما أفضل ما أعطي العبد؟ قال: حسن الخلق". [5]

وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ليس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن". [6]

وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: "حسن الخلق خير قرين، وعنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه". [7]

وقال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: "إن أحسن الحسن، الخلق الحسن". [1]

---

(1) مستدرك الوسائل، ج8، ص447-448.
(2) المصدر، ص445.
(3) تحف العقول، ص38.
(4) المصدر، ص38.
(5) المصدر، ص38.
(6) مستدرك الوسائل، ج8، ص442.
(7) تحف العقول، ج141.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "أقربكم مني مجلساً في الجنة، أحسنكم أخلاقاً في الدنيا، الموطئون أكنافهم، الذين يألفون ويؤلفون". [2]

بعد هذا البيان الموجز بخصوص الأخلاق، هل يمكن للانسان أن يتساهل في أخلاقه السيئة، أم يزداد عزماً وإصراراً على تغييرها بالذي هو أحسن؟

وهنا؛ لابد من الإشارة الى أن أهم شاخص لبيان شخصية الإنسان، هو الأخلاق. وبما أن الانسان بطبعه مركب من العقل والشهوة؛ من الروح والبدن.. فالعقل يدعوه الى العلم والحكمة والرشاد، بينما الشهوة تدعوه الى اللعب واللهو والفساد؛ والروح تسمو بالانسان الى معارج السماء حيث الطهر والنقاء، بينما البدن ينجذب نحو الأرض حيث طغيان المادة وهيمنة الأنانيات. وبين هذا وذاك يتماوج الانسان دون أن يستقر، حتى يثقل ميزان أحدهما على الآخر. فمن رجحت كفة الأخلاق الحسنة عنده، كان في أعماله موفقاً، وبين الناس محبوباً، وعند الله مرضياً. بينما الذي رجحت كفة الأخلاق السيئة عنده، كان في أعماله فاشلاً، وبين الناس مكروهاً، وعند الله مغضوباً عليه.

وفي كل ذلك، يبقى الأمر بيدك. وليعلم الجميع أنه لا عيب أن يبحث الانسان عن عيوبه حتى يصلحها؛ بل العيب كل العيب أن يبقى عليها.

ومن هنا؛ يجدر بنا – جميعاً- أن لا نتوانى عن البحث عن أية خصلة معابة فينا لنصلحها، وخير من نجعله نموذجاً نحتذي به هو النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، الذي قال عنه الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم/4)، وأيضاً آل بيت رسول الله عليه وعليهم السلام، الذين قال الله تعالى

---

(1) مستدرك الوسائل، ج8، ص443.

(2) المصدر، ص450.

عنهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب/33).

وخير هدية نقدمها لقرائنا الأعزاء في هذا المجال، كتابنا هذا الذي هو عبارة عن جملة أحاديث شيقة ألقاها سماحة آية الله السيد محمد تقي المدرسي في مناسبات عديدة، ساعياً الى أن يأخذ بيد الفرد والأمة نحو القمم السامقة من الأخلاق الحسنة. سائلين الله عز وجل أن يجعل فيه الفائدة المرجوة، وأن يتقبله منا بأحسن قبوله، إنه ولي التوفيق.

القسم الثقافي

في مكتب آية الله السيد محمد تقي المدرسي

10/ جُمادى الاول/ 1423هـ

# روائع الكـلام

ها نحن نقدم على الدخول في بحث مسائل الأخلاق وقضاياه، عمدنا الى ذكر شيء من روائع الكلم الصادرة عن النبي محمد وأهل بيته الأطهار عليه وعليهم الصلاة والسلام، لكي ننور بها أبصارنا، ونضيء بها قلوبنا، وذلك لأنها منار الهدى وغور البصائر. وما نقدمه لكم في هذا الخصوص، هو غيض من فيض. [1]

1- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً الموطَّؤن أكنافاً الذين يألفون ويُؤلفون وتوطَّأ رحالهم.

2- قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: إنَّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً.

3- عن بحرٍ السّقّا قال: قال لي أبو عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام: يا بَحْرُ حُسن الخلق يُسرٌ.

4- قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: البرُّ وحسنُ الخُلق يعمران الدّيار ويزيدان في الأعمار.

5- قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: إنَّ الخُلقَ الحسن يميثُ الخطيئة كما تميثُ الشمسُ الجليد.

---

(1) مصدر الأحاديث التالية، كتاب الأصول من الكافي، ج2، ص81-85.

6- عن عنبسة العابد قال: قال لي أبو عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام: ما يقدم المؤمن على الله عز وجل بعمل بعد الفرائض أحبُّ إلى الله تعالى من أن يسع الناس بخُلقه.

7- قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنَّ صاحب الخُلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم.

8- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أكثر ما تلجُ به أُمّتي الجنّة تقوى الله وحُسن الخلق.

9- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما يُوضع في ميزان امرئٍ يوم القيامة أفضل من حُسن الخلق.

10- قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: إنَّ الله تبارك وتعالى ليُعطي العبدَ من الثواب على حُسن الخلق كما يُعطي المجاهد في سبيل الله، يغدو عليه ويَروح.

11- عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: إنَّ الخُلق منيحة يمنحها الله عز وجل خلقه؛ فمنه سجيّة ومنه نيّة؛ فقلت: فأيّتهما أفضل؟ فقال: صاحب السجيّة هو مجبول لا يستطيع غيره وصاحب النية يصبر على الطاعة تصبّراً؛ فهو أفضلهما.

12- قيل للإمام جعفر الصادق عليه السلام: ما حَدُّ حُسن الخلق؟ قال: تُليّنُ جناحك، وتُطيِّبُ كلامك، وتلقى أخاك ببشرٍ حسنٍ.

الفصل الأول:

# الأخـلاق أولاً..

# لماذا الأخلاق

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً * وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ اَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَن تَابَ وءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان/63-70)

إذا مات أحدنا بعد انقضاء أجله وتصرم أيامه، فانه يحمل الى مثواه الأخير في موكب مهيب. في هذا الموكب الذي يُرى فقط بعض جوانبه، ولا يرى أكثر ما فيه؛ تجد المشيعين لجثمان الميت على اختلاف نظراتهم وتباين مستوياتهم، يرافقون الجنازة الى المقبرة فقط. بينما في هذا الموكب روح الميت تشيع، وعمله يرافق جنازته، سواء كان على هيئة جميلة جذابة أو قبيحة ذميمة. كما تهيمن على موكب التشييع الملائكة، فمن جهة ملائكة

الرحمة يتباشرون به ويحاولون أن يأخذوه معهم الى الجنة، ومن جهة أخرى ملائكة العذاب يحاولون أن يلقوا بصاحبهم الى النار.

ولا ننسى أننا لسنا مستثنون من هذا المصير، وأنه لابد من أن نموت يوماً مهما بعد. الى هذا أشار الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في بيت شعر نسب إليه:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته  يوماً على آلة الحدباء محمول

والى ذات المعنى أشار أحد الشعراء بالقول:

و إذا رأيت جنـــازة محمـولــة  فاعلم بأنك بعدها محمــول

غير إن هذه الحقيقة الساطعة يتجاهلها البعض، ويعيش في غفلة عنها. فكثيراً ما يلاحظ في تشييع الجنائز من يقف محزوناً مفجوعاً بفقدان عزيز له، وآخر منافقاً شامتاً يمشي في موكب التشييع ولسانه يلهج بذم الميت ولعنه، وثالثاً غافلاً عن حقيقة هذا الحدث بأحاديث الدنيا وما يلهي..

في هذا الخصوص يذكر أن رجلاً مرَّ على جماعة يريدون دفن ميت لهم، فاطلع عليهم، فأخذته العبرة فبكى، ثم أنشد مجموعة أبيات، قال في أحدها:

يبكي عليه الغريب لا يعرفــه  وقرابتــه فــي الحـي مسـرورون

فقال له أحد الحاضرين: أو تعرف هذا الميت؟ فأجاب لا. ثم سارعه بسؤال آخر: وهل تعرف قائل هذه الأبيات الشعرية؟ قال: لا أيضاً. قال له: إنه هو هذا الميت الذي بكيته أنت الغريب، ولكن انظر ابن عمه ذاك، فهو مسرور بوفاة هذا الميت، لأنه الوحيد الذي سيرثه.

هكذا تلحظ من يبكي على الميت حزناً على فراقه، وآخر يفرح لذلك، وكل منهما يتناول الميت بكلامه من منطلقه، غير أن كلامهم ليس حجة مهما مدحوه أو ذموه، وإنما هنالك ملائكة موكلون بذلك لا يخطؤون أبداً، وهم

بأمر ربهم يعملون. وعند الحساب تقف ملائكة الرحمة لتأخذ الانسان الصالح الى الجنة، بينما تقف ملائكة العذاب لتأخذ الانسان الطالح الى النار.

وإذا علم الانسان أن أعماله سوف تتجسد له عند موته، وفي المغتسل، وهو محمول على النعش يشيعه الناس، وعند إدخاله القبر.. فان كانت حسنة تجلت لـه في صورة رجل جميل لا يرى منه إلاّ الأُنس والمتعة، وإن كانت سيئة تجلت لـه في صورة رجل قبيح لا يرى منه إلاّ الانزعاج والنفرة.

أليس من العقل أن يسأل نفسه: أيهما أفضل له، أن يمهد لما بعد موته بالأعمال الصالحة والأفعال الخيرة، أم يتبع الشهوات ويرتكب القبائح والمنكرات؟

ومن المؤسف أن نرى كثيراً من الناس يسعون أبداً في تزيين حياتهم الظاهرية، فيصرفون المليارات من الدولارات على تجميل بيوتهم وسياراتهم وملابسهم.. بينما كان الأولى بهم أن يهتموا بتزيين أنفسهم بالعمل الصالح والصفات الحميدة.. فكم من الأوقات الثمينة تصرف في مسائل ثانوية في الحياة، كاختيار ألوان صبغ الشعر، أو اختيار أحدث الموضات لخياطة الملابس، وما الى ذلك؛ في حين يغفلون عمّا يصلح حالهم في الدنيا والآخرة. فما قيمة رجل مريض بالجذام -مثلاً- يلبس أفخر الملابس وأجملها؟

فعجب كل العجب ممن يصرف جلّ وقته وطاقاته وإمكاناته على المظاهر الخارجية من ملبس ومسكن ومركب، دون أن يهذب أخلاقه ويزكي نفسه ويصلح عمله !!

من هنا؛ ينبغي على الانسان أن يسعى جهده لصياغة شخصيته وفق معايير الهدى وقيم الحق، وليس وفق زخارف الدنيا وزبارجها. فالقرآن الكريم حينما يصف المؤمنين لا يقول عنهم إن ملابسهم جذابة، وبيوتهم واسعة، وسياراتهم جميلة.. لأنها ليست هي الأصل في حياة المؤمن مهما

توفرت له، بل الأصل ما ذكره القرآن في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾.

هذه الصفة حينما تتجلى في شخصية المؤمن، تجده كله إيجابية، حتى أنه لا يتردد أن يقول للجاهل إذا خاطبه سلاماً.

وجميل ما روي في هذا الخصوص عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، إذ جاءه شخص أراد أن يستفزه، فقال لـه: أنت بقر. فقال له الإمام: أنا باقر. فكرر الرجل ما قاله عدة مرات، وفي كل مرة يجيبه الإمام بذات الجواب السابق بكل هدوء وبلا أي انزعاج. عند ذاك قال للإمام عليه السلام: لقد كانت أمك طباخة. فقال لـه الإمام عليه السلام: تلك كانت مهنتها. وهكذا حاول الرجل أن يثير الإمام بكلمات غير مؤدبة، إلا أن الإمام عليه السلام لم يجبه إلاّ بأدب رفيع وأخلاق فاضلة، فاضطر الرجل إلى الاعتذار من الإمام مصرحاً: " الله أعلم حيث يضع رسالته".

فليسأل كل منا نفسه: هل أتمكن من مواجهة من يؤذيني بكلمة فأسامحه وأتحدث معه بسعة صدر كما فعل الإمام محمد الباقر عليه السلام؟

هذه صفة واحدة من الصفات الحسنة التي يجب أن يتحلى بها الانسان المؤمن. وقد يصرف الانسان من عمره سنوات وسنوات حتى يحلي نفسه بمثل هذه الصفات الحسنة، ويزينها بصفة العفو والاحسان، والانصاف والرفق، والصدق والوفاء..

بالتأكيد هذه الصفات لا يمكن للانسان أن يحصل عليها بسهولة، لذا تجد الناس لا يهتمون بها كثيراً، لأنها صعبة المنال. بينما يتوجهون الى المظاهر والزبارج، لأنها أسهل منالاً. ولكن ما فائدة البيت الرائع في الجمال، وقلب صاحبه قد أكله الصدأ!

ولهذا؛ يأتي التأكيد القرآني على أن يتصف الانسان الصالح بصفات عباد الرحمن مهما كلفته من جهد ووقت، لأنها تضمن لـه حياة سعيدة في الدنيا، وعقبى فاضلة في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الاَرضِ هَوْناً﴾ أي مشية الاقتصاد، التي لا إفراط ولا تفريط فيها.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾. فالجاهل يريد أن يغير من حركة الانسان المستقيمة، ولكن عباد الرحمن عندهم موازين معتدلة يمشون عليها، فيواجهونه بالسلام.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾. لقد جسد هذه الآية رجال أمثال حبيب بن مظاهر الذي كان يختم القرآن في ليلة، وكذلك ابن أم هاني وهو ابن أخت الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، كان لسنين طويلة يصلي صلاة الصبح بوضوء صلاة المغرب والعشاء، وكان يختم القرآن بينهما. وأنا وأنت أيضاً يمكننا أن نتبع هذه الآية لو أردنا ذلك، فلماذا لا نصمم على أن نوجد هذه الصفة فينا؟ والبدء بإحياء ولو ساعة من كل ليلة بالعبادة، حتى نكون من أهل هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ حقاً إن جهنم أخطر عاقبة، لذا يجدر بالمؤمن أن يدعو الله تعالى أن يفك رقبته من النار.

وخلاصة القول؛ إذا كان الموت يأتينا لا محالة، فلماذا لا نستعد لـه بالعمل الصالح والأخلاق الحسنة والمبادرة الى ذلك سراعاً قبل فوات الأوان.

# الأخلاق مبعث الإيمان

ترى هل تأتي الأخلاق في الدرجة الأولى من الرسالة الإلهية، أم هي من الدرجة الثانية؟ وإذا حازت الأخلاق المرتبة الأولى، فما هو تفسير الاهتمام الأكثر في الدين بالشعائر الإسلامية كالصلاة والصيام...

**المفهوم الواسع للأخلاق**

للاجابة على هذه التساؤلات نحتاج الى بيان أمرين هما:

1- إنّ كلمة الأخلاق لها مفهوم واسع، وآخر ضيّق؛ فهي في مفهومها الضيق تعني الصدق، والوفاء، والاصلاح بين الناس، وعدم الغيبة والتهمة والنميمة، وتجنّب سائر الصفات الرذيلة، بينما تعني في مفهومها الواسع الخلفيات الروحية للأخلاق الفاضلة؛ فالصدق – مثلاً – نابع من الاستقامة في النفس، والإصلاح ناتج عن رؤية صافية الى الحياة، والوفاء منبثق من شجاعة نفسية لدى الإنسان.. أما الكذب والنميمة والتهمة والغيبة، فانّ هذه الصفات السلبية نابعة من انحرافات نفسية، وتشوّش واضطراب في الرؤية، وفقدان البصيرة في الحياة.

وعلى هذا؛ وطبقاً للمفهوم الضيق تأتي مرتبة الأخلاق بعد كثير من الواجبات، على عكس المفهوم الواسع الذي يعتبر الأخلاق قاعدة لسائر الفضائل، بل منطلقاً حتى للايمان بالله سبحانه وتعالى.

**سلوك الإنسان نتاج تربيته**

2- إن ما يفعله الإنسان، وما يتعوّد عليه من سلوك يأتي على أثر بنيانه التربوي، وصياغته النفسية، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقولـه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (الاسراء/84) أي إن شاكلـة الإنسان، وصيغة شخصيّته تقفان وراء سلوكه وأعماله، وإلاّ فلماذا يؤمن البعض بوجود الله تبارك وتعالى، ويكفر البعض به رغم وحدة الأدلة والحجج والبراهين، وطبيعة الخلقة الواحدة؟

يجيبنا القرآن الكريم على هذا التساؤل عبر آيات عديدة كقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ (البقرة/10) أي إنّ القلب المريض يتنافى مع الإيمان، في حين يستوعبه القلب السليم، وفي آية أخرى يقول عز من قائل: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/171) فبسبب طبيعة العمى والصمم والبكم تحدث حالة عدم تحكيم العقل، يقول سبحانه في موضع آخـر: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور﴾ (الحج/46) أي إن الحواس الظاهرة لدى الإنسان لا تصاب بالعمى، لأن القلب هو المصاب الأساسيّ. ويقول تعالى كذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر/56) فسبب عدم إيمانهم هو الاستكبار المعشّش في قلوبهم. وفي آية أخرى يقول عز وجل: ﴿وَاللهُ لايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة/80) أي إن الفسق الذي يتصف به الإنسان الضال هو سبب عدم هدايته.

فبالاستناد الى هذه الآيات وسائر الآيات القرآنية الأخرى المرتبطة بهذا الموضوع، يمكننا تفسير عدم إيمان البعض بحالة تعتريه، لا لنقص في الأدلة والبراهين والآيات.

**قوّة الإرادة توجّه العقل**

وقوّة الإرادة هي التي تدفع الإنسان الى استيعاب الأدلة والبراهين، وهي التي تدفعه الى التقدم. فالإرادة هي التي توجّه العقل، وعندما تكون إرادة الإنسان قويّة فانّها توجّه العقل الى جانب الصلاح؛ أمّا إذا كانت ضعيفة فانّ العقل سوف يتخبّط، ويضلّ الطريق، ولذلك نرى المصابين بالأرق يسرح بهم الفكر قبل النوم، وتهجم عليهم الأفكار السلبية والهواجس، فلا يستطيعون التركيز، وبالتالي فانّهم يعجزون عن النوم خلافاً للإنسان الذي يتمتّع بقوة التركيز، فهذه القوة تعينه على فعل الكثير من الأعمال.

**الأخلاق منطلق العلم**

وهنا لابدّ من أن نذكّر بمناسبة الحديث عن الأخلاق، أن الأخلاق تمثل أصل وقاعدة ومنطلق العلم، فقد روي أنه جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: "ما رأس العلم؟ قال: معرفة الله حق معرفته. قال: وما حقُّ معرفته؟ قال: أن تعرفه بلا مثال ولا شبه، وتعرفه إلهاً واحداً خالقاً قادراً أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً، لا كفو له ولا مثل له، فذاك معرفة الله حق معرفته".[1] وقال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: "وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده".[2] ويؤكد هذا المعنى الحديث الشريف المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث قال: "نعم وزير الإيمان العلم، ونعم وزير العلم الحلم، ونعم وزير الحلم الرفق، ونعم وزير الرفق اللين"،[3] وكذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله: "من طلب العلم لله لم يصب منه باباً إلاّ ازداد في نفسه ذلاً، وفي الناس

(1) بحار الأنوار، ج3، ص14.
(2) المصدر، ج4، ص247.
(3) المصدر، ج72، ص53.

تواضعاً، ولله خوفاً، وفي الدين اجتهاداً، وذلك الذي ينتفع بالعلم فليتعلّمه".[1] وهكذا يربط الإسلام بين العلم والأخلاق ربطاً وثيقاً.

**الأخلاق مفتاح تزكية النفس**

والأخلاق هي بداية الزاد، كما أكّد ذلك الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في قولته الشهيرة الخالدة: "إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق".[2] وبتعبير آخر؛ فانّ الأخلاق مفتاح تزكية النفس كما يشير الى ذلك الإمام عليّ عليه السلام بقوله: "أيّها الناس تولّوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها".[3] وفي قوله: "معلّم نفسه ومؤدّبها أحق بالاجلال من معلّم الناس ومؤدّبهم".[4]

كما أنّ القرآن الكريم يشير الى أهميّة تربية النفس، وتزكيتها بقوله: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾ (الجمعة/2) وهذا هو دأب الآيات القرآنية التي تتطرّق الى موضوع التربية، حيث تقدّم تهذيب النفس على التعلّم، لأنّ التزكية هي الهدف والوسيلة والقاعدة.

وفي البدء يجب الاهتمام بتغيير النفس وإصلاحها، من أجل الدخول في المرحلة العملية للحياة، خصوصاً ونحن معرضون لسيل من المفاسد أثّرت فينا بطريقة أو بأخرى؛ فهناك مجتمع فاسد، وتضليل إعلاميّ مركز، وأحقاد، وطائفيات، وأنانيات.. ونحن ينبغي علينا أن نتجاوز هذه المفاسد بكل قوة، لكي نربي أنفسنا على أساس الفضيلة والتقوى.

---

(1) بحار الأنوار، ج2، ص34.
(2) المصدر، ج16، ص210.
(3) المصدر، ج67، ص73.
(4) المصدر، ج2، ص56.

والمرحلة الأولى لسلوك هذا الخط، هي الابتداء والمبادرة الى التوبة لله عز وجل، وذكره بشكل دائم، والخشوع له، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الانفال/2) والملاحظ استعمال صيغة الحصر في هذه الآية بكلمة (إنّما) دلالة على عظمة المؤمنين الذين تخشع قلوبهم بمجرّد سماع آيات القرآن، فيؤنّبون أنفسهم.

وفي موضع آخر يقول عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون/1-2) فهم يراجعون صلاتهم، ويحافظون عليها، وهم يسمعون قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالاَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات/17-18) فيؤنّبون أنفسهم علــى عدم قيامها بصلاة الليل، ومناجاة الخالق جلّت قدرته في جوف الظلام الحالك، ليوجّهوا أنفسهم الى الصالحات، ويتراجعوا عن الذنوب والمعاصي.

ومن أولويات القضايا التي يجب على الإنسان أن يطرحها على نفسه هي: هل أن شخصيّته الداخلية إيمانية طاهرة، أم ملوّثة بآثار التربية الفاسدة والشهوات الآنية؟ ثم عليه أن يسعى بعد ذلك لإصلاحها إن كانت مشوبة بخلل ما.

# الأخلاق قاعدة الانطلاق

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوم الاَخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ الْسَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوْا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. (البقرة/ 177)

بعدما استطاع العالم اكتشاف الذرة، أمكن معرفة أن الفرق بين المواد القوية الصلبة التي تتحدى كل العوامل المضادة والقاهرة وبين المواد الرخوة اللطيفة يكمن في تركيبة ذراتها. فبينما تكون ذرات المواد الخفيفة متباعدة، نجد أن المواد الصلبة تكون ذراتها متقاربة ومكثفة؛ لذا نقول إن هذا ذهب وهذا خشب، وندرك سر تهشم بعضها مع أول ضغط، ومقاومة وصلابة البعض الآخر.

كذلك بعض الأمم تراها هشة ضعيفة تتحطم مع أول ضغط، بينما تجد بعض الأمم الأخرى صلبة مستقيمة متحدية لا تحركها العواصف والضغوط.

**عوامل القوة والثبات في الأمة**

إن الفرق بين الأمة القوية والأمة الضعيفة لا يكمن في المظهر، بل في العمق والجوهر، فالصفات المثلى التي تتحلى بها الأمة المتحدية القوية تختلف عن تلك التي تتميز بها الأمة الضعيفة.

ومن هذا المنطلق نرى كيف أن ثلاثمائة وثلاثة عشر انسان مسلم، لا يملكون إلا بضعة سيوف وكان أكثر أسلحتهم الحجارة وجريد النخل، يواجهون ألف شخص مسلح بأفضل سلاح، وفيهم ما فيهم من الصناديد ومغاوير الجيوش العربية الذين تمركزوا في بدر ضمن صفوف المشركين آنذاك، ولكن ومع أول مواجهة ينهار جيش المشركين وينتصر المسلمون على قلتهم. فيا ترى لماذا ينتصر أهل المدينة في المعركة مع ضعف عدتهم وقلة عددهم، بالمقارنة مع كثرة أهل مكة وتجهيزاتهم العسكرية؟ ولماذا تنهار مقاومة المشركين مع أول صدمة، مع ما يملكون من عوامل القوة عدداً وعدة ؟

إن السبب يكمن بالفرق في الصفات الجوهرية لكلا الطائفتين؛ فالمسلمون كان بعضهم يشد أزر بعض، فاذا رأى أحدهم صاحبه يقاتل مشركاً ذهب لإعانته على عدوه، بينما كان المشرك يقول في مثل هذه الحالة، دعه إما أن يُقتل أو يَقتل وبالتالي أرجع أنا لأكسب الفخر في قتاله.

فبينما كان أهل مكة يحاربون رياءً وبطراً واشراً، كان أهل المدينة يحاربون في سبيل المبدأ والعقيدة في سبيل الله. لذلك انتصر المسلمون في بدر بثباتهم وترابطهم ووحدتهم، بينما انهار المشركون لأن جوهرهم على النقيض من ذلك.

إذن؛ فالصفات الجوهرية كالذرات في المواد، فكما أن اندماج الذرات الى بعضها تجعل الذهب ذهباً، وابتعادها عن بعضها يجعل الخشب خشباً؛ فكذلك الأمة التي تكون متراصة، منسجمة، متلاحمة، قوية.. لا تنهار ولا تغلب، بل

تنتصر من موقع الى موقع، ومن معركة الى معركة. أما تلك الأمة المتهاوية، المتباعدة، التي لا تملك الصفات المثلى.. فهي تنهار مع أول صدمة.

وإن هذه الصفات ـ الشجاعة والاستقامة والتلاحم والاستماتة والإيثار و..ـ هي التي تغير مجرى التاريخ، فبها كان الواحد من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام يعادل العشرات من الرجال، وبها كان الواحد منهم يبحث عن الشهادة دون الإمام الحسين عليه السلام قبل أخيه الآخر، وبها خلد الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره الميامين، وبهذه الصفات المثلى كانت هذه الأمة أمة صابرة خالدة قادرة على تحدي الضغوط.

**الدين ليس ظنون وتمنيات**

إن الدين ليس لقلقة لسان وظنون وتمنيات حلوة، بل هو جوهرة، لابد أن تستقر في القلب ثم تتفتح على الأعضاء.

وهذا ما يدعونا إلى أخذ الحذر والحيطة من كل غفلة وخديعة.. فالشيطان لا يخدع الإنسان بأن يقول لـه: هذا طريق الضلال فاسلكه، وإنما يزين له ذاك الطريق ويجعله في صورة أفضل من طريق الحق. فابن زياد مثلاً استطاع أن يخدع أهل الكوفة في قتال الإمام الحسين عليه السلام باستخراج فتوى من شريح القاضي. فالشيطان هنا استطاع ـ عبر جبة القاضي وعمامته وطول لحيته ومدة قضائه معاً ـ أن يخدع الناس.

ونحن يمكن أن نخدع أيضاً، فمن الواجب أن لا نغمض أعيننا حتى نرى طريقنا بشكل صحيح ونتجنب المزالق، ونستثير وعينا وعقولنا حتى ندرك سبيلنا ولا ننحرف عنه.

إن الإيمان والبر ليس في أن نقف في هذا الجانب أو ذاك فحسب، فان الصلاة مثلاً لا يسميها القرآن صلاة إذا لم تتحول في حياة الانسان الى سلوك، وفي لسانه الى صدق، وفي يده الى أمانة، وفي عينه الى خشوع،

وفي أذنه الى استماع الحق، وفي قلبه الى شجاعة، وفي عزمه الى توكل، وفي حركته الى استقامة. فإذا خلت الصلاة من مثل هذه المعاني فلا تعتبر صلاة ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، أي إننا نقف متوجهين الى جانب ما، غير إننا غير متوجهين الى الله، فهذا لا يؤدي الى حقيقة الصلاة، وقد قال ربنا عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ (طه/14) وقال جل وعلا: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون/4-5). لأنهم ساهون ليس عن ظاهر الصلاة فقط وإنما عن واقعها، وهذا الواقع والمعنى الذي سها عنه المصلي واستحق به الويل هو أنه يبالغ في ركوعه وسجوده ولكنه لا يساعد الناس ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون/7) أي إنه يسهو عن روح الصلاة وانها ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت/45).

وهكذا يمضي القرآن ليقول: ﴿وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوم الآخِرِ﴾ فعندما نقول بلساننا: إننا مؤمنون بالله، ونتوقف عند هذا الحد، فان هذا لا يكفي، بل لابد من الإيمان بالله وباليوم الآخر ظاهراً وجوهراً. فالإيمان الحقيقي باليوم الآخر يعني أن تضع الموت نصب عينيك دائماً، فتفكر في أية لحظة ستموت، وفي أية لحظة تدفن، وكيف ستواجه منكر ونكير، وعذاب القبر، وفي أية لحظة ستقوم القيامة، وما موقفك فيها. فهكذا يكون معنى الإيمان.

**النهج الايماني للانفاق**

**﴿وَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾.**

إيتاء المال إما على حب المال نفسه، وإما على حب الله سبحانه وتعالى. فإذا قلنا على حبه للمال، فهذا يعني أن هذا الإنسان المنفق ممن قال الله فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر/9) أي ان هذا الإنسان مع احتياجه الى هذا المال، وهذا الدرهم وهذا الدينار، إلا أنه يؤثر به الفقير ويعطيه المال رغم حبه واحتياجه اليه. وإما على حب الله تعالى، فيعني أن لا

يكون عن رياء وأن لا يكون به منّ وأذى، بحيث لا تعرف شماله ما أعطت يمينه.

﴿ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

يجب علينا أن نتدبر قليلاً في الآيات عند تلاوتها، فلا نقرأ القرآن هذراً ولا نبتلع الآيات ابتلاعاً. يجب أن نتوقف قليلاً عند كل كلمة ونتدبر فيها، فلننظر كيف يخاطبنا القرآن الكريم.

إنه يقول: ﴿وَالسَّآئِلِينَ﴾ أي الذي يأتي ويسألك أن تعطيه، فما هو التعامل مع الأصناف الأخرى التي سبقت (السائلين)؟

من هذا التعبير يجب أن تفهم أنه يعني أن لا تنتظر اليتيم فاقد الأب وليس له كفيل لكي يقف على بابك للسؤال، ولا تنتظر أقاربك ليأتي أحدهم إلى بيتك فيريق ماء وجهه بين يديك، وكذلك المسكين الذي يحمل عنوانه معه. فالمسكين يعني من أسكنه الفقر فهو يجلس على التراب. وابن السبيل أيضاً لا يسأل، فهو شخص عزيز في بلده يخرج ويأتي إلى بلدك فينقطع به السبيل فيصبح لا يملك شيئاً. فإذا جاءك أحد يسأل فلا يجب عليك أن تسأله هل أنت يتيم حقاً، هل أنت مسكين أو ابن سبيل، لأن السائل الذي أراق ماء وجهه لك يجب أن تعطيه. فإذا جاءك شخص راكباً على فرس وتوقف عند باب دارك وسألك أن تعطيه فلا تمنعه، ولا تقل أنه يركب فرساً، فلعله يركب فرساً ولكن لا يملك علفاً للفرس مثلاً. وهكذا إذا سألك أحد فأعطه، فهذه هي صفات المؤمن الحقيقي.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي العبيد، وفي زماننا الكثير من هؤلاء (في الرقاب) فهناك المسجونون في مناطق وأماكن معينة مسلوبو الحرية والحركة، ورقابهم في الواقع تحت سيطرة الآخرين، فانهم يعتبرون في الرقاب.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

إن الأمة التي لا تعرف العهد، ولا تعرف اليمين والميثاق، ولا تجهل كلمة الشرف، هذه الأمة تنهار بسهولة.

يجب أن تكون لدى الأمة ورجالها كلمة وثبات ووفاء بالكلمة والعهد، وهذا هو الذي يجعل الأمة متماسكة ثابتة.

وفي تأريخنا الكثير من مواقف الشرف والوفاء بالعهد والثبات عند الكلمة، منها أن الحجاج - لعنة الله عليه وعلى من يقتدي به – حكم يوماً على شخص بالاعدام. فقال هذا الشخص للحجاج: أمهلني سواد هذه الليلة لأذهب لعائلتي فاودعهم ومن ثم أعود. فقال له: أو يعقل أن تعود الى الموت برجليك؟! قال: نعم أعود. فطلب منه الحجاج أن يأتيه بمن يكفله حتى يعود. فلما نظر الرجل الى المجلس، قال: أنا لا أعرف أحداً، وهنا قام رجل وقال: يا أمير أنا أكفله. فقال له: إن لم يأت قتلتك مكانه. فقال الرجل: لا بأس. ووافق الحجاج على كفالته، فذهب المحكوم على أن يأتي في اليوم التالي وفي وقت محدد كالظهر مثلاً. ذهب الحجاج في اليوم التالي مع الكافل وجماعة من الناس والسياف الى باب مدينة الكوفة بانتظار عودة ذلك الرجل، ومع مرور الساعات الثقيلة اقترب الوقت من الظهر، واحمرت عينا الحجاج وأخذ ينظر الى الكافل وهو يقول: إن ساعتك قد اقتربت وسيقطع رأسك الآن. فقال له الرجل: إنني مستعد ولكن أتعلم يا أمير أن ذلك الرجـل المحكوم هو رجل شريف ولديه كلمة شرف، وبأنه آت حتماً قبيل أذان الظهر. وما هي إلاّ لحظات وإذا بغبرة من بعيد لم تنجل إلاّ وبالرجل المحكوم واقف بكل اطئمنان أمام الحجاج قائلاً: ها آنذا جئتك فأنفذ فـيَّ أمرك. فقال لـه: أوجئت الى الموت بقدميك يا هذا ؟! فقال لـه: أنـا أعطيت كلمة شرف أثبت عندها وأفي بعهدي لكي لا ينقطع الوفاء بيـن الناس.

أما الكافل فقال: كفلته لشرف كلمته، ولكي لا يقال بأن الثقة فقدت بين الناس. فعفا الحجاج عنهما معاً رغم طغيانه وظلمه.

إن كلمة الشرف هي قيمة الأمة، فلا ينبغي أن تكون كلماتنا رخيصة زائفة نطلقها بلا دراية والتزام، فمن يعطي كلمة يكون في ربقتها.

**الصبر رأس الإيمان**

دائماً ترى الانسان يدعي بحمل صفة الصبر مادام في رخاء ونعمة؛ فهو صابر مع وجود الطعام والبيت الواسع والفراش الوفير والأمن والصحة.. ولكنه مع أول مشكلة تراه ينقلب، أفيسمى هذا صابراً ؟

إن الصابرين هم ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ففي الادعاء ترى الكثير من الناس معك، ولكن عندما تحدث المشكلة تراهم قد انهزموا، ويفر كل شخص الى ناحية ويعطي تبريره، بل وحتى لا يكلف نفسه ليقول لك الوداع، أو يسلم عليك بعد ذلك.

إن الرجل -كل الرجل- إذا امتحنته عند الشدائد؛ عند التقوى. وليس التقوى هنا أن تغمض عينيك وتمشي متماوتاً منخفض الرأس. فليس هذا بتقوى، بل إن جوهر التقوى ورأس الايمان أن يكون لدى الانسان الصفات المثلى، كالصبر والعهد و كلمة الشرف.. ومجتمعنا الحاضر بحاجة ماسة لهذه الصفات.

إننا يجب أن لا نخدع أنفسنا بكلمات الايمان، لأن كلمات الإيمان مفيدة في مظهر من مظاهر الايمان، ليس إلا، إننا بحاجة الى جوهر الايمان لتقوية ودعم مسيرة الأمة ومقاومة التحديات. فإذا رأينا أمتنا تتعرض في هذا البلد أو ذاك لمشاكل وصعوبات ولم نكن قادرين على أن نتحداها، فلأن هذه الصفات الأساسية مفقودة لدينا. فنحن بالنسبة للوفاء بالعهد مثلاً مستعدون أن نعمل وننتج لسنة كاملة الى أن نوقّع ميثاقاً وعهداً أو منشوراً فيما بيننا، لكننا -

وللأسف- مع أول مشكلة وإذا بنا ننقض ذلك العهد الذي استغرق انشاؤه سنة كاملة. ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ (النحل/92)

فلماذا نقض الميثاق ؟ ذلك أن كل منا يتصوّر أنه أحسن من الآخر، وأنه الأفضل.. فقد نقض الميثاق.

روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: "إن في جهنم رحى تطحن، أفلا تسألوني ما طحنها؟ فقيل له: وما طحنها يا أمير المؤمنين؟ قال: العلماء الفجرة، والقرّاء الفسقة، والجبابرة الظلمة، والوزراء الخونة، والعرفاء الكذبة. وإنّ في النار لمدينة يقال لها الحصينة، أفلا تسألوني ما فيها؟ فقيل: وما فيها يا أمير المؤمنين؟ فقال: فيها أيدي الناكثين".[1]

فالناكث ذاك الذي يضع يده في يدك للمبايعة والعهد، ويقول: أنا معك حتى آخر يوم وآخر نفس، ولكنه مع أول زحزحة ينهزم. فمثل هذه الأيدي ستطحنها الرحى في النار.

إن من الصفات المفقودة عندنا هي كلمة الشرف، فلذلك نحن ممزقون حيث الواحد يصبح إثنين، والثلاثة أربعة، وهكذا.. حتى ترى أن هذا الواحد هو عدو نفسه. فيكون هنا شكلاً ووجهاً وموقفاً، وهناك شكلاً ووجهاً وموقفاً آخر، فيصبحوا بذلك منافقين، إذ المنافق ظاهره شكل وباطنه شكل آخر والعياذ بالله.

فالانقسامات تأتي من باطننا في الأصل، لذلك فلا فائدة من كلمات ومظاهر وتمنيات وخداع و...، بل يجب أن تتركز فينا الصفات المثلى من صبر ووفاء بالعهد وكلمة الشرف والبذل وغيرها. فنحن بحاجة الى الجوهر في الايمان والتقوى، دون المظهر.

---

(1) بحار الأنوار، ج2، ص107.

ولأنك تضع نظارة سوداء على عينيك، فانك لا ترى في هذا العالم سوى السواد، ولا ترى في الناس خيراً بل كلهم في شرّ.

فهل رأيت نفسك في المرآة يوماً ما؟ وهل تعرف نفسك لتزكيها؟ وهل حاسبت نفسك أولاً قبل أن تحاسب الآخرين؟ فأنت مثلهم أيضاً، نصفك شيطان ونصفك ملائكة، ففي ساعة تصبح في حالة من الذكر والبكاء والخشوع و... في ساعة أخرى تنجرف مع الشهوات و... فأنت وجميع البشر هكذا، فلماذا تخادع نفسك.

إننا بحاجة لأن نراجع أنفسنا في هذا الجانب، فلا يجدر بنا حين نرى أحداً غيرنا يخطئ أن نقول بأنه قد أصبح شيطاناً. كلاّ؛ فانه بشر يخطئ ويصيب خلال عمره، ونحن مثله أيضاً.

فعندما نقوم مثلاً مع أول الصبح ترانا وقبل كل شيء نسب الدنيا ونشتم الزمان ونعتب على الدهر و...، إننا عندما نقوم بذلك يجب أن نعرف بأننا في الحقيقة نعترض على حكم الله سبحانه وتعالى، لأن الدهر هو الله وأننا نعترض على التقدير الالهي والعياذ بالله. فترى أحدنا عندما يصاب بمصيبة ما، يعتب على الله فيقول: أي ربي ألم تجد غيري، لماذا تركت الناس جميعاً واخترتني لهذه المصيبة؟!

فلماذا كل هذا التضجر والرفض والاعتراض؟ إن جميع الناس تواجههم المشاكل وتداهمهم المصائب، وما أنا وأنت إلاّ جزء من هؤلاء الناس.

فإذا ما نظرت الى العالم الذي يحيط بك، تجده غارقاً في الأزمات والمشاكل. إذن لست وحدك تعيش المحن والصعوبات في الحياة، فما الداعي الى التذمر والتعب؟ فلينظر الانسان الى نعم الله سبحانه التي أنعم بها عليه والى رحمته الواسعة. فعندما تقوم في الصباح انظر الى أعضاء جسدك

وسلامتها وقدرتك على الحركة والنشاط، وتذكر هذا الشخص أو ذاك الذي يرقد في المستشفى وهو يشكو هذا المرض وتلك العلة و...

يجب أن تشكر نعم الله عليك، فالآن وأنت تمشي بصورة طبيعية لا تدري كم من نعمة عظيمة وهبها الله لك حتى تكون لديك القدرة على المشي. فلو ذهبت الى الطبيب وسألته عن عدد النعم في مشيك هذا لعرفت قدرها، فأعصابك يجب أن تكون سالمة، وقلبك ومعدتك وكليتك وغيرها كلها يجب أن تكون سالمة حتى تستطيع أن تمشي بضع خطوات. فلماذا تتجاهل هذه النعم الكبيرة وتشكو وتتذمر؟ فقل الحمد لله واشكره على نعمه. ولا تغفل أو تنتظر الى أن تمرض وتذهب الى الطبيب ليقول لك: إن الغدة الفلانية من الجهاز الفلاني قد تعطلت ويجب معالجتها، وعلى أثر ذلك فقد اختل نظام بدنك، أفعندما تصل الى ذلك تقول الحمد لله؟!

إنك يجب أن تنظر الى الحياة بعين الرضا، فكلما كان الانسان شاكراً فضل ربه، زاده الله نعماً، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (ابراهيم/7).

فبالشكر ينشرح قلبك، وتتفتح نفسك، ويتبصر عقلك، وتكون روحك فعّالة وحركتك جدية.. وبالتالي تصبح سعيداً في الدنيا والآخرة.

# الأخلاق في مواعظ القرآن

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِإِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان/12-19)

في سورة لقمان وصايا وتوجيهات أخلاقية سامية موجّهة بالدرجة الأولى الى الأجيال الشابّة من المجتمع المسلم، ومن المهمّ في هذا المجال أن نستعرض هذه الوصايا، ونسلّط الأضواء عليها، ونلفت أنظار الشباب المسلم إليها، إسهاماً منّا في نشر وإشاعة الثقافة والتربية القرآنية في أوساط الأمة.

**الشكـر للـه**

الملاحظ أنّ القرآن الكريم في الآيات السابقة يبتدئ هذه الوصايا على لسان لقمان الحكيم بالشكر الذي هو باب الحكمة ومفتاحها، فيقول عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ

﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فالحكمة هي النظرة الايجابية المتفتّحة الى الحياة، وفي هذا المجال روي أنّ النبي عيسى عليه السلام مرّ مع الحوّاريين على جيفة، فقال الحواريّون: ما أنتن ريح هذا الكلب! فقال عيسى عليه السلام: "ما أشدّ بياض أسنانه"![1] فعيسى عليه السلام قد بحث هنا عن الجانب الإيجابي في هذا الحيوان، لا على نجاسته، وعلى كونه جثّة هامدة، معلّماً إيّانا درساً في محاولة التركيز على الجوانب الإيجابية من الحياة.

إننا ما دمنا على هذه الأرض نتنفّس ونأكل ونشرب ونمشي في سهولها وجبالها، فلابدّ أن نحمد الله تعالى ونشكره، لأننا مازلنا أحياءً، ولم ننقل بعد الى تحت الثرى. ومما جاء في هذا المجال؛ كان الإمام زين العابدين عليه السلام إذا رأى جنازة يقول: "الحمد لله الذي لم يجعلني من السواد المخترم".[2] أي السواد الميّت الهالك. فالذي يستقرّ تحت التراب يودّ لو يعطى الدنيا بما فيها، لكي يعود الى الحياة ولو لساعة واحدة، حتى يبادر الى إصلاح ما كان فيه، ولكن هيهات له ذلك.

وهكذا؛ كان علينا أن نقدّم فروض الحمد والشكر لله عز وجل ما دام فينا رمق وأنفاس تصعد وتهبط.

وفي تتمة الآية السابقة يقول ربنا عز وجل: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾. فأنت إن شكرت فانّ مردود هذا الشكر سوف يعود إليك، لأنّ الله غنيّ عن شكرنا وحمدنا، ولا يضرّه كفرنا وجحودنا، كما يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. فبالشكر تزداد النعم، وتهطل البركات، وتنمو الخيرات، وبالكفران تزول وتضمحلّ.

إن البعض منّا يتمتّع بنعمة الأولاد، ولكنه لا يعرف قيمة هذه النعمة، فتراه عندما يعود الى بيته يفرغ عقده ومعاناة عمله على رأس زوجته وأولاده،

---

(1) بحار الأنوار، ج14، ص327.

(2) المصدر، ج78، ص266.

فيشتم هذا، ويزجر ذاك، وينهال بالضرب على الآخر. وبهذا الوضع الذي يخلقه لنفسه تراه يعيش الجانب السلبيّ من الحياة مع أهله وأولاده وأقربائه وأصدقائه، فلا يدرك قيمة هذه النعمة ولذّة هذه الحياة.

**عدم الشرك بالله**

ثم ينتقل السياق القرآني ليقدّم لنا مواعظ ووصايا لقمان الحكيم لابنه قائلاً: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِإِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فالمصدر الوحيد لكلّ هذه النعم، والرحمة، والقوّة، هو الله سبحانه وتعالى؛ فلا خشية ولا خوف إلاّ منه. فلا تتلفّت يميناً وشمالاً، بل سر في طريقك، فلا أحد يستطيع أن يؤذيك إلاّ بإذن الله، ولا مصيبة يمكن أن تتعرّض لها إلاّ ما كتبها الله عليك. فليكن اتكالك واعتمادك كلّه عليه جلّت قدرته.

ونشير إلى حقيقة مهمّة، وهي أنّه كما للتوحيد درجات فانّ الشرك له أيضاً درجات وأنواع؛ فهناك البعض من الناس لا يظهر الشرك بالمعنى اللفظيّ، ولا يعبد الأصنام الحجريّة أو الخشبية، ولكنّه يعبد أصناماً من نوع آخر، ويتوجّه بعقله وفكره إليها، فينسى الله تعالى ويسقط في هاوية الشرك دون أن يشعر.

**الإحسان الى الوالدين**

ثم ينتقل السياق الكريم الى الوصيّة بالوالدين، فيقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ فالله عز وجل يقرن شكره بشكر الوالدين، حيث يكون الشكر للأم أوّلاً، ثم للأب. وهنا أنصح أولئك الذين لا يصبرون على رعاية والديهم، أو ربّما يؤذونهما، فأقول لهم بكلّ ثقة واطمئنان؛ إنّكم إذا تصرّفتم التصرّف الذي لا يرضيهما، وبالتالي لا يرضي الله عز وجل، فانّكم ستمرّون بنفس هذا الموقف، وسيكون هناك من لا يرعاكم من أبنائكم في المستقبل، كما تصّرح بذلك الحكمة

القائلة: "كما تدين تُدان"، وكما يقرّر ذلك الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في قوله: ﴿ومَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات/39).

فعليك –إذن- إيّها الشاب المسلم أن ترعى والديك، وتعتني بهما، وتبرّهما، ولا تسمعهما إلاّ ما يرضيهما عنك، ويبعث على ارتياحهما، وخاصة أولئك الآباء والأمّهات الذين لم يبق لهم نصيب من العيش سوى سنوات قلائل أو ربما أشهر وأيّام معدودات. وعلينا أن لا ننسى هنا أنّ مردود الإحسان الى الوالدين هو مردود إيجابيّ على الإنسان المؤمن آنياً ومستقبلاً؛ فدعاء الوالدين مستجاب، وهما إن دعوا لك بالخير فسوف تجد كل الخير في حياتك، وإن دعوا – لا سمح الله – عليك باللّعنة والشرّ فانّ سخط الله سوف ينـزل عليك في الدنيا والآخرة، وهذا هو المردود الآني.

وأمّا في المستقبل؛ فانّ أولادك سيعاملونك بمثل ما عاملت به والديك، وربّما أفضل أو أسوأ، حسب تعاملك معهما.

والعمل بما يرضي الوالدين له – بالطبع – حدّ معيّن يبيّنه الله سبحانه في سياق الآيات الكريمة السابقة، وقد أشار إليه تعالى في قوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ فالأب لـه حدوده، وهو لا يستطيع أن يفرض على ابنه ما هو مخالف لمصلحة الدين والعقيدة، ومع ذلك يبقى التعامل معهما بالمعروف واللطف والحنان الى حين ورحيلهما عن هذه الدنيا مفروضاً على الابن، لأن هذا هو حقّهما الطبيعيّ عليك.

**اتباع القدوات**

ثم تنتقل الوصيّة القرآنية من نطاق الوالدين الى نطاق المجتمع، فيقول عـزّ مـن قائـل: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فاذا أردت سلوك طريق النور وجادّة الحق، فعليك أن تبحث عمّن

يسلك بك هذا السبيل الذي هو طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وآله، وإذا ما وجدته فعليك اتّباعه وطاعته، لأن طاعته هي طاعة الله ورسوله، وامتداد للخطّ الإيماني القويم.

**الحذر من الاسترسال**

وللأسف فان هناك ظاهرة سلبيّة في حياة الكثير منّا، ألا وهي الاسترسال؛ أي التصرّف بشكل اعتباطي، والقول والعمل بلا تفكير أو رويّة وانضباط بواعز ديني وأخلاقي. فربّما يجلس الواحد منّا مع مجموعة من الأصدقاء ليخوض في الأحاديث العقيمة معهم، لتبخّر هذا الأحاديث شيئاً فشيئاً الى كلام فارغ، وعَرْض لتوافه الأمور، وثرثرة تصحبها الغيبة والنميمة.. وشيئاً فشيئاً يؤدّي كلّ ذلك الى الانحراف، وإذا بالواحد منّا يجد نفسه مثقلاً بالذنوب بسبب ذلك الاسترسال.

وهذا السلوك يحذّرنا منه الله جلّت قدرته، فقد أوكل على كلّ منا ملكين يحصيان علينا كلّ صغيرة وكبيرة، بالاضافة الى شهادة ربّ العزة علينا، واطّلاعه المباشر، فهو معنا أينما كنّا. وتحذيره - تعالى – لنا في هذا السياق، ينقله لنا على لسان لقمان الحكيم مخاطباً ابنه: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ فما أجمل وأدق هذا التعبير القرآني. فيا ترى كم هي صغيرة ودقيقة حبّة الخردل التي يضرب الله سبحانه بها مثلاً؟! إنّ الألف منها لا يعدو وزنه سوى بضعة غرامات!

فايّاك أن تنسى الله تعالى، ولو للحظة واحدة، وتأمن جانبه. وعلينا أن ننضبط في أمورنا ومواقفنا، ونتكلّم بكلّ دقة ودراسة، وأن لا نلفظ كلاماً أو نقوم بعمل في غفلة من عقولنا. فالله رب العزة والجلالة ينظر إلينا، ويشهد جزئيات سلوكنا، ويحصي علنيا كلّ صغيرة وكبيرة، كما يصرّح بذلك في قولـه: ﴿**وَكُلَّ**

﴿إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (الاسراء/13). والطائـر هنا هـو كتاب الأعمال الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها؛ فكلّ عمل نقوم به مهما كان صغيراً، سنجده في يوم القيامة أمامنا كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يِظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف/49).

والأكثر من ذلك إنّه – تعالى – يعلم ما تكنّه القلوب، وما تنطوي عليه النيّات: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر/19) فكلّ نظرة، وكلّ لمحة يعلم بها، فلا تخدعنّ نفسك، فهو سبحانه لا يمكن أن ينخدع وقد أحصى عليك كلّ شيء.

**الصبر عند الشدائد**

ثم تنتقل هذه الوصايا القرآنية الأخلاقية الى جانب آخر؛ هو جانب البناء والتربية والاصلاح، فيقول تعالى على لسان عبده الصالح لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ فعلى الإنسان أن يكون صابراً مصابراً عند الشدائد والملمات، فلا تذهله الشدائد وتفقده صوابه وتوازنه فينهار ويتهاوى وينـزلق في المتاهات، شأنه كشأن الريشة التي تعصف بها أدنى ريح تهبّ عليها. فمصاعب الدنيا ليست ببدع من الأمر، بل إنها خلقت وجعل فيها العناء، ولو استقرّت بنا هذه الدنيا وطابت لنا، لكان من الأولى أن تطيب وتصفو للأنبياء والرسل والأوصياء، ولكنّهم لم يجدوا فيها غير البلاء والعناء، بل هم أشدّ الخلق فيها عناءً وبلاءً.

وقد نتصوّر أنّ المترفين وأصحاب السلطة ورؤوس الطغيان سعيدون ومطمئنون في حياتهم، في حين أنّ هذا التصوّر مغلوط تماماً، فلو كانوا كذلك لما راحوا يبحثـون عما يلهيهم ويسدّ الفراغ الروحي القاتل الذي يعانون منه بأنواع المنكرات والمجون، فتراهم يتسكّعون على موائد الخمور، وطاولات القمار، ونوادي الفساد.. يريدون الهرب والفرار من هذه الدنيا وفراغها بكلّ وسيلة،

وكثيراً ما يؤول الأمر بالكثير منهم الى الانتحار الذي يرون فيه الوسيلة الوحيدة للخلاص، وما هو بالخلاص، بل هو أوّل العذاب.

فعلينا –إذن- أن لا نحسب أنّ هؤلاء وأمثالهم سعداء مرتاحي البال، فالحقيقة ليست كذلك، فما علينا والحال هذا إلاّ أن نكون صبورين وقورين ذوي إحساس متين بأصالتنا، وعلى ثقة عالية بأنفسنا لكي لا نتعرّض الى الانهيار والتراجع والاحباط.

**الاعتدال في السلوك**

ثم ينتقل بنا السياق إلى توجيه أخلاقي وتربوي آخر في مجموعة هذه الوصايا الإلهية العظيمة، فيقول سبحانه: ﴿**وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ فعليك أن لا تتحدى الناس باثارة العداوة والبغضاء، وأن لا تتعالى عليهم.. ثم عليك أن تترك النـزاع والتشاجر معهم حول أبسط الأمور، وأتفه القضايا، وليكن صدرك رحباً واسعاً عندما تتعامل مع أفراد المجتمع في مرافق الحياة المختلفة، وخصوصاً في الطريق حيث يقول جلّت قدرته: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**﴾ أي إنّ عليك أن تنظّم حياتك وفق تخطيط اقتصاديّ سليم؛ فلا إسراف ولا تبذير ولا تقتير. وهكذا الحال بالنسبة الى السلوك والعمل فلا إفراط ولا تفريط، بل إنّ خير الأمور أوسطها.

فكلّ تصرّف يصدر منك في الكلام والتعامل والاقتصاد والسياسة والعلاقات الاجتماعية، يجب أن يكون وفق مقياس الاعتدال والتوازن، وفي إطار الصحّة والسلامة؛ فان كان هنا تجاوز وتعدٍّ في تلك الأمور، فانّ ضررها سوف يعود عليك.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ فطريقة كلامك، ومستوى صوتك يجب أن يكونا منضبطين بالأدب الرفيع،

والخلق السامي. فالحمير ذات صوت ممقوت تنكره النفس، وتشمئز منه لانّ نهيقها ينطلق بقوّة من أعماقها.

وخلاصة القول؛ فانّك – أيّها الشاب المسلم- عليك أن تعمل على تنظيم علاقاتك مع الآخرين في المجتمع المحيط بك، وأن لا تجعل هذه العلاقات يكتنفها الغموض والابهام، ولا تتصرّف بما يثير غضب وحفيظة الآخرين عليك، فيكنّوا ويضمروا لك الضعينة والحقد والعداء.

وإذا ما اختلفت مع أحد في يوم من الأيام، وتطوّر هذا الخلاف وتشعّب وتحول الى شيء من سوء التفاهم، فعليك أن لا تبقِ على هذا الخلاف والمقاطعة الى مدّة طويلة، بل حاول واسعَ جاهداً من أجل أن يبقى لك خط رجعة مع الصديق الذي اختلفت معه، وأن تحتفظ بشيء من الصلة ولو بمقدار شعرة واحدة، فلا تقطع – إذن- الجسور والأواصر بينك وبين الآخرين.

وفي المقابل؛ إذا ما أقمت علاقة صداقة مع شخص آخر، فلا تكن هذه العلاقات متجاوزة للحدّ المطلوب والمعقول، بل حاول أن تعتدل في هذه العلاقة، وأن تتخذ من هذا الاعتدال شعاراً لك في حبّك وبغضك، وفي جميع سلوكياتك وعلاقاتك الاجتماعية في الحياة كالأكل والشرب واللباس والمشي...

وبعد؛ فهذا هو مجمل الوصايا القيمة التي جاءت على لسان لقمان الحكيم وهو يعظ ابنه، فنرجو أن نكون قد وفّقنا الى تبيان بعض جوانبها.

الفصل الثاني:

# قد أفلح من زكاها

# تزكية النفس؛ هدف الرسالات الأسمى

من هو الإنسان، وما هو هدفه في الحياة، ولماذا يعمل؟ هذه الأسئلة وغيرها لابدّ للإنسان أن يطرحها على نفسه قبل فوات الأوان؛ فهو ما يلبث أن يطوي عمره سريعاً فلا تسنح له فرصة العودة، وكم يكون ندم الإنسان شديداً عندما تمرّ سنوّ حياته بعد أن يمضيها في طريق مغلوط؛ فلا هو يستطيع أن يسترجعها ليعمل فيها صالحاً، ولا هو بقادر على أن يعتذر الى ربّه وقد تواترت النذر، وتمّت الحجّة، ولله الحجة البالغة على خلقه.

إنّنا لو طرحنا تلك التساؤلات المصيريّة على أنفسنا في وقت مبكّر، لأغنتنا عن مشاكل كثيرة، ولكن للاسف فانّ هناك البعض من الناس لو وجّهت إليه تلك الاسئلة لا نصرف فكره مباشرة الى بيته وسيّارته وشهرته التي يحبها، وثروته التي يبتغيها، فتراه يجتهد في حياته من أجل أن يحصل على المال، ومن أجل أن يبني بيتاً واسعاً، أو يحصال على شهرة في المجتمع.

ولكنّ هذا الإنسان عندما يتعمّق في نفسه سيكتشف أنّ المال ليس هو هدفه. فالمال إمّا أن يزول عنه، أو يزول هو عن المال، فما سيحمله الإنسان الى قبره ليس إلاّ الكفن الذي هو زاد الميت، سواء كان غنياً أم فقيراً، على أنّ هذا الكفن لن ينفعه هو الآخر مادام سيتحوّل الى تراب؛ فكأنّ المال يقول للإنسان: أنا معك الى أن تبلغ الروح التراقي، وبعدها يودّع هذا المال الإنسان ليصبح للآخرين الذين ربّما لا يترحّمون على الميّت الذي ترك هذا المال.

وعلى هذا؛ فان تصوّر الإنسان أنّ هدفه في الحياة هو جمع المال، ونيل الشهرة وما إلى ذلك من الأمور المادّية يعتبر خطأً كبيراً، وهؤلاء النـاس

عادة ما تدركهم منيتهم قبل أن يتحوّلوا الى البيوت الجديدة التي بنوها. فكم من إنسان وإنسان بنوا البيوت وعمّروها ولكنّهم لم يوفّقوا لأن يعيشوا فيها، وحتى لو وفّقوا الى ذلك فانّهم سوف لا يخلدون في هذه البيوت كما يقول سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ (النساء/78).

فلنعمل لأنفسنا كما يشير الى ذلك ربنا عز وجّل في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة/105).

فنفس الإنسان هي التي تبقى معه، وهي التي تنتقل الى القبر ثم الى المحشر، فكلّما كانت هذه النفس طاهرة نقيّة، كان الإنسان بخير، ولن يذهب عمله سدىً، وإلاّ فان عمله سوف يذهب أدراج الرياح.

ولذلك؛ فان الناس لا يعملون في الحقيقة لأنفسهم رغم أنّهم يتصوّرون ذلك، بل نراهم يعملون لبيوت يشيّدونها، أو لشهرة يحصلون عليها... إنّنا نفكّر في أجسامنا، ولكنّ المشكلة هي أنّ هذه الأجسام مجرّد ثوب نلبسه ثم نخلعه لنرتدي ثوباً آخر. هذا في حين أنّ القرآن الكريم يأمرنا أن نعمل لأنفسنا أولاً؛ فالنفس البشريّة هي كالحجر الكريم المغروس في حجر عاديّ، والإنسان بامكانه أن يصقل هذا الحجر لكي يستخرج ذلك الحجر النفيس. فاذا ما زكى الإنسان نفسه سوف يكون بالتأكيد من المفلحين، بينما إذا دساها لا يكون إلاّ من الخائنين، كما يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس/9-10) فيجدر بالإنسان أن يهذّب هذه النفس ويزكّيها، لكي لا يذهب عمره سدىً.

### تزكية النفس تزيد الصفات الحسنة

إنّك لو عملت من أجل تزكية نفسك، فانّك تستطيع أن تضيف بين آونة وأخرى صفة حسنة إليها، لتنقص في المقابل صفة سيئة، وحينئذ ستكون من الناجحين، والإنسان الناجح هو الذي يصل الى درجة الفلاح.

ولا يغيب عنا أن رسالة الأنبياء في هذه الحياة هي أن يذكّروا الإنسان بهذه الحقيقة، وهي أن المال والأولاد وسائر مظاهر الحياة الدنيا لا تنفعه، وأنّ تزكية النفس هي الشيء الوحيد الذي من الممكن أن ينفعه.

وعندما يقول نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله: "إنما بعثت لاتمّم مكارم الأخلاق" [1] فانّ هذا يعني أنّ بعثته صلى الله عليه وآله لم تكن من أجل فتح البلدان، بل الهدف الحقيقي هو أن يذكّر الناس بضرورة بناء أنفسهم. وقد نجح صلى الله عليه وآله بالفعل في بناء وتربية شخصيات عظيمة خالدة من مثل الإمام علي عليه السلام، وفاطمة الزهراء عليها السلام....

وهذا هو مضمون ما دعا به النبي ابراهيم عليه السلام ربه عز وجل بعدما شيد ذلك البناء الشامخ المتمثل في الكعبة المشرفة، إذ قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة/129).

**الصلاة، أهم أساليب التزكية**

ومن أهم أساليب تزكية النفس الصلاة، وهي التي يقول عنها الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت/45)، وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ (طه/14)؛ أي إنّ الهدف من الصلاة أن يرتفع الإنسان الى مستوى ذكر الله، فينوّر قلبه بنور الله؛ لأن الصلاة بدون ذكر، هي صلاة غير حقيقية كما يقول القرآن الكريم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون/1-2).

فلنحاول أن نصلح صلاتنا، وأن نجعلها صلاة حقيقية لكي نضمن بذلك أن تكون سائر أعمالنا صالحة أيضاً، فالانسان لا يستطيع أن يكمل صلاته إلاّ بعد أن يكمل جميع أبعاد حياته؛ فلو كانت حياته مستقيمة

(1) بحار الأنوار، ج16، ص210.

لخشع قلبه، ولو أكل من الحلال لم يبق بينه وبين الله أي حجاب.

ترى لماذا نحن مستعدّون لأن نلهو ونلعب ولكنّنا غير مستعدين لأن نصلّي ولو لمدّة قصيرة؟ السبب في ذلك أنّنا قد ارتكبنا ذنوباً حجبتنا عن ذكر الله، وهذا كلّه من شأنه أن يؤثّر على صلاة الإنسان. وفي مقابل ذلك نرى أنّ الإنسان المهذّب الكامل الذي بني حياته على أساس صحيح، هذا الإنسان يتقبل الله جل وعلا صلاته، ويحبّبها إليه، فتراه لا ينتقل من صلاة إلاّ ليؤدّي أخرى.

وبالإضافة إلى الصلاة، هناك الصوم الذي يقول عنه ربنا تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/183). فالهدف من الصوم هو أيضاً أن يصل الإنسان الى مستوى التقوى، وهكذا الحال بالنسبة الى العبادات الأخرى.

والتقوى هي ملكة في قلب الإنسان، فهو مكلّف أن يتخذ من عباداته معراجاً الى التقوى، وعلينا أن نفهم في هذا المجال هذا الهدف المقدّس من بعثة الأنبياء المتمثّل في إيصال الإنسان الى مكارم الأخلاق. فإذا كان - على سبيل المثال - الهدف من بنائك للمسجد، أو تأليفك للكتب، أو صعودك للمنبر، أو دراستك هدفاً دنيوياً فانّك سوف تزداد بعداً عن الله. فكلّ هذه الممارسات يجب أن تتحوّل الى غذاء لروح الإنسان؛ أي أن يصلح هذه النفس التي بين جنبيه والتي هي أعدى أعدائه.

وعندما ندعو ربنا، يجب أن لا يكون دعاؤنا مجرّد لقلقة لسان، فالدعاء من شأنه أن يرفع الإنسان الى علّيين، فيحوّله الى رجل لا يفصله عن الله تعالى شيء، ولا يعاني من أيّ مرض في قلبه. أما إذا قرأ الدعاء في حين أنّ الكبر، والحسد، والأنانيّة وسائر الصفات السيّئة ما تزال رانية على قلبه، فما فائدة دعائه؟

إنّ من علامات الإنسان المؤمن الخشوع، فلننظر الى أنفسنا، ولنحاول

أن نعرف هل فيها شيء من علامات الإنسان المؤمن. وفي هذا المجال يروى إنّ رجلاً قال لأبي ذر رحمه الله: ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب. قيل له: فكيف ترى قدومنا على الله؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيئ فكالآبق يقدم على مولاه. قيل: فكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: أعرضوا أعمالكم على كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيْم وَإِن الفجّارَ لَفي جَحِيْم**﴾.قال الرجل: فأين رحمة الله؟ قال: إنّ رحمة الله قريب من المحسنين.[1] فالقرآن هو مقياس، وميزان، وفرقان؛ ومن صفات المؤمنين أنّ قلوبهم تخشع إذا ذكر الله وإذا تليت عليهم آياتـه.

فلننظر؛ هل هذه الصفات موجودة فينا أم لا، ولنحاول أن نحصل ولو على صفة واحدة منها، ونكون ممّن قال عنهم ربنا عز وجل: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الاَرضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً**﴾ (الفرقان/63)، فان لم نستطع فلماذا الادعاء، ولماذا نجعل سعينـا هباءً منثوراً، وعملنا بدون هدف؟!.

إنَّ هذه الأيّام التي نعيشها ما هي إلاّ فرصة ومهلة، ونحن لا نعرف متى سيحلّ أجلنا؛ فكثير هم الذين ذهبوا ولم يرجعوا، ونحن سنلحق بهم في يوم من الأيّام. فلنعمل لأنفسنا ولو لساعة واحدة من خلال تجسيد حقيقة الصلاة، والصيام، والأعمال العباديّة الأخرى.

وبناءً على كلّ ما مضى؛ فانّ تزكية النفس هي الهدف الأول والأساسيّ لرسالات الله جل وعلا، لتتحوّل النفس بذلك إلى جوهرة ثمينة نقية، وتغدو قريبة من الله، وحينئذ يأتيها النداء: ﴿**يَآ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ (الفجر/27-30)

---

(1) بحار الأنوار، ج6، ص137.

# كيف نحقّق ثبات النفس؟

لقد نزلت رسالات السماء من أجل تزكية النفس البشرية وتنمية المواهب الخيّرة فيها، وهي – أي النفس – أعدى أعداء الإنسان، وأقرب أصدقائه في نفس الوقت؛ فهي أعدى أعدائه إذا كانت أمّارة بالسوء، ناهية عن الخير، مسارعة الى الفساد، مسوّفة للتوبة.. وهي أقرب أصدقائه إذا كانت لوامة له فيما يعمله، داعية للخير.

وقد يكون في هذه النفس البشريّة ثقل يرسيها، ويبقيها صامدة أمام هزّات الحياة، وتغيّرات الأحداث؛ أما إذا كانت قلقة مضطربة فانّها ستهتزّ لأي سبب من الأسباب، وستكون مصداقاً للنفس الهلوعة كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (المعارج/19-21)

ففي البأساء تغدو هذه النفس مستسلمة، جزوعةً، فاقدة للصبر؛ وعند الرخاء تسيطر عليها حالة الطغيان، والبطر، والاستكبار.

والسؤال المطروح أمام كلّ واحد منّا هو: كيف يربّي الإنسان نفسه، وكيف يزكّيها؟ وهذا السؤال هو الذي يرتسم أمام الإنسان منذ نعومة أظفاره ومنذ بداية وعيه، وحتّى يسلم النفس الى بارئها، وقد تنسيه ضرورات الحياة وأحداثها ومظاهرها، هذا السؤال المهمّ، ولكنّ الصفعات القويّة التي يتعرّض

لها في حياته ما تلبث أن تهزّه من الأعماق، وتدعوه الى طرح هذا السؤال مجدّداً على نفسه.

**300 تذكرة**

وقبل الإجابة على هذا السؤال لابدّ أن نذكّر بأن ما يحتاج إليه الإنسان هو التذكرة الى درجة أنّ هذه الكلمة استعملت في القرآن الكريم لأكثر من ثلاثمائة مرّة، كلّ ذلك للدلالة على أنّ الله سبحانه وتعالى قد أودع فينا عقولاً لا تكفي لتوجيهنا، وفطرة نقيّة من شأنها أن تربّينا، وجعل في أنفسنا واعظاً وزاجراً منها. ولكنّ غفلة الإنسان ونسيانه وجهله وارتباطه بحوادث الزمن، هذه الأمور تنسيه تلك الفطرة، وتحجبه عن ذلك العقل.

إنّ الفطرة لا تحتاج من أجل إستيقاظها إلاّ الى التذكرة والتنبيه، وهي مستغنية عن التعليم والتوجيه من الخارج. فالشيء الذي ينفعها هو أن ينبّه الإنسان ذاتياً، وأن يصغي الى الكلام ويذهب به بعيداً عن أجواء الحديث، ويفكّر فيه تفكيراً جدّياً باعتباره قضيّة حساسة مرتبطة به.

إن الفطرة تعني أن المسؤول الأوّل والأخير عن تزكية الانسان هو نفسه لا غيرها. فلا أحد في العالم يستطيع أن يزكّي الإنسان وينمّي مواهبه الخيّرة إلاّ الإنسان نفسه، وهذه هي سنّة الله تعالى في الحياة، وهي سنّة ثابتة لا يمكن لأحد أن يغيّرها.

والأنبياء على عظمتهم، وعلى المواهب والقدرات الهائلة التي وفّرها الله لهم، كان دورهم هو دور المذكّر، كما يصرّح بذلك القرآن الكريم في آيات عديدة منها: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات/55)، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية/21-22) ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾ (الطور/29)، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى/9).

وهكذا الحال بالنسبة الى القرآن الكريم، فهو أيضاً له دور التذكير.

**كيف يزكّي الإنسان نفسه؟**

وهنا نطرح السؤال من جديد لنقول: مادام الإنسان هو المسؤول عن نفسه، فكيف يجعل منها تلك النفس التي تكون صديقة لـه؟

إنّ الإنسان من الممكن أن يفكّر في بناء بيته، وتطوير وسائل رفاه نفسه، ولكن مثل هذه المظاهر لا تلبث أن تنتهي وتزول ليكون مصيرها الفناء والاندثار، فالانسان لا يحمل الى قبره سوى كفنه، ولكنه في لحظة واحدة يترك كلّ شيء بعد أن تنتهي حياته، ونفسه وحدها هي التي ستبقى معه. فهذه الصديقة لا يمكن أن تتركك حتّى إذا تركتها، فهي ستلاحقك في البرزخ، وفي يوم القيامة، وهي معك أينما ذهبت، لأنّها هي التي ستحدّد مصيرك في نهاية المطاف.

**قضيّة مصيريّة**

إنّ الاهتمام بهذه النفس، والعمل على تزكيتها، وتنمية الطاقات الخيّرة فيها.. كلّ ذلك يمثّل قضيّة هامّة ومصيرية بالنسبة إلى الإنسان، ومع ذلك؛ فانّه ليس في العالم حق يشبه الباطل كالموت؛ فالموت حق لا ريب فيه، وما من أحد يشك أنّه سيموت في النهاية، كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ﴾ (الزمر/30) ومع كلّ ذلك فانّنا جميعاً نلغي الموت من تفكيرنا، ونكذّبه نفسيّاً وسلوكيّاً.

روي عن حفص أنه قال: سمعت موسى بن جعفر عليه السلام عند قبر وهو يقول: "إن شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله، وان شيئاً هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره". [1]

وعلى هذا؛ كان من الأفضل للإنسان أن لا يقصّر إهتمامه على الآخرين، بل عليه أن يهتمّ بنفسه بالدرجة الأولى، ومادام الأمر كذلك، فيكف نربّي في

(1) بحار الأنوار، ج70، ص103.

أنفسنا الثقل الذي أشرنا إليه لكي تهتزّ نفوسنا عند وقوع الأحداث الصعبة، ولكن لا تستسلم لأبسط مصيبة، وتطغى لأبسط نعمة، ولا تغيّر مواقفها إذا دخلت في خضمّ الحياة الاجتماعية، فتكون ضعيفة محدودة تهزّها أبسط الأحداث؟

وقد أكّدت الأحاديث الشريفة على أن يدعون الإنسان ربّه من أجل أن يمنحه نفساً عالية الهمّة، وقورة عند الأحداث، راسية كالجبال، مستقيمة لا يمكن أن تتغيّر كما نرى ذلك في الدعاء التالي: "اللهم صلِّ على محمد وآله، وهب لي في الغداة رضاك، وأسكن قلبي خوفك، واقطعه عمّن سواك حتّى لا أرجو ولا أخاف إلاّ إيّاك، اللهم صلِّ على محمد وآله، وهب لي ثبات اليقين، ومحض الاخلاص، وشرف التوحيد، ودوام الاستقامة، ومعدن الصبر، والرضا بالقضاء والقدر".[1]

**ثقل الإيمان**

وهذه الصفات كلّها تنبع من وجوب أن يمتلك الإنسان ثقل الإيمان، وحينئذ سيتمتّع بثبات اليقين والنضج والاستقامة مهما كانت الظروف.

وللأسف؛ فانّ الإنسان يكون في بعض الأحيان متزعزعاً، غير ممتلك للنفسيّة الثابتة المطمئنة، فترى نفسه تتقلّب كلّما تقلّبت الأحداث وتغيّرت الظروف؛ فما دامت حياته تسير دون منغصّات، فان الدين أمر جيد، واتّباعه لازم. ولكن بمجرد أن يصاب بابتلاء أو يتعرض لمضلة، تراه ينسى كلّ شيء، ويتخلّى عن دينه، ومبادئه.

إنّ ثبات اليقين يعني عدم التردّد، وعدم التغيّر حسب متغيّرات الزمن، وحسب الأحداث المتغيّرة في الحياة. فهناك الكثير من الناس يكونون مستقيمين في حياتهم، ولكنهم ينحرفون في لحظة الموت فيدخلون النار، وتسوء عاقبتهم.

---

(1) بحار الأنوار، ج86، ص307.

**المداومة على الاستقامة**

وهكذا؛ فانّ المهمّ هو المواظبة والمداومة على الاستقامة والاخلاص، وفي هذا المجال يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: "هلك العاملون إلا العابدون وهلك العابدون إلا العالمون ، وهلك العالمون إلا الصادقون، وهلك الصادقون إلا المخلصون، وهلك المخلصون إلا المتقون، وهلك المتقون إلا الموقنون وإنّ الموقنين لعلى خطر عظيم".[1] والمراد بالخطر هنا، هو أن صعوبة المشاكل، وثقل الامتحان، وشهوات الدنيا.. كلّ ذلك قد يغيّر في لحظة من اللحظات واقع الانسان. ولذلك يجب أن لا يكون مغترّاً بنفسه، فالعُجب هو العامل الأساسيّ الذي يفسد الإنسان، ويبطل أعماله. والله عز وجل لا يقبل من أحد أن يمنّ عليه، ولا يريد أن يغترّ المرء بعمله؛ بل عليه أن يطلب التوفيق واللطف من الله سبحانه وتعالى، وأن يكون راجياً لرحمته، خائفاً من عاقبته مهما كانت أعماله الصالحة كثيرة.

**شروط الاستقامة الدائمة**

إنّنا ومن أجل أن ننمّي في أنفسنا صفة الاستقامة الدائمة، والوقر في الإيمان، علينا أن نوفّر في أنفسنا الشروط التالية التي سأذكرها فيما يلي باختصار:

**1- الرؤية التأريخية**

إنّ علينا أن لا ننظر الى الحدث وحده، بل الى ما بعده وقبله، والأحداث المشابهة له في أعماق التأريخ. فلو انهزمت في جبهة فعليك أن تتذكّر أن الإنسان ينهزم في معركة، ويربح في معركة أخرى، وإذا ما كسبت جولة، فلا تقل إنّها الجولة الأخيرة، فقد تخسر الجولة القادمة. ومثل هذه الرؤية التأريخية تمنح الإنسان الثقل والوقر اللازمين للثبات والاستقامة والصمود.

**2- النظرة المتفاعلة مع العمل**

---

(1) بحار الأنوار، ج67، ص245.

علنيا أن ننظر الى الحدث نظرة متفاعلة مع عملنا؛ فكلّ قضاء وقدر ينـزلان على الإنسان؛ إنّما ينـزلان بسبب ما بدر منه من تقصير، أو لكي يدفعاه الى العمل في المستقبل.

والذي يمتلك القدرة على التدارك ليس له عذر، فعندما ترى أنّك قد خسرت شيئاً مهمّاً جدّاً، ولكن باستطاعتك أن تعمل من جديد لتحصل عليه وعلى أكثر منه، فلماذا تنهزم نفسياً، ولماذا تدع الاستسلام يسيطر عليك؟

صيحيح إنّ بعض الأمور لا يمكن أن تعوّض؛ كأن يموت أحد أقارب الإنسان أو أصدقائه، ولكن الإنسان عليه أن يرى الأمور بمقياس نوعي لا شخصيّ. فعندما يموت أحد أصدقائك، فلابدّ أن تعوّض عنه بأصدقاء جدد دون أن يعني هذا بالضرورة أن تقطع العلاقة النفسيّة والروحية بالصديق الميت. فعليك أن لا تبقى تجترّ الماضي، بل من الضروري أن تتحرّك في رحاب وآفاق المستقبل. فما دامت آمالك عريضة، فتحرّك نحوها. فنظرتك الى الحياة يجب أن تكون نظرة متفاعلة مع العمل، لا نظرة انفعال واستسلام.

**3- العلم**

إن الإنسان يزداد وقراً وثقلاً في النفس كلما ازداد علماً، فيكون كعلماء وعظماء التأريخ الذين لم تهزّهم الأحداث، لأنّهم لم يكونوا مرتبطين بالمظاهر الخارجية، بل كانوا ينظرون الى الحياة نظرة علميّة ثابتة، لا نظرة عاطفة.

وفي هذا المجال يذكر أن أحد المؤلّفين الكبار في علم التربية قال: إنّ من أفضل الأساليب التي تربّي الإنسان، وتنمّي صفة التواضع فيه أن يأتي إليه والده عندما يبلغ سنّ الرشد بمجهر وتلسكوب، فينظر الى النجوم والحجرات الضخمة الهائلة من خلال التلسكوب، والى النطفة بالآلة الأولى ليرى ويتأمّل الحيوانات المنويّة المتناهية في الصغر، وليعرف أنّه قد خلق من هذه

الحيوانات، ويقارنها مع تلك المجرّات والكواكب الهائلة، وحينئذ من الطبيعي أن يتضاءل هذا الإنسان، ويعرف قيمة نفسه.

**قلب وقور**

إنّك – أيها الإنسان – إذا وفّرت في نفسك تلك الشروط الثلاثة؛ النظرة التأريخية، والنظرة المتفاعلة مع العمل، والعلم، فانّ قلبك سرعان ما يصبح وقوراً، ونفسك متينة راسخة ثابتة العقيدة عند فورة العواطف وهزّات الحياة والمدح والذم والغنا والفقر.. وفي جميع أحداث الحياة الأخرى. وسيعيش الإنسان حياة أفضل، يتحرّك فيها دائماً من أجل الوصول الى الكمال، والدرجات الايمانية العليا، والأهداف التي رسمها له الخالق تعالى والتي ظهر الى الوجود من أجلها من خلال سيره الدائم، وحركته المتواصلة، وسعيه الحثيث من أجل التقدم والتكامل.

وفي غير تلك الحالة، ومن دون أن يوفّر الإنسان في نفسه الشروط الثلاثة السابقة التي هي من العناصر الأساسية للإيمان الحقيقي، فانّ نفسه ستكون مريضة، معقّدة، مهزوزة، محدودة، متلوّنة حسب تلوّن الأحداث وتقلّبها، وبالتالي فانّها لا يمكن – مطلقاً – أن تصل الى الكمال؛ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، وستكون عاقبتها سيئة، لأنها في هذه الحالة ستخسر – لا قدّر الله – الدنيا والآخرة، وتكون مصداقاً للخسران المبين الذي حذّر القرآن الكريم منه مراراً وتكراراً.

من أعظم الأهداف التي سعت الى تحقيقها رسالات السماء، أن تقدّم العون للإنسان من أجل أن يكتشف ذاته؛ لأنه عندما يولد؛ يولد وكل جوارحه وأحاسيسه عبارة عن نوافذ تطل على العالم الخارجيّ، وتسعى من أجل اكتشافه؛ وعلى سبيل المثال فان عين الإنسان موجّهة الى الخارج، وهكذا الحال بالنسبة الى أذنه، وحاسة اللمس، والذوق، والشم عنده.

وفي خلال مسيرته التي قد تطول سيكتشف الكثير من حقائق، وظواهر هذه الدنيا المحيطة به، ولكنه – مع ذلك – قد يبقى في النهاية غير مكتشف لنفسه التي هي أقرب الأشياء إليه. وهنا يبدأ التناقض الكبير بين إنسان يعرف كلّ شيء عن العالم، ولكنه لا يعرف – في ذات الوقت – أيّ شيء عن بيته الذي هو أقرب الأشياء إليه من بين العالم المحيط به.

وهذا التناقض من شأنه أن يحمل الإنسان الى مالا تحمد عقباه؛ فمشكلة الغالبية العظمى من الناس تكمن في هذا الجانب، وهو أنّهم لم يكتشفوا أنفسهم، ومثل هؤلاء يقتلون الطموح في داخلهم، ويولدون بشراً ولكنّهم يموتون كما تموت الأنعام إن لم يكونوا أضلّ سبيلاً؛ فالواحد منهم يحلم – في البدء – أن يكون عبد الله تبارك وتعالى، وإذا به يتحوّل الى عبد للطاغوت؛ وفي البدء تراه يسعى من أجل الحصول على الجنة، ثم إذا بك تراه يسعى من أجل دار صغيرة ينتقل منها الى قبر ضيّق؛ وفي البدء قد تراه يحلم بأن يكون مصلحاً في هذا العالم، ثمّ إذا به يتحوّل الى جزءٍ وأداة من جهاز الإفساد.

**أين المهرب من الضمير؟**

والإنسان – في هذه الحالة – إذا تحاكم الى ضميره أصابه الندم، ولكنك ترى أنّ البعض يهرب من ضميره كالذي يهرب من ظلّه؛ وعلى سبيل المثال فان أولئك الذين يتّجهون الى المخدّرات، وعالم الجريمة، والمشروبات

الكحولية.. فانّ أهم هدف من أهدافهم الهروب من الضمير، ولكن أين يهربون – يا ترى – مما يلازمهم؟

والقرآن الكريم يصف مثل هؤلاء في قوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَدُ فِي السَّمَآءِ﴾ (الانعام/125) فترى الواحد منهم يعيش دائماً الحرج، والقلق الداخلي. وهذه الظاهرة تعود – أولاً – الى عدم اكتشاف الذات، ذلك لأن الإنسان خُلق سويّاً، وخلق طموحاً ومتطلعاً، ولكنّه انتهى الى هذه السبل بسبب عدم محاولته اكتشاف ذاته ومعرفتها. فمن المستحيل لإنسان يعرف نفسه، ويتحسّس بكرامتها، أن يقع في مثل تلك المطبّات؛ فهو عندما يرتكب الفاحشة، وعندما يختار الطريق المنحرف يكون قد انسلخ عن ثقته بنفسه واستقلاله واحساسه بذاتيّته وعزّته، فتراه يركض وراء السراب...

**السعادة في الذات**

ومن المشاكل الأخرى التي يبتلي بها هذا الإنسان، هي مشكلة فقدان السعادة. ففي كثير من الأحيان نرى الإنسان يركض سنين طويلة من عمره وراء السراب، في حين أنّ الماء قريب منه. فنحن نبحث عن السعادة في غير ذواتنا، في حين أنّها – أي السعادة – موجودة فيها.

وفي الحقيقة؛ فانّ جهد الحكماء، وعلماء الأخلاق، والأنبياء العظـام من قبلهم كان يتلخّص في لفت نظر الإنسان الى أنّ السعادة في ذاته. فمن الضلال المبين، والضياع الدائم أن نبحث عن السعادة خارج إطار أنفسنا.

ولإيضاح هذه الفكرة أضرب المثال التالي؛ لنفترض أنّ هناك أشخاصاً يتوفّر كل شيء لديهم من الناحية المادية، ولكنّ شيئاً واحداً غير متوفّر لديهم وهو أنفسهم. فهم لا يمتلكون شيئاً اسمه (الذات)، وبالنتيجة فانّهم لا يمتلكون السعادة؛ وعلى سبيل المثال –مرّة أخرى- فانّ باستطاعة الواحد منهم أن يركب طائرته، ويذهب الى أيّ مكان، ولكنّه لا يمتلك الهدف الذي من أجله

يذهب إلى هذا المكان أو ذاك. فالإنسان الذي يرغب في رؤية العالم فانّ الطائرة تنفعه، فهو يركب هذه الطائرة لرؤية العالم، ولكنّ أولئك الذين لا يملكون رغبة في رؤية العالم، لا فائدة ركوبهم الطائرة، أو تحرّكهم من مكان إلى آخر؟!

**من موجبات السعادة**

وهكذا فانّ العمل الرئيس للرسالات الإلهيّة أن تعطي الإنسان الهدف، وأن ترسم أمامه شيئاً يتحرّك نحوه، لأنه يمتلك - على الأقل- الذاتية. ولكن البعض من الناس يعيشون –للأسف– في سجون أنفسهم الضيّقة، رغم أنهم يعيشون في هذا العالم الرحب، فتراهم لا يعيشون مأساة أمتهم.

وعلى هذا الأساس؛ فان اكتشاف الذات هو الهدف، فلابد للإنسان أن يكتشف نفسه، ويغور في داخله، وأن لا يركّز نظره على ما حوله دائماً، بل عليه أن يرى في بعض الأحيان ما في داخل نفسه. فانظر أيّها الإنسان الى نفسك، واكتشف خفاياها، ففيها كنوز عجيبة.

**الكذب ، العائق الأكبر**

والشيء الذي يمنع الإنسان من أن يكتشف ذاته، هو الكذب. فقد قال الإمام الحسن العكسري عليه السلام: "جعلت الخبائث كلها في بيت وجعل مفتاحها الكذب".[1] فالكذب يفقد الإنسان رؤيته الحقيقية الى العالم، والى نفسه، وهو عين الظلام، وهو يشبه الى حدّ كبير أن يجعل الإنسان نفسه في زنزانة، ويغلق الأبواب لأنه لا يرى الحقائق كما هي. فالإنسان في البداية يكذب على الناس، ولكنّه كما يكذب عليهم فانه يكذب قبل ذلك على نفسه، وفي داخله تتغيّر صفة أساسية هي الاستقامة. ولذلك كانت الكذبة الأولى صعبة على الإنسان، في حين إن الثانية والثالثة تكون أسهل عليه حتى يتعوّد على الكذب تماماً. هذا ما

(1) بحار الأنوار، ج69، ص263.

صرحت به رواية أبي بصير، إذ قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام يقول: "إن العبد ليكذب حتى يكتب من الكذابين، وإذا كذب قال الله: كذب وفجر". [1]

فعندما يصبح الإنسان كذاباً، لا يمكن إصلاحه، فهو يكذب حتى فيما يضرّه، لأنه يعيش – في الواقع – حالة أخرى، لأن كل حقيقة خارجية تعكس في داخل الإنسان شيئاً، فعندما يكذب فان الكذب هذا ينعكس على نفسه، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء/142) ويقول سبحانه في آية آخرى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ﴾ (البقرة/9).

إنّ هذه الحالة تتحوّل شيئاً فشيئاً الى ختم على القلب، وغشاوة على العين. وهذا ما نقرؤه في سورة البقرة في قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة/7) فهم يعيشون منذ الآن في العذاب الأليم، لا في الآخرة فحسب.

**التبرير مرض خفيّ**

وهناك مشكلة أعظم، وأكثر خطورة من الكذب يعاني منها الإنسان، لأنها أكثر خفاءً، فالمرض خفي، كلّما كان أكثر خطورة؛ لأنه يغزو الجسم من حيث لا يشعر الإنسان. وهذه الحالة تنطبق تمام الانطباق على مرض (التبرير)، أو الكذب المغلّف.

ونحن إذا فتّشنا عن الهدف الحق للرسالات الإلهية، سنكتشف أن الهدف لم يكن مقاومة الكذب العلني فحسب، فالناس كانوا يخدعون أنفسهم؛ والكفار، والمشركون كانوا يعتقدون أنهم على حق؛ وكانوا في عهد النبي صلى الله عليه وآله يبرّرون شركهم بقولهم: إنّ الأصنام تقرّبهم الى الله جل وعلا زلفى.

---

(1) المصدر، ص262.

وهكذا فانّ الأنبياء جاؤوا لمقاومة التبرير، لا لمقاومة الكذب الظاهر؛ والدليل على ذلك القرآن الكريم نفسه، فهو ينقل لنا جدل الكفار والمشركين، وكيف أنّهم يضربون الأمثال المضلّة، ويحاولون أن يقلبوا الحقائق، كما يشير ربنا تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ (الاسراء/48)، وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس/78).

والقرآن الكريم يحدّثنا في بعض الأحيان عن حالة من الجدل تتحكّم في الإنسان، فيقول: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف/54)، وفي آية أخرى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (يس/77)؛ أي إن هذه النطفة الحقيرة المتواضعة من شأنها أن تتحوّل إلى إنسان يجادل الرسالة الإلهية، ويقف في وجهها.

والهدف من الرسالات الإلهية القضاء على هذه الصفة السلبيّة في نفسه الإنسان، ألا وهي صفة التبرير، والالتفاف على الحقائق.

ونحن نسأله عز وجل أن يجنّبنا داء التبرير العضال، هذا الداء الذي يعيق مسيرة التقدّم والتكامل، والذي يحول دون أن يكتشف الإنسان ذاته ويعرفها؛ هذا الاكتشاف الذي يعتبر نقطة البداية، والمنعطف الحساس والخطير في مسيرة الإنسان؛ إذ من خلال اكتشاف الذات يستطيع الإنسان وبكل مقدرة أن يكتشف العالم المحيط به، والظواهر التي تدور حوله.

# كيف نقتحم عقبة الذات؟

لو أن هذا العلم الذي سخّره الله تعالى للإنسان كان قد استغلّ بطريقة معقولة، ومن قبل جميع الشعوب، لما كانت هناك حاجة، ولما ظهرت مأساة، ولما ساد هذا الفقر العام الذي يشمل اليوم أكثر من ثلثي أهل المعمورة، خصوصاً وأنّ التقنية وصلت في هذا العصر الى حدّ بحيث أنّها لو استغلّت استغلالاً صحيحاً لما هدّدت المجاعة والأمراض الخطيرة الشعوب المستضعفة في العالم، ولعاشت هذه الشعوب في أمن وسعادة ورفاه.

ترى لماذا نرى أنّ هذه التقنية مقتصرة على بلدان معيّنة وعلى أناس معيّنين في هذه البلدان، في حين أن أغلب الشعوب محرومة منها؟ ومن المسؤول عن هذه الأوضاع؟

**نزعتان في النفس الانسانية**

الإجابة ننتزعها ونستوحيها من كتاب الله المجيد، ففيه خبر من سبقنا، وحكم حاضرنا، وعلم المستقبل، وإذا ما دقّقنا في الآيات القرآنية اكتشفنا أنها تقرّر أن في الإنسان نزعتين؛ نزعة تدعوه الى التملّك والخلود، وأخرى تحثّه على العطاء والفداء؛ النزعة الأولى تغذّيها شهوة البقاء لدى الإنسان، وشحّ النفس، والتمحور حول الذات الأمّارة بالسوء. أمّا النزعة الثانية فيورثها العقل والوحي، وهي تدعو الإنسان الى الاحسان، والى تجاوز ذاته الى الآخرين، والعطاء والتضحية، وهي تتجلّى في ملاحم البطولة والإيثار.

وهاتان النـزعتان موجودتان لدى كلّ إنسان؛ فلا يوجد أحد تنعدم فيه شهوة الملك والخلود، أو حبّ الإحسان والعطاء والايثار. فكلّ إنسان مركّب من العقل والشهوة؛ من نفحة من روح الرحمان، وقبضة من تراب الأرض ونفثات الشيطان.

وإذا تغلّبت نزعة الشهوة على نزعة العقل، فحينئذ تبدأ المشاكل بالظهور، وتسود الأنانية، وعلى العكس من ذلك فانّ نزعة العقل الداعية الى العطاء والفداء والايثار إذا ما سادت فانّ الحالة المعاكسة هي التي ستتغلّب؛ فإذا ما أنفق الغنيّ على الفقير، وبادر الإنسان الى خدمة الآخرين وإضمار الحبّ لهم، فان الدين سيصبح محور حياة البشريّة، وسيربّى البشر على أساس تغليب العقل على الهوى، وبالتالي تغليب نزعة الخير على نزعة الشر.

### سيادة الفلسفة المادّية

وللأسف فإنّ الفلسفة المادّية في الغرب والتي بُنيت على أساس الأنانية عندما ظهرت رأينا أنّها سرعان ما دخلت في أدمغتنا، فاذا بكلّ و احد منّا لا يفكّر إلاّ بنفسه، وإذا بمصلحة الأمّة غير مطروحة، ومستقبلها مهمل، فنحن اليوم نتأثر بالثقافة الغربية شئنا أم أبينا، فالقليل من المسلمين استطاعوا الإبقاء على أصالة حضارهم، وقرآنهم، وسنّة نبيهم صلى الله عليه وآله، وأئمتهم عليهم السلام. فقد انساقت الغالبية العظمى منهم في تيار الحضارة الغربيّة، وإن احتفظت ببعض المظاهر الإسلامية مثل الصلاة والصيام، ولكنّ الأفكار الغربية تموج في أذهانهم في الحقيقة.

### العطاء سرّ تقدّم المسلمين الأوائل

وإذا ما درسنا التأريخ رأينا أن المسلمين الأوائل وعلى الرغم من تخلّف الأمم التي كانت تعيش حولهم كانوا يتميّزون بنـزعة العطاء والتضحية، ومثل هذا السلوك هو في الحقيقة تعبير عن دينهم، بل وعن كلّ ديـن الهيّ

خالص، لأنّ الرسالات السماويّة كلها تدعو الإنسان الى الذوبان في المجتمع، وأن ينمّي خصلة الإيثار في نفسه، كما يقول الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر/9).

وهذا يعني أن على الإنسان أن يسال الله سبحانه أن يحفظه من شحّ نفسه وبخلها، ومن زنزانة أنانيّته، والقرآن الكريم يربّي الإنسان على هذه الصفة وخصوصاً في سورة البلد التي يبتدؤها بالقسم قائلاً: ﴿لآ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، (البلد/1) والبلد – هنا – يعني الحضارة التي تبلغ مستوى من الأهمية، بحيث تستحقّ أن يقسم بها الخالق تعالى.

**مقوّمات الحضارة الإلهية**

ثم يقول ربنا عز وجل: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد/2) وفي هذه الآية إشارة الى أنّ أوّل مقوّم تحتاج إليه الحضارة هو القيادة الرسالية الإلهية، والمراد بـ (أنت) شخص النبي صلى الله عليه وآله الذي يجّسد الوحي الإلهي.

ويشير ربنا عز وجل في قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (البلد/3) إلى ثاني قيمة من قيم الحضارة وهي (الترابط الرحميّ)؛ لأن هذا التنظيم هو أوّل تنظيم طبيعيّ في الأمة، فمن الوالد والولد تتكوّن الأسرة، ثم العشيرة، ثم الشعب، وهكذا تتنامى الروابط والعلاقات الاجتماعية.

وتتوالى الآيات القرآنية لتقرّر حقيقة أنّ الإنسان يجب أن يناضل ويكافح من أجل تسخير الطبيعة والأرض، فيقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد/4) وفي هذا المجال يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: "من وجد ماءاً وتراباً ثم افتقر، فأبعده الله".[1] وعلى هذا فانّ الحضارة لا

(1) بحار الأنوار، ج100، ص65.

تقوم على مجموعة من الكسالى والخاملين، بل على أساس النشاط والحركة والحيويّة.

**مسؤوليتنا ازاء النعم**

ثم يضيف ربنا سبحانه قائلاً: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً * أَيَحْسَبُ أَن لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (البلد/5-7) وفي هذه الآيات يركّز الخالق جلّ شأنه على حقيقة المسؤولية في المجتمع، ثم يقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد/8-10) وهنا يدعو الله تعالى الإنسان الى أن ينظر الى نفسه وما يمتلكه من أعضاء وحواسّ ليرى هل أنّ ما يتمتّع به من هذه النعم هو من ذاته أم من الخالق تعالى؟ فان كانت من الله – وهي كذلك – فله تعالى حقّ فيها عليه؛ أي يجب أن يفكّر كيف يدفع ضريبة العين واللسان وسائر النعم التي يتمتّع بها،و مع ذلك فانّ الله عز وجل غنيّ عن هذه الضريبة، لأن مردوداتها تعود إلينا في الأساس.

وعلى سبيل المثال؛ فان الله تعالى منحنا نعمة العين لكي نستغلّها في الأعمال الصالحة، فهو – عز وجل – لم يعطنا العينين لكي نتتبّع بهما أعراض الناس، والقرآن الكريم يقول في هذا المجال: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر/19) وعلى هذا فان الخالق عزّ شأنه عندما يلفت انتباهنا الى هذه النعم، فانّه يريد أن يبيّن أنّ هذه النعم التي أسبغها علينا يجب أن تؤدي وظيفتها الطبيعية، وتتحمّل مسؤوليتها، وبالتالي فانّها يجب أن تكتسب طابع العطاء.

**اقتحام العقبة سبيل الجنة**

وفي قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد/10) إشارة الى أن نعمة العقل هي أعظم نعمة، وبها ترتبط النعم الأخرى؛ فاذا أبصرت العين، وسمعت الأذن، ولكن انعدم العقل، فما جدوى النعم الأخرى؟ كما أنّ الله عز وجل

يشير الى حقيقة أخرى؛ وهي أن الإنسان بإمكانه أن يسلك طريق الضلال، كما أنّ من الممكن أيضاً أن يسلك طريق الهدى، وإذا به في جنّات عدن، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر.

إن للجنّة طريقاً، وهذا الطريق تعترضه عقبة، والإنسان يجب أن يتجاوز هذه العقبة، وهو في اللّحظة التي يريد أن يتجاوز فيها هذه العقبة يحتاج الى همّة وإرادة وعزم، لأنّ هذه العقبة تمثّل صفة مترسّخة في نفس الإنسان، ألا وهي (الشحّ) و (البخل).

وربما يقول أحدنا عندما يترك – مثلاً – ركعتين من الصلاة: هل من المعقول أنّ الله سيعذّبني على ركعتين تركتهما؟ في حين إنّ المسألة ليست مسألة ركعتين فقط، بل إنّ هذا الذنب ستجتمع معه ذنوب أخرى فتسبّب لنا مشاكل لا مفكّ منها. فلنحذر من أن يكون لدينا استهزاء بالأحكام الشرعيّة، بل علينا أن نواظب عليها.

**مصاديق اقتحام العقبة**

ثم يبين الله تعالى لنا هذه العقبة في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (البلد/12-14). فالعقبة -إذن- هي عملية إنقاذ الإنسان، وليس شرطاً أن يكون هذا الإنسان من العبيد أو الأسرى، بل إنّ البلدان المستضعفة كلّها مستعبدة. ففي هذه الايام يتجسّد في الواقع العمليّ مفهوم (فك الرقبة) كأن نسهم في إنقاذ إنسان من أوضاع مأساوية..

ولا بأس أن يفكّر الإنسان المسلم في إعطاء مقدار من طعامه الى الفقير إن كان فائضاً عن حاجته، ولكنّ هذا النوع من الإطعام ليس هو ما يريده الله تعالى فقط، بل إن الذي يريده منا أن نقدّم يد العون الى الآخرين في أيام القحط والجوع، وبذلك سنقتحم العقبة؛ أيّ نتجاوز العقبة النفسية ونصل الى برّ الأمان، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾.

ثم يبين الله جلّت قدرتـه الأشخاص الذين يجب أن نطعمهم قائـلاً: ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾. (البلد/15-16) مشيراً في هذه الآية أولاً إلى الأرحام؛ فالأقربون أولى بالمعروف، وأولو الأرحام بعضهم أولى من بعض. فاليتيم القريب الذي يحتاج الى مساعدة ورعاية، عليك أن تقدم له العون أوّلاً ثم تتّجه الى الأضعف فالأضعف.

والمقصود بـ (المسكين ذي المتربة) الشخص الذي أسكنه الفقر في داره، وقد وصل الى درجة من الفقر بحيث أنه لا يجد فراشاً يجلس عليه، بل يضطر الى الجلوس على التراب. ولو ساعدنا هذا الإنسان فانّنا سنكون قد اقتحمنا العقبة، أي تجاوزنا ذواتنا، وتحوّلنا من أناس يعيشون داخل إطار ذواتهم، الى أناس يعيشون البعد الاجتماعيّ في أوسع آفاقه.

**تزكية النفس الخطوة الأولى**

بعد ذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد/17) وبعبارة أخرى؛ إن أوّل عمل يجب أن نقوم به هو أن نزكّي أنفسنا، ونتجاوز شهواتنا الداخلية، لكي نكون بعد ذلك من المؤمنين. فربما يدّعي شخص ما الإيمان، ولكنّه لا يجسّد هذا الإيمان في سلوكه؛ فلا يعطي الزكاة، ولا يصلّي، ولا يقوم بسائر العبادات.. فما فائدة مثل هذا الإيمان وما قيمته؟

وهكذا؛ فان أول خطوة يجب أن يخطوها الإنسـان في هذا المجـال، أن يقتحم عقبات نفسه، وحينئذ سيكون من المؤمنين، وينشرح قلبه للإيمان.

ثم يقول ربنا عز وجل: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (البلد/18) فيوم القيامة ليس كمثل الدنيا؛ ففي هذا اليوم يتميّز الناس بعضهم عن بعض، ثم تقف الملائكة لتدخل فريقاً من الناس الى الجنة، وفريقاً آخر الى النار. فلنحاول أن نكون من أصحاب الميمنة ولنحذر من أن نكون من فريق الداخلين الى النار،

والذين يشير إليهم الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (البلد/19).

ونحن ما نزال نمتلك الفرصة للعودة والانابة الى الله تعالى، فلنتوكّل عليه منذ هذه اللحظة، ولنفتح صفحة جديدة، ولتكن المبادرة منّا لتكون الخطوات التالية من الخالق عز وجل.

**الخروج من شح الذات**

فليقرّر كل واحد منّا أن يخرج من شحّه الذاتي، وليبدأ بالتفكير في الآخرين، وليخرج من قاموسه عبارات مثل (ليس من شأني) فمثل هذه التبريرات يجب أن نخرجها من حياتنا. فالمجتمع اللاأبالي لا يمكن أن يكون مجتمعاً ناجحاً؛ بل إنّ المجتمع الناجح هو الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو الى الخير، ويتواصى بالصبر والمرحمة، والذي ينتمي كلّ فرد من أفراده الى مشروع لصالح الآخرين. فمن الخطأ أن ينام الواحد منّا وهو غير عازم على فعل الخير.

فلنبدأ بأنفسنا، ولنتحقّق مفهوم (إقتحام العقبة) فيها، فلا يفكّر كلّ منّا بنفسه، بل عليه أن يصبّ تفكيره على الآخرين، وحينئذ ستسود في المجتمع حالة التفاعل، والتآزر، والانسجام، وبالتالي العطاء والتحرك.

ونحن إذا رأينا أنّ العالم تسوده شريعة الغاب، وظواهر التخلّف، ويعاني من المشاكل، فالسبب في ذلك يعود الى بعده عن وصايا الدين، وعن أحكام القرآن الكريم.

فلنبدأ باصلاح أنفسنا، والله عز وجل سوف يوفّقنا لما فيه الخير والرشاد والصلاح.

# كيف نتجاوز نواقصنا الذاتية؟

في الإنسان نواقص ذاتية وأخرى عرضيّة؛ وعلى سبيل المثال فانّ الكبر والحسد وحبّ الخلود والسيطرة وغيرها إنّما هي ثغرات ذاتية عجنت بها فطرة الإنسان، أمّا النواقص العرضيّة فتلحق بالإنسان من جراء دخوله في معترك الحياة، والتصاق مساوئها به، فبسبب انحراف المجتمع، وفساد المناهج التربويّة، والأنظمة السياسيّة والإقتصاديّة، وضلالات الاعلام والمؤسسّات الفكرية، تعلق بالإنسان مجموعة من النواقص والمساوئ، وهو إذا لم يكن جدّياً مؤمناً بيوم القيامة، وخطورة الحساب، وعظمة الجزاء فانّه – لا محالة – سيقع فريسة هذه المساوئ والنواقص.

**سعي حثيث**

إنّ أولئك الرجال الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً بإمكانهم التخلّص من النواقص الخارجية، ثم هم – بعد ذلك – يسعون سعياً حثيثاً، ويجاهدون أنفسهم لسنين طويلة من أجل أن يصلحوا ذواتهم، وعندما يحقّقون هذا الهدف فانّهم سيكونون مستعدّين حينئذ لدخول الجنّة.

ولنا في إخراج آدم زوجه من الجنّة خير شاهد على ذلك؛ إذلم يكن النظام الاقتصادي أو السياسي فاسداً هناك، ولم تكن البرامج التربويّة خاطئة، ولم تكن توجد أية قناة من قنوات التأثير على النفس البشرية، ومع ذلك فقد أخرجا من الجنّة؛ لانّهما كانا يعانيان من مساوئ في ذاتهما حرّمت عليهما البقاء في الجنة، وحتّمت عليهما الهبوط الى الأرض ليمتحن الله تعالى إرادتهما في الدنيا، ويصلح نفسيهما، ليعودا الى الجنّة طاهرين نقيّين.

وبتعبير آخر؛ فانّ الهدف من خروج الإنسان من عالم الذر والاشباح والاصلاب الى عالم الدنيا بمشاكله، وصعوباته، ونعمه، ونقمه، إنّما هو إصلاح لذات الإنسان من نواقصها، لا مجرّد إصلاح جوانبها الفوقيّة.

وفي هذا المجال يقول عز وجل وهو يصف عمليّة إغراء إبليس لآدم وزوجه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَآ ادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ (طه/120) أي أنّ إبليس قام بإثارة حالة متأصّلة في آدم وزوجه، ألا وهي حبّ الخلود والسيطرة، فما كان منهما إلاّ أن أطاعاه، واندفعا.

ويعترضنا السؤال التالي: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد منح آدم وزوجه الجنّة، وأباح لهما كلّ نعمها باستثناء شجرة واحدة، أفلم يكن من المفروض فيهما أن يستشيروا في الأكل من الشجرة؟، نعم، كان جديراً بهما أن يفعلا ذلك، إلاّ أنّ غريزة حب الخلود والملك دفعتهما في لحظة الغرور الى المبادرة الى الأكل دون أن يسألا ربّهما.

### انحرافات خارج الذات

ونحن أيضاً مبتلون في حياتنا بهاتين المجموعتين من المساوئ والذنوب الظاهرة التي ارتكبها كلّ واحد منّا دون استثناء، ومن يدّعي عدم ارتكابه لها فانّ ادّعاءه باطل يعتبر نوعاً من المساوئ الذاتية لانّه يعتقد العصمة في نفسه، فنحن جميعاً ارتكبنا جريمة الكذب على الناس، والغيبة، والنميمة، والحسد، وعدم الاهتمام بالصلاة، وظلم الآخرين، وما إلى ذلك من الذنوب الفوقيّة، وهذه الذنوب إنّما ارتكبت بسبب انعدام التربية الصالحة، والسياسة والاقتصاد السليمين، والمجتمع الفاضل، وبالتالي فقد بدرت منّا بسبب وجود انحرافات خارج ذواتنا.

### خطورة النواقص الذاتية

ومع ذلك؛ فانّ هناك ذنوباً أخرى لا تظهر إلاّ أنّها ذنوب حقيقية، وخطيرة، ألا وهي ذنوب الذات، والنفس البشريّة، ومن ضمنها إفراغ

الشرائع الإلهية من محتواها كأن لا تكون الصلاة برنامجاً لاخضاع النفس الأمّارة بالسوء النـزّاعة نحو الكبر.

وفي القرآن الكريم تعاليم غزيرة تبيّن فلسفة الصلاة، والغرض منها، من جملتها قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ (طه/14)، وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت/45)، إذ أمرنا تعالى بالصلاة لكي نحارب بها عدّونا، وأنفسنا المتجبّرة الطاغية، التي استحوذت عليها الأنانية، كما وأمرنا بالصوم لايجاد ملكة الصبر في أنفسنا، ولذلك فانّه يسمّى بـ (الصبر) في بعض الحالات كما يقول عز وجل: ﴿وَاسْتَعِينُوْا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة/45)

وإذا ما تحوّل المسلم من قيم، ومحتويات، وحقائق العبادات الى القشور والظواهر الخارجية، فهذا يعني أنّه لا يريد إصلاح نفسه بالشرائع الإلهية؛ أي لا يريد الصلاة لتزكية نفسه وتنقيتها من الكبر؛ بل يجعلها وسيلة للرياء الذاتي، ولا يمارس الصوم لتطهير ذاته من اليأس والجزع، ولا الجهاد لاعلاء كلمة الله، ولا السلطة لتطبيق العدالة.

فلتكن جميع أعمالنا وسيلة لتزكية النفس من نواقصها الذاتية، والسيطرة على حالة التجبّر والطغيان في داخلها ذلك؛ لأنّ مشكلة الإنسان ليست في قيامه بالعمل، وانّما في صدق نيّته.

**القشريّة الداء الأكبر**

وهذه القشرية في الحياة هي أكبر الأخطار على الإسلام، فهي تعني تحوّل المحتويات الى قشور وشعارات، وكلمات برّاقة، ومظاهر خلاّبة، ولذلك فانّ ضخامة العمامة، وطول اللحية، ووجود الثفنات على الجبين ليست دليلاً قاطعاً على قرب الإنسان من الله، فعلينا أن لا ننخدع بهذه المظاهر، كما

وعلينا أن لا نخدع أنفسنا بمثل هذه الأعمال، بل علينا أن نركّز اهتمامنا على صدق العمل والاخلاص فيه.

**هباء منثور**

ترى الى أيّـة درجة تبلغ حسرة الإنسان يوم القيامة عندما يرى أن جميع ما عمله – من صلاة وصوم وعبادة – سيذهب ويتناثر في الفضاء اللامتناهي دون أن يحصل الى شيء، كالرماد الذي تشتدّ به الريح في يوم عاصف؟، والله سبحانه يشير الى هذا المعنى قائلاً: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً﴾ (الفرقان/23).

إنّ الإنسان الفاسق الفاسد يعلم بمصيره، ولكنّ المؤمن إذا لم يكن إيمانه وسيلة لتزكية نفسه، وإصلاح نواقصه الذاتيّة فإنّ حسرته ستكون شديدة، وعلى سبيل المثال فانّ أشدّ الناس حسرة يوم القيامة هم علماء السوء الذين يدخلون النار في حين يرون الآخرين يدخلون الجنّة بسببهم، كما يشير الى ذلك الحديث الشريف المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: "العلماء رجلان؛ رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإنّ أهل النار ليتأذون بريح العالم التارك لعلمه، وإنّ أشدّ أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً الى الله عز وجل فاستجاب له وقبل منه وأطاع الله عز وجل فأدخله الله الجنّة، وأدخل الداعي الى النار بتركه علمه، واتّباعه الهوى".[1]

وهكذا ينبغي علينا أن نستعيذ بالله جل وعلا من الشيطان كثيراً؛ لأنّه يترصّدنا على قارعة كلّ طريق، وفي كلّ لحظة، وبكلّ وسيلة، لينبذنا في نار جهنّم، ومن جملة مكائده محاولة تفريغ صلاتنا من محتواها، وإضفاء طابع القشرية عليها، فلانّه لا يستطيع أن يمنعنا من إدائها مباشرة فانّه يحاول

(1) بحار الأنوار، ج2، ص106.

تزييفها بادخال الرياء في أنفسنا، وأن يجعل كلّ همّنا أنّ نفرغ من الصلاة دون أن نهتمّ بها، ونجعل قلوبنا حاضرة فيها.

**حضور القلب استشعار الخشية**

وفي مجال حضور القلب، واستشعار الخشية والرهبة من الله تعالى يروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه كان يصلّي ذات يوم، فسقط الرداء عن أحد منكبيه، فلم يسوّه حتّى فرغ من صلاته، فسأله بعض أصحابه عن ذلك فقال: ويحك أتدري بين يدي من كنت؟، أنّ العبد لا يقبل من صلاته إلاّ ما أقبل عليه منها بقلبه، فقال الرجل: هلكنا، فقال: كلاّ إنّ الله عز وجل متمّم ذلك بالنوافل.

كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله في مجال حبّه للصلاة، وتعلّقه بها قوله: "وجعل الله جلّ ثناؤه قرّة عيني في الصلاة، وحبّب اليَّ الصلاة كما حبّب الى الجائع الطعام، والى الظمآن الماء، وأنّ الجائع إذا أكل شبع، وأنّ الظمآن إذا شرب روي، وأنا لا أشبع من الصلاة".[1]

**التقوى في المجال السياسي**

وهذه الحقيقة لا تقتصر على الصلاة فحسب؛ بل تشمل السياسة أيضاً؛ فاذا أردنا أن نكون سياسيّين فانّ علينا أن نحذر من تحوّل السياسة إلى أداة للسيطرة والتجبّر، ولنتّخذ الرسول صلى الله عليه وآله قدوة لنا في هذا المجال؛ فعندما دخل مكّة فاتحاً منتصراً، طأطأ رأسه حتّى التصق براحلته تواضعاً لله سبحانه وتعالى.

ولكنّ هناك أناساً لو أعطي لهم مجرّد منصب بسيط شابتهم حالة من

(1) مستدرك الوسائل، ج1، ص174.

الخيلاء والزهو والتصرّفات الشاذّة، ناسين أنّ هذه المناصب هي امتحان وفتنة، فلو وجدت في نفس الإنسان ذرّة من الحسد فانّ الله تعالى يمتحنه عشرات المرّات حتى تخرج هذه الذرّة؛ فإمّا أن يستغفر الله منها ويصلحها، وإمّا أن توقعه في نار جهنّم.

وفي الحقيقة؛ فانّ الروح القشريّة التي تدفع الإنسان الى عبادة الظواهر، هي السبب في معظم المشاكل التي نعاني منها، فلقد أصبحنا رجال شعارات، ولم نفكّر في المشكلة الحقيقية مع انّنا كثيراً ما أطلقنا الشعارات، وكتبنا، وألقينا الخطب الرنّانة، ولكنّنا لن نفعل شيئاً لأننا لم نتّجه الى العمق.

إنّ الهدف من السياسة، والوصول الى الحكم يتمثّل في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ (الحج/41)، فإذا خلت السياسة من هذه التعاليم فلعنة الله عليها وعلى أصحابها، فما قيمة سياسة تجرّ وراءها المتاعب والصعوبات، وتدخل الناس في أُتون الحروب؟ وقد روى في هذا المجال أن عبد الله بن عباس قال: "دخلت على أمير المؤمنين علي عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها، فقال عليه السلام: والله لهي أحبّ إليّ من أمركم إلاّ أن أقيم حقّاً، أو أدفع باطلاً".

وهكذا يجب علينا أن نكون جدّيين في أعمالنا، ولا نخطو خطوة الاّ بعد أن نحسب لها حسابها، كما يشير الى ذلك الإمام الصادق عليه السلام في قوله: "ألا فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فانّ في القيامة خمسين موقفاً مثل ألف سنة ممّا تعدّون"، كما جاء في الروايات أنّ هذه الحواجز والمواقف مرتبطة بنفس الإنسان؛ فاذا كانت الأعمال منزّهة من الكبر والعجب تجاوزتها، فينبغي على الإنسان المسلم أن يكون دقيقاً لأنّ الحياة ليست هزلاً، ونحن لم نأت الى الدنيا لنلعب ونلهو، كما أنّ الله عز وجل لم يخلقنا عبثاً.

# خطوات على طريق تزكية النفس

لكلّ عمل منهاج وبرنامج، ولتزكية النفس منهاج وبرنامج. وإذا استطاع الإنسان أن يعرف سبل السلام في الحياة، ومناهج الوصول الى أهدافه وتطلّعاته عبر التجارب والعلوم البشريّة، فانّ الوصول الى تزكية النفس لا يمكن إلاّ من خلال القرآن الكريم، وعبر أولئك الذين فسّروا القرآن بأقوالهم وأفعالهم؛ إذ لا أحد يعلم كنه النفس البشريّة سوى خالقها وبارئها، ولا يعلم مداخلها ومخارجها وثغراتها وسبل نفوذ الشيطان فيها إلاّ من خلقها، وهو الله سبحانه وتعالى.

**سبيل تحقيق الأهداف**

وإذا كان هدف الإنسان الأسمى، وتطلّعه الأعلى، هو تزكية النفس باعتبارها ضامنة لسعادة الإنسان وفلاحه، كما يقول الله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس/7-10) فانّ الفلاح والسعادة يكمنان في تزكية النفس؛ لأنّ كلّ شيء إنّما يحصل الإنسان عليه بسعيه. ومن المعلوم أنّ سعي الإنسان محدود بإرادته التي هي بدورها خاضعة لنفسه إلاّ إذا عمل على تزكيتها.

والسؤال المهمّ في هذا الخصوص هو: كيف يزكّي الإنسان نفسه، وما هو برنامج هذه التزكية؟

أوّلاً؛ وقبل كل شيء لابدّ للإنسان من أن ينظر الى عمليّة تزكية النفس كأخطر مهمّة كلّف بها، ثم يسعى من أجل ذلك. أمّا إذا جعل تزكية النفس ضمن سائر الأهداف الحياتية، أو جعل هذه العمليّة مرادفة للوصول الى الثروة والسلطة والأهداف الدنيوية الاخرى، فانّه سوف لن يستطيع الوصول الى تزكية النفس؛ لأنه وضع أمامه هدفين في مستوىً واحد من الانتماء، أحدهما أصعب وأخطر من الآخر. وبطبيعة الحال فانّ الإنسان في هذه الحالة سوف يحقّق الهدف الأسهل، ويترك الهدف الأصعب.

**تزكية النفس بحاجة إلى روح اقتحاميّة**

وهكذا فان عمليّة الوصول الى تزكية النفس ليست بالأمر السهل، كما يقول ربنا عز وجل: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (البلد/11)؛ بل تحتاج الى الاقتحام. ومن المعلوم أنّ الاقتحام بحاجة الى الشجاعة والبطولة وتركيز الإرادة وشحذ العزيمة، لأنّ الإنسان في هذه الحالة يريد أن يتحدّى شهواته، ويزكّي نفسه، ويطوّع شيطانه، ويروّض هذه النفس الأمّارة بالسوء. ولذلك فانّ الله سبحانه وتعالى جعل الفلاح الذي هو خلاصة القيم والتطلّعات البشريّة- مساوياً لتزكية النفس في قوله السابق: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس/7-10). ومعنى ﴿دَسَّاهَا﴾ الذي يدسّ نفسه في تراب الشهوات، وفي وحل التطلّعات الشخصيّة الأنانية. فهذا الإنسان قد خسر كلّ شيء، وعمل وسعى ولكن دون أن يصل الى النتيجة المرجوّة. ومن أهم الخطوات على طريق تزكية النفس ما يلي:

**1/ في مقدمة الأهداف**

إنّ أوّل منهاج لتزكية النفس، هو أن يجعل الإنسان هذا الهدف (تزكية النفس) في مقدّمة تطلّعاته، وفي قمّة أهدافه، وأن لا يجعل هذا الهدف في مستوىً واحد مع سائر الأهداف؛ فالعلم والعمل لا ينفعان إلاّ بالتقوى

والورع، والإخلاص لا يفيد إلاّ بالعاقبة الحسنة.. وهكذا الحال بالنسبة الى الأمور الأخرى، فانّها لا تجدي نفعاً إلاّ بتزكية النفس، لأنّ كلّ شيء يتّصل ويرتبط بالانسان سوف ينتهي ويزول لبتقى النفس معه، فانّ زكّاها فسوف تكون سبباً لسعادته في القبر، وفي المحشر، وفي الجنة أيضاً. وإن دسّاها فانّها ستكون سبباً لشقائه، وعذابه في جميع مراحل حياته.

**2/ مراقبة النفس**

على الإنسان أن يراقب نفسه مراقبة شديدة وواعية، وعلى سبيل المثال فانّه إذا عرف أنّ وراء تلّ ما عدوّاً يتربّص به الشرّ، فانّ من الطبيعي أن يبادر إلى وضع مراقبين وعيون فوق هذا التلّ لكي يكشف تحرّكات العدو. ولكنّ مشكلة هذا الإنسان إنّه لا يراقب نفسه الأمّارة بالسوء التي هي أعدى أعدائه؛ هذه النفس التي تعتمل وتموج فيها الوساوس والهواجس والتمنيات والأحلام لتبعدها عن ذكر الله، وذكر نعمه، وشكرها، وبالتالي فانّها تهلكه من دون أن يشعر.

وبناء على ذلك فانّ على الإنسان أن يراقب نفسه، وأن يفكّر فيها قبل أن يفكّر في خارجها، فاذا تحدّث مع صاحبه، فانّ عليه أن لا يفكّر فيما يقول، بل كيفيّة الاستماع إليه باخلاص، ووفقاً للرقابة العقليّة؛ فهل يستمع إليه بحبّ و إقبال، أم ببغض وامتعاض ورفض؟ وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر/17-18). فالانسان عندما يستمع الى صاحبه فلابد أن يراقب كلامه، ويراقب نفسه، ويراقب كيفيّة الاستماع إليه. فمن الصعب على الإنسان أن يستمع الى نصيحة الناصح الذي هو عدوّه، بل لابدّ أن يخالفه.

ومن المعلوم أن إبليس هو أعدى أعداء الإنسان، ومع ذلك فانّ هذا المخلوق الرجيم كان يأتي الى بعض الأنبياء لينصحهم، وكان الله سبحانه

وتعالى يأمر أنبياءه بالاستماع الى نصائحه، ولكنّ الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا يستمعون إليه من دون رقابة. فهم يراقبونه، ويراقبون أنفسهم في نفس الوقت، لكي لا يأخذوا بجميع نصائحه، فقد يقدّم لك أحد ما نصيحة حقّ مغلّفة بالباطل، أو باطلاً مغلّفاً بالحق.

وكمثال على ذلك؛ أن يأتي إليك إنسان آخر وينصحك في حالة الغضب الشديد، فالنصيحة في هذه الحالة تكون صادرة من إنسان متكبّر متجبّر لا ينصحك بكلمة حسنة. وبناءً على ذلك، فلأن النصيحة من الصعب على الإنسان تقبّلها، فانّ الناصح يجب أن يغلّف نصيحته بغشاء ليّن برّاق كأن يقول للإنسان المخطئ إنّ له فضائل ومناقب كثيرة، ولكنّه يعاني من بعض الأخطاء البسيطة، فينصحه بلسان ليّن وأسلوب مناسب لكي يتقبّل نصيحته، ويفتح قلبه له. ولكنّ الناصح قد يكون في بعض الأحيان في حالة غضب شديد، فيصبّ على صاحبه جام غضبه، ويحصي عليه كلّ أخطائه. وفي هذه الحالة التي يتعرّض فيها الطرف المقابل لهذا الهجوم العنيف والمفاجئ، سيندفع الى الانتقام. ومثل هذه النصيحة ينطبق عليها مصداق الكلام الحق المغلّف بالباطل، فمحتوى كلام الإنسان الناصح حق ولكنّ أُسلوبه باطل.

فلو لم تراقب نفسك، ولم تهيمن عليها وعلى غضبها، فانّك لن تستطيع أن تستمع الى النصيحة برحابة صدر.

وعلى العكس من ذلك، فقد يأتي إليك أنسان يغلّف كلامه بأُسلوب حق، فيقول لك إنّك إنسان مؤمن فلماذا – مثلاً – لا تؤم المصلّين في هذا المسجد، فالإمام له من الثواب ما هو أكثر من ثواب المأمومين.. إنّ هذا الكلام هو في الظاهر كلام صحيح، ولكن عليك أن تفكّر فيه مليّاً، فمن الممكن أن يريد هذا الإنسان أن يدفعك الى منافسة صاحبك الذي يؤم المصلّين في ذلك المسجد.

إنّ الكثير من الناس يخدعون بمثل هذه الشبهات والأساليب، لأنّهم ليسوا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، فهم لا يراقبون أنفسهم. فان كنت – على سبيل المثال – راضياً عن عبادتك واجتهادك فقل لنفسك؛ انّني لم أكن مرابطاً في خنادق المجاهدين أو في معتقلات الطغاة، وإنّ ثواب هؤلاء أكثر من ثوابي، ثم إنّني لا أعلم هل أنّ عملي مقبول عند الله أم لا؟... وهكذا فانّ عليك دائماً أن تراقب نفسك، وأن لا تدع الغرور يدخل الى قلبك، لأنه أوّل صفة تنفذ في قلبك ثم تخرج على لسانك لتظهر على أعمالك فتحبطها.

وبناء على ذلك فانّ على الإنسان أن يكبح جماح نفسه من خلال تصغير هذا العمل عند نفسه، ومن خلال حمد الله سبحانه وتعالى وتسبيحه. ففي كثير من الأوقات يفكر الإنسان في كيفيّة خداع الآخرين، وصبّ الحسد عليهم، فعليه أن لا يجعل تفكيره، وهواجس نفسه تنطلق من دون مراقبة. فمن الممكن خلال لحظة واحدة أن لا تراقب نفسك، وتغفل عنها فتؤدّي بك هذه اللحظة الى أن تقوم بعمل تندم عليه.

**3/ الذكر الدائم لله**

إنّ الإنسان مخيّر بين أمرين؛ فإمّا أن يخضع لله سبحانه وتعالى، وإمّا أن يخضع لعدو الله الذي هو الشيطان الرجيم. فإن ترك ذكرا لله وحمده، ولم يتذكّر نعمه عليه، فانّه سيقع لا محالة في شرك الشيطان. فايّاك وأن ينسيك الشيطان ذكر الخالق عز وجل، وحاول أن تكون دائماً في حالة ذكر له. وعلى سبيل المثال؛ عندما تنهض من النوم، وقد كانت روحك خارجة عن جسمك ثم أعادها الله جل وعلا إليك، وقد كان من الممكن أن تصيبك عشرات الأخطار، فدفعها الله عنك، ففكّر في نفسك، واحمد بارئك على هذه النعمة، واشكره لأنه جعل جسمك سليماً، ومنحك الصحّة والعافية.. واعلم أن خليّة واحد في جسمك

إن أصابها الفساد، فانّها سوف تؤدي الى فساد خلايا أخرى، مما تسبب لك معضلات قد لا تخطر على بالك أبداً.

**4/ الحذر من التمنيّات والأحلام**

عليك أن لا تتمنّى ولا تعيش في عالم الأحلام، فانّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَم لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (النجم/24) فالتمنيّات الخالية من السعي لا يمكن أن تنفع، كما يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي ولكنَّ الإيمان ما خلص في القلوب وصدقته الأعمال".[1] فان أردت تحقيق هدف مخطّط له، فضع برنامجاً أمامك، فالانسان الذي يتمنّى قد تدخله تمنيّاته في الباطل، وتجعله يعيش في عالم آخر ناسياً وغافلاً عن قضاياه الرئيسية، وعمّا خُلق له والأهداف الحقيقية التي يجب أن يسعى من أجل تحقيقها. فالاغترار هو الذي يدفع الإنسان الى نار جهنم، كما يقول ربنا عز وجل، واصفاً مصير الكافرين الغافلين عن ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الاَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد/12)

وهكذا فان مشكلة الإنسان الأساسية هي تمنيّاته وغروره بنفسه، فعليه أن يتحدّى هذه المشكلة من خلال تزويد نفسه بالبصائر القرآنية، من خلال مراقبة النفس وتزكيتها، وعدم فسح المجال للشيطان بأن ينفذ إليها عبر وسائله الخبيثة، وأساليبه الماكرة التي لا يستطيع أن ينجو منها إلاّ من تزوّد بالوعي، والبصيرة الإيمانية المستوحاة من القرآن الكريم.

---

(1) بحار الأنوار، ج75، ص253.

# أسقاط الحجب فريضة إيمانية

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُواعِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران/156-158)

لماذا لا يخشع قلبي عندما تتلى عليَّ آيات القرآن ؟ ولماذا لا أكون خاشعاً في الصلاة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون/1-2)، ولماذا لا اعتبر من الموت عندما أرى أعزتي وأخوتي يوارون الثرى ؟

تلك كانت تساؤلات كثيراً ما يطرحها الانسان المؤمن على نفسه؛ فنحن نسمع عن المؤمنين الصالحين أنهم إذا تليت عليهم آيات الله اقشعرت جلودهم، ودمعت عيونهم، وكادت قلوبهم تنخلع من ذكر الله. أما نحن فإننا نستمع إلى القرآن والشيطان يوسوس إلينا في أن نتحدث مع أصحابنا فيما لا يجدي نفعاً، فاذا القرآن في وادٍ ونحن في وادٍ آخر!

**إصلاح النفس**

ترى كيف نصل الى درجة أولئك المؤمنين الخاشعين؟ وإذا كان القرآن لا يزيدنا خشوعاً، والموت لا يكون واعظاً لنا، ومواعظ المؤمنين لا تؤثر فينا، فما هو السبيل الى إصلاح نفوسنا ؟

للجواب على تلك التساؤلات نقول: إن بيننا وبين القرآن حجاباً، وبيننا وبين مواعظ النبي صلى الله عليه وآله والائمة عليهم السلام حجاباً، وما

دامت هذه الحجب قائمة فاننا لا نستطيع أن نستفيد من هذه المواعظ، فلابد - إذن - من أن نتخلص من تلك الحجب، وذلك من خلال عملية التطهير الذاتي. فقلب الانسان يجب أن يتخلص من الشرك، والحقد، والجهل، والجبن.. وجميع أنواع الحجب الأخرى، وبذلك يستطيع أن يستقبل الآيات القرآنية والمواعظ. أما القلب الذي تراكمت ورانت عليه الحجب، فلا يمكن أن يتأثر بالمواعظ مهما بلغت من الصدق، وقوة التأثير.

**تطهير القلوب**

والتساؤلات التي تفرض نفسها هنا، هي: كيف نستطيع أن نطهر قلوبنا، وما هي تلك الحجب التي تمنعنا من الاتصال بنور الرب سبحانه، وكيف نعمل على إزالتها، وكيف نجعل قلوبنا تخشع وتقبل على القرآن؟

إن علينا من أجل أن نعثر على إجابات شافية أن نعود الى قلوبنا؛ فعلامة القلب المريض هي أن صاحبه لا يحب القرآن، ولا يقبل على الصلاة بشوق.. ومثل هذا الانسان يجب أن يزيل الحجب التي تمنع نور القرآن من النفوذ الى قلبه. ومن ضمن هذه الحجب أن الانسان لا يريد التبرؤ من أعداء الله، وأنه يخلط عادة بين الحق والباطل؛ في حين أن القرآن الكريم عندما يأمرنا بالتوحيد فإنه يقول: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾ (البقرة/256) فالانسان يجب عليه أولاً أن يطهر قلبه من الشرك ليذوق طعم التوحيد.

وهنا من حقنا أن نتساءل: كيف نتبرأ من أعداء الله؟

**سبيل البـراءة**

إن القضية تبدو سهلة للوهلة الأولى، فقد يتصور الانسان أنه يكفي أن يلعن الشيطان بلسانه ثم لا بأس عليه أن يتبعه بأفعاله وسلوكه. ولكن ما فائدة

مثل هذا اللعن، وكيف يجوز لي أن أتبرأ من أعداء الله في حين أن يدي بأيديهم؟

إن الانسان الذي يجتنب الطاغوت وآثاره في قلبه، ويتبرأ من أعداء الله هذا الانسان باستطاعته أن يفهم الحقيقة. والطاغوت هو كل ذي قوة يريد أن يسيطر عليك بقوته، فمن الممكن أن أكون طاغوتاً بالنسبة الى ابني عندما أريد أن أفرض سيطرتي عليه بالظلم. وقد قيل في هذا المجال: "كل انسان يضمر ما أظهره فرعون". ففرعون ادعى الألوهية، وتحدى الله جل جلاله في كبريائه، وأنا أيضاً من الممكن أن أقول ذلك ولكن في حدودي، فأجعل نفسي فرعوناً ضمن التجمع الصغير الذي أقوده.

ولذلك؛ فإن بداية الفهم الصحيح للاسلام والقرآن والمواعظ، هي أن يضمر الانسان في نفسه نية العطاء؛ أي أن يقرر دفع ثمن ذلك الفهم، وهذا هو المعنى الصحيح للايمان. فالايمان يعني أن يكون الانسان مستعداً للتضحية والعطاء، وآنذاك سيكون في مستوى فهم الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة. وهنا تبرز لنا قيمة الشهداء الذين علموا البشر كيف يرفضون الفكر الخاطىء، ويقولون: (لا) للانحراف والطاغوت والجبت، فاكتملت عندهم كلمة التوحيد، وهذا هو الذي يجعل الشهيد شاهداً على أمته، وقدوة للآخرين على مدى العصور.

**الولاية الحقيقية لله**

والقرآن الكريم يحدثنا عن هذه المفارقة بين إنسان مستعد لأن يسقط الحجب بينه وبين الله عز وجل، وبين الانسان الذي يكرس تلك الحجب في قلبه. فالانسان الأول قد يضمر الحب لهذا الشخص أو ذاك، ولكن هذا الحب لا يمكن أن يقف أمام تيار حبه لله. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة/165). فحبه الحقيقي الخالص وولاؤه لله وحده، وهو لا يمتلك ولاية أخرى أقوى من

ولاية خالقه. وهذا ما يجعل هذا الانسان في قمة الايمان، فلا شيء يقف بينه وبين الباري جل وعلا.

والقرآن الكريم يؤكد على أن لا يكون المجتمع الايماني مجتمعاً يتأسف ويتحسر على الذين استشهدوا من طلائعه الجهادية، كما يشير الى ذلك ربنا تعالى في قوله: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُواعِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ (آل عمران/156)، فنحن - كمؤمنين - يجب أن نبتعد عن مثل هذه الكلمات التثبيطية التي ينفذ بها الشيطان الى قلب الانسان. فنحن نرى بعض الناس يتكلمون ضد المصلين، في حين أنهم لا توفيق لهم في الصلاة، فتراهم يحسدون أولئك الذين يصلون بخشوع. وقد نرى رجلاً من أهل الخير قد بنى مسجداً، ثم نرى رجلاً أخر يمتلك الأموال الوفيرة فيحاول أن ينقص من قدر ذلك الذي بنى المسجد، كأن يقول أنه قد بناه رياءً فيحاول بشتى الأساليب أن يبحث عن عيب في المسجد الذي بناه صاحبه، ذلك لأنه لم يوفق الى هذا العمل الخيري، والله تعالى يقول عن هؤلاء: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (آل عمران/156)

**الحياة والموت بيد الله**

ثم يقول رينا عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (آل عمران/156).

فالحياة والموت بيد الله، ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً في هذا المجال. وعدم استشهادنا في سبيل الله تعالى لا يعني أننا غير مؤهلين للشهادة، فقد يكون الله قد ادخرنا لمواقف أخرى نستشهد فيها، وفي نفس الوقت فإننا قد نكون غير متمتعين بأهلية الشهادة، فيجب علينا في هذه الحالة أن نبحث عن عيوب أنفسنا، ونعمل على إصلاحها، لكي نصل الى المستوى الرفيع للشهادة.

ومن ثم يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران/157-158). فلا

فرق بين أن يقتل الانسان في سبيل الله أو يموت ما دام في حالة جهاد في سبيله، وهذا ترغيب من الله تبارك وتعالى يتدرج في طرق معينة هي:

1- إن الله يرغب الانسان ويقرر لـه حقيقة أن الموت والحياة بيد الله، فالقتال ليس معناه بالضرورة أن يقتل الانسان، كما إن القعود عن القتال لا يعني هو الآخر أن يبقى الانسان بمنجىً من الموت.

2- إن الانسان لا يبقى في هذه الدنيا من أجل أن يحصل على الأموال، وهو إذا ما حصل عليها فإنه سرعان ما سيتركها عند الموت، فالافضل لـه - إذن - أن ينفقها في سبيل الله جل جلاله.

3- المغفرة الإلهية؛ فلا ريب أن كل واحد منا قد سود صحيفة أعماله بما لا يعلمه من الذنوب ليشتري بها نيران جهنم، أما الانسان الذي يموت مختوماً له بالخير، ومستشهداً في سبيل الله تعالى، فإنه سيغسل بدمه تلك الصحيفة السوداء، ليفتح الله عز وجل لـه ملفاً جديداً.

4- الدعوة الالهية للدخول الى الجنة في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ومن هنا؛ فإننا عندما نكرّم الشهداء فإننا نكرّم فيهم هذه القيمة، والبصيرة الايمانية، ونقدر فيهم هذه الروح، وفوق كل ذلك فإن الله عز شأنه قد اختارهم ليكونوا جلساءه، وليغفر لهم ذنوبهم.

وبمجرد أن تتوفر لدينا هذه النية في قلوبنا - نية الشهادة - فإن آفاقاً واسعة ستتفتح أمامنا على الآخرة، ولذلك فقد طُلب منا - عندما نقف أمام قبور أصحاب الإمام الحسين عليه السلام- أن نقول بصدق وأخلاص: "فيا ليتني كنت فأفوز معكم".[1] فهذه الكلمة عندما تخرج من القلب، فإنها تعني استعداد الانسان النفسي لأن يكون شهيداً في سبيل الله. وهذا الانسان عندما يختار خط الشهادة فإن الحجب ستتساقط من قلبه ومن أمام عينيه، والانسان الذي يجعل في باله أن

(1) مفاتيح الجنان، زيارة الإمام الحسين عليه السلام؛ المعروفة بزيارة وارث.

تختم حياته بالشهادة فإنه لا يخاف من أي شيء سوى الله. فليس هناك من أمر أصعب على الانسان من الموت، كما يشير الى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله: "فوق كل ذي بر بر حتى يقتل الرجل في سبيل الله فليس فوقه بر".[1]

وهكذا فإن الانسان إذا ما أحب الموت في سبيل الخالق، فإنه سيبقى يتحرك ويعمل، وحينئذ ستسقط عنه الحجب، ويبدأ قلبه بالاستفادة من المواعظ.

إن طريقنا الى الايمان الحقيقي هو البراءة من أعداء الله، وتطهير القلب من الشرك، وأن نحرر أنفسنا من أسر الدنيا، وسجن الذات، والأحقاد، وأهواء النفس.. وحينئذ سنرى كيف أننا سننطلق في رحاب الحقيقة، ونكون أحراراً في الدنيا والآخرة، ونكون عند الله تقدست أسماؤه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

## الروح الإيجابية أساس تزكية النفس

من الحقائق التي أكدها القرآن الكريم، وأكّد عليها علم التربية الحديث؛ أنّ نفسيّة الإنسان هي التي تهيمن على مسيرته، كما يشير إلى ذلك ربنا عز وجل بقولـه: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَيَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً**﴾ (الاعراف/58). فعندما تكون نفسيّة الإنسان الفرد، والأمـة، والمجتمع نفسيّة

(1) بحار الأنوار، ج71، ص60.

طيّبة، فانّ كلّ ما ينبت من فوق هذه النفسية من سلوكيّات وأفكار ومواقف وإفرازات أخرى سوف تصبّ جميعاً في الاتجاه الصحيح؛ في حين إذا كانت النفسية خاطئة منحرفة، فانّ كلّ ما يصدر منها سيكون نكداً.

**تكريس الحالة الإيجابية في النفس**

إن الله سبحانه وتعالى يأمر عبر القرآن الكريم بأن نصلح أنفسنا ونزكّيها، لأنّ كل صلاح في النفس سينتهي بالتالي الى صلاح في المجتمع. وأهم ما في النفس الصالحة، الحالة الإيجابية التي يصطلح عليها علماء الأخلاق باسم الشكر، والرضا، والتوكّل، والصبر وما إلى ذلك من مصطلحات تشترك جميعها في أنّ الروح التي تقف وراء هذه الخلقيّات الفاضلة هي الروح الإيجابية.

وللأسف؛ فانّ هناك قسماً من الناس تعيش أرواحهم ونفسياتهم في ظلمات، فهم ينظرون الى كلّ شيء في الحياة بمنظار أسود قاتم، ومثل هؤلاء لا يمكنهم أن يقوموا بدور، ولذلك جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: "أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة، وأبى الله لصاحب الخُلق السيء بالتوبة. فقيل: يا رسول الله؛ وكيف ذلك؟ قال: أمّا صاحب البدعة فقد أُشرب قلبه حبّها، وأمّا صاحب الخُلق السيء فانّه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم من الذنب الذي تاب منه".[1]

**السلبيّة مصدر الذنوب**

والسبب في ذلك أنّ الإنسان السيّء الأخلاق لا يخرج من ذنب إلاّ ليدخل في ذنب آخر. فالإنسان القلق، المضطرب، المتشائم، السلبيّ، الحقود.. هذا الإنسان تفيض من جوانبه الأفعال السيّئة؛ فتراه يغتاب، فإن سكت عن الغيبة بادر الى

(1) بحار الأنوار، ج69، ص216.

الاتهام، وإذا ما كفّ عن التهمة قام بتوجيه السباب والشتائم، وهو فيما عدا ذلك متشائم، يركّز على الجوانب السلبيّة في الحياة.

هذا في حين أنّ الإنسان الذي يتمتّع بنفسيّة إيجابية متفائلة، تراه لا يخرج من عمل صالح إلاّ ليدخل في عمل صالح آخر. وفي هذا المضمار يقول الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (الاسراء/84) فكما إنّ صورة الإنسان تختلف من شخص لآخر؛ فهناك أُناس صورهم الظاهريّة جميلة جذّابة أنيقة، في حين أن هناك أشخاصاً آخرين يحملون صوراً قبيحة ذميمة، فانّ نفوس البشر هي الأخرى ذات أشكال ونوعيات مختلفة؛ فهناك نفوس جميلة وهناك نفوس قبيحة، وإذا كانت النفس جميلة فانّ جميع الأفعال التي تصدر من هذه النفس ستكون جميلة حتّى وإن صدر خطأً عملٌ غير جميل من هذه النفس، لأنّ الله تعالى سيغفر للإنسان هذا العمل.

**خلفيّات الظلم**

فلنفكّر في خضم العمل السياسي والاجتماعي في خلفيّات الحياة، ولنفكّر كيف ينبت من أرض معيّنة الحكام الطغاة المستبدّون المتمرسّون في الجريمة.. إنّ الكلمات والتعابير تعجز في بعض الأحيان عن وصف حقيقة هؤلاء الأشخاص الذين تسبّبوا في قتل الملايين من الأبرياء، إنّنا في بعض الأحيان لا نفكّر في هؤلاء الأشخاص وإنّما في تلك الأرضية الخبيثة التي أنبتتهم. فهم يمثّلون خطأً وتياراً فاسدين؛ أي إنّ هناك رجالاً فاسدين ومجرمين، وهناك طبقة معيّنة فسدت فخرّجت مثل هؤلاء الأشخاص.

وفي هذا المجال يقول الله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾(الانعام/129). فالإنسان الظالم لا يكون حاكماً إلاّ على ظالم مثله.

وهنا علينا أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي: أين تكمن المشكلة، وهل هي متمثّلة في شخص، أم خطّ، أم أنّها تمثّل حالة ثقافية متردّية علينا أن نعالجها؟ وعلى سبيل المثال فانّ مشكلة النازيّة لم تكنّ تتمثّل في شخص هتلر، فقد كان يؤيّده في حربه النازية عشرة ملايين إنسان، فالمشكلة – إذن – لم تكن تتمثّل في الحزب النازي فحسب، بل في تلك الأرضية التي أنبتت مثل هذا الحزب، ألا وهي أرضية العنصريّة المقيتة التي تشبّعت بها نفسيّة الشعب الألماني في تلك الفترة. فهذه العنصرية هي التي ولدت هذا الحزب، وهذا الحزب هو الذي خرّج هتلر، وهتلر - بدوره - هو الذي أفرز تلك الحرب المدمّرة.

وهكذا الحال بالنسبة الى طغاة التأريخ الآخرين أمثال يزيد، فمن الخطأ أن نتصوّر أنه كان شخصاً واحداً، فقد كانت هناك طبقة فاسدة تأمّر عليها رجل فاسد مثل يزيد.

وقد حاول الأنبياء عليهم السلام وكبار المصلحين الذين اتّبعوهم أن يعالجوا هذه الأرضية، وهذا هو في الحقيقة الحلّ المنطقي والسليم لمشكلة الطغيان والفساد؛ فأنت حينما ترى شجرة غير سليمة فانّك لا تعمد الى قطع أغصانها لتعرف علة فسادها، بل إنّ عملك من المفروض أن يبتدئ من التربة لتحلّلها وتكتشف الفساد والنقص اللذين تعاني منهما. وبعد أن تستيطع معالجة هذا الفساد والنقص، سرعان ما تتحوّل تلك الشجرة الفاسدة الى شجرة يانعة. وهكذا الحالة بالنسبة الى الاشجار الأخرى النابتة في هذه الأرض، فانّها هي الأخرى سوف تصلح.

**سوء الخلق فيروس الفساد**

وهذه القاعدة تنطبق علينا أيضاً نحن البشر، فنحن يجب علينا أن نقضي على فيروس الجريمة، وهذا الفيروس هو في الحقيقة (الخُلق السيّء) كما أشرنا إلى ذلك فيما مضى؛ وعلى سبيل المثال فانّ ظاهرة توجيه السباب والشتائم هي من الظواهر الشائعة في مجتمعاتنا، وهذا السباب يمثّل الوجه القبيح لثقافة الإنسان. وقد نهت الشريعة الإسلامية عن هذه الصفة نهياً شديداً، وطالبت الإنسان المؤمن أن يترفّع، وينـزّه نفسه عن مثل هذه الممارسات. فقد نهته حتّى عن توجيه السباب الى أعداء الدين، فما بالك بسبّ بعضنا البعض، وما بالك بتوجيه الشتائم الى الزمن والأشياء الجامدة التي لا تمتلك خطأً من العقل والتفكير؟!.

إنّ هذه الظاهرة أدّت إلى ظهور حالة نفسية سلبيّة، وهذه الحالة النفسيّة هي التي ولّدت الحكام الدكتاتوريّين.

وربّما نتساءل في هذا المجال متعجّبين: ترى كيف تؤدّي ظاهرة السباب الى حدوث الجرائم؟!

والجواب على هذا السؤال بحاجة إلى خبير في علم الأخلاق والاجتماع والسياسة لكي يفصل لنا كيف أنّ هذا الفيروس الصغير يتوالد ويتكاثر حتّى يؤدّي إلى انهيار المجتمع برمّته. فالفيروس المادّي الذي لا نستطيع أن نراه بالعين المجرّدة بإمكانه أن يقضي على حياة الناس الأقوياء الأشدّاء من الناحية الجسميّة، وهكذا الحال بالنسبة إلى السباب.

**الشكر يساوي الإيجابية**

وفي هذا المضمار يقول ربنا عز وجل: ﴿**وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلآءِ مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ (الانعام/53) والقرآن الكريم يريد أن يقول لنا هنا إنّ هناك رجالاً يتفوّقون على رجال آخرين، وأنّ

هناك أشخاصاً يسبقون أشخاصاً آخرين، والسبب في هذا التفضيل هو أنّ الطبقة التي فُصِّلت تتمتّع بخصلة الشكر.

والشكر يعني نفسيّة إيجابية مبادرة تتمتّع بصفة الاستباق الى الخيرات، والمسارعة نحو العمل الصالح؛ وعلى سبيل المثال نفترض أنّ هناك شخصين كلاهما يؤدّيان الصلاة، ولكنّ الأول بمجرّد أن يسمع هتاف (الله أكبر) ترى قلبه ينتفض ويهتزّ، وجوارحه تخشع، فيسارع للتوجّه الى القبلة لينهمك في أداء الصلاة. أمّا الثاني فانّه يؤدي الصلاة هو الآخر ولكنه يماطل، ويسوّف في أدائها، فتراه – مثلاً – يؤخّر صلاة الظهر والعصر الى قبيل غروب الشمس فيصلّيها بأسرع ما يمكن لئلاّ تفوته هذه الصلاة، فتتحول كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وآله: "نقر كنقر الغراب".[1]

وفي هذا المجال يقول الله عز وجل: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ (الماعون/4-7) فالله عندما أمرنا بالمسارعة إلى أداء الصلاة في ندائه "حي على الصلاة" فانّ من المفترض فينا أن نقوم مسرعين لأدائها.

وفي مجال حياتنا اليوميّة نرى مثلاً أنّ هناك موظّفاً قابعاً وراء طاولته، ولكن القلق والضجر يسيطران عليه في جميع أوقات دوامه، فعندما يأتيه مراجع فانّه ينظر إلى وجهه وكأنّه ينظر إلى ملك الموت. في حين إنّنا قد نصادف موظّفاً لطيفاً، حسن الأخلاق ذات نفسيّة منشرحة وإيجابية، ويتمتّع بصفة المبادرة والمسارعة الى خدمة الآخرين، فتراه ما أن يفرغ من أعماله حتّى يبادر إلى إنجاز أعمال زميله.

**مجتمع سلبيّ**

---

(1) بحار الأنوار، ج81، ص234.

وللأسف فلأنّ مجتمعنا هو مجتمع سلبيّ تراكمت عليه الأغلال النفسية والثقافية، فانّنا نكره العمل أساساً، ولا نعرف الواجب، ولذلك ترانا في حالة تقهقر وتراجع؛ في حين أنّ الشعوب الأخرى تتقدّم لأنّها تعشق العمل، ففي بعض البلدان عندما تشير الساعة الى الثانية بعد الظهر حيث من المفترض في الجميع أن يغادروا أماكن عملهم، ترى الموظّف في بعض الأحيان يعمل حتّى الساعة الثالثة أو الرابعة الى أن ينبّهه صاحب العمل.

وبالطبع فانّ العمل يعتبر من الأمور اللطيفة في الحياة، وقد ربّانا الإسلام على أساس حب الحياة، وحبّ العمل، والكدح في سبيل التقدم، ولكنّ الروحيات السلبيّة السائدة في أوساطنا جعلت كلّ واحد في مجتمعنا يتكاسل، ويتقاعس في أداء عمله؛ فترى العالم لا يؤدّي دوره بالكامل، وكذلك الحال بالنسبة إلى الطبيب والمهندس والعسكري... وهذا ما يؤدّي الى تخلّف المجتمع وبالتالي إلى ابتلائه بأشخاص طغاة، وبأوضاع متدهورة كهذه الأوضاع التي نلمسها الآن.

وفي المقابل؛ فانّ النفسيّة الشاكرة هي على العكس من ذلك تماماً، وإذا ما تتبعنا تأريخ القرآن الكريم فانّنا سنرى أنّه قد نزل في بيئة الجزيرة العربية حيث كانت الروح السلبيّة قد بلغت الحضيض؛ فقد كان الأب يقتل ابنته، بل كان يقتل حتّى الأولاد الذكور، وعندما يسأل عن سبب سلوكه هذا يجيب بأنّه لا يمتلك امكانيّات يؤمّن من خلالها معيشتهم، وقد نهى القرآن الكريم عن هذه الممارسة المغلوطة المنحرفة قائلاً: ﴿وَلاتَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِنْ إِمْلاقٍ﴾ (الانعام/151).

وفي مثل هذه البيئة السلبيّة نزل القرآن الكريم، فبثّ الروح الإيجابية، وبعث الأمل، وأمر بالشكر، وبثّ روح الصبر والاستقامة والتحدّي والحيويّة، فترى هذا الكتاب العظيم قطعة من الحياة والنور.

**لماذا اليأس والقنوط؟**

إنّ علينا أن نعرف أنّ وراء الليل وظلامه ووحشته، نهاراً وفجراً، وأنّ الدنيا لا يمكن أن تنتهي عند هذا الحدّ، فلماذا اليأس والقنوط؟

إنّ الحكام الظلمة الجائرين سينتهون، لأن سنّة الله تعالى في الظالمين أن لا يبقوا كما يشير إلى ذلك قوله الكريم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء/227).

وللاسف فإنّ هناك البعض يعيشون في هذه الحياة وكأنهم ينتظرون موتهم؛ فلا يتحرّكون، ولا يعملون، ولا يفكّرون.. في حين أنّ الحالة النفسيّة التي نعتقد على أساسها أنّ الدنيا منتهية هي حالة سيئة. وفي هذا المجال يروى أنه دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على رجل يعوده وهو شاك فتمنّى الموت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تتمنّ الموت فإنّك إن تك محسناً تزدد إحساناً إلى إحسانك وإن كنت مسيئاً فتؤخّر لتستعتب فلا تمنّوا الموت".[1]

**الحضارة في القرآن**

إنّ من جملة ما نقرؤه في القرآن الكريم سورة المائدة، وإنّ كلمة (المائدة) هي رمز الى الحضارة. فهي لا تعني مجرّد الأكل، بل هي رمز الى مجموعة من الظواهر والأمور؛ أي إنّ هناك تجمّعاً بشريّاً حول الطعام، ومن المعلوم أنّ كلمة الحضارة مشتقّة من (الحضور)؛ أي حضور بعض الناس عند البعض الآخر، والمائدة فيها أيضاً معنى (الحضارة) ولكن ليس حضوراً عبثياً بدون معنىً، بل حضور أعلى من الطعام، وعلى مصلحة مشتركة، فبالاضافة الى الحضور المجرّد هناك أيضاً حضور، وتمحور حول مصلحة.

ثم إنّ القرآن الكريم عندما يتحدّث حول (المائدة) فانّه يضرب لنا مثلاً حول أهدافها فيقول – وقوله الحق-: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ

(1) بحار الأنوار، ج6، ص128.

﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِنَ السَّمَآءِ﴾ (المائدة/112) وبذلك يتّضح لنا أن المائدة على نوعين هنا؛ مائدة من الأرض، ومائدة من السماء؛ أي حضارة أرضية، وحضارة إلهيّة سماويّة، وعلينا أن نسعى من أجل أن نبعث الحضارة الإلهيّة في الأرض.

**التقوى مبدأ كلّ حضارة**

والحضارة الإلهية يفسّرها القرآن الكريم في قوله أولاً: ﴿اتَّقُوا اللّهَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة/112)؛ أي إن التقوى هي بداية كلّ حضارة. فنحن عندما نلتزم بحدود الله تبارك وتعالى، فانّه بدوره سوف ينزّل علينا مائدة من السماء، كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق/2-3). وعلى هذا فانّ التقوى هي طريق الرزق، والخيرات، ونزول الموائد السماويّة.

**من لا معاش له لا معاد له**

ومن ثم يقول ربنا عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللّهَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ (المائدة/112-113) فالحواريّون الذين كانوا يمثّلون نخبة واعية، طاهرة، لا تشوب حياتهم شائبة من الذنوب والخطايا، وكانوا متفرّغين لله سبحانه وتعالى، وللعمل الرساليّ، أقول: إنّ هؤلاء الحواريّين أظهروا رغبتهم في أن يأكلوا من تلك المائدة وكأنّهم يريدون أن يقولوا لنا إنّ الذي لا يأكل الخبز لا يمكن أن يؤدّي الصلاة، وإنّ من لا معاش له لا معاد له. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "اللهم بارك لنا في الخبز، ولا تفرق بيننا وبينه؛ فلولا الخبز ما صمنا ولا صلّينا ولا أدينا فرايض ربنا".[1] أي إنّ الخبز يمثّل الحاجة الأولى التي يفتّش عنها الإنسان، فتوفير الحاجات المادّية هو بداية بناء الحضارة.

**توفير الأمن من أهداف الحضارة**

---

(1) بحار الأنوار، ج63، ص270.

ثم يذكر الحواريّون هدفاً آخر من أهداف طلبهم لإنـزال المائدة في قولهم: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ (المائدة/113). فالقلب المهتزّ المضطرب لا يمكن لصاحبه أن يبني حضارة، بينما القلب المطمئن هو وحده الذي يستطيع أن يشيّد صرح الحضارة، وهكذا فانّ أحد أهداف بناء الحضارة هو توفير الأمن، وأبعد مدىً للأمن هو حصول الاطمئنان القلبي.

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك على لسان الحواريّين: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ (المائدة/113) فبعد الأمن والاحساس بالطمأنينة يأتـي دور العلم والتكامل المعنوي الذي يمثّل أحد أهداف الحضارة.

**التطلّع نحو القيادي**

ثم يذكر الحواريّون هدفاً آخر من أهداف الحضارة، ألا وهو التطلّع نحو قيادة الشعوب المستضعفة، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة/113).

إن عيسى بن مريم عليهما السلام دعا ربّه قائلاً: ﴿اللّهُمَّ رَبَّنَآ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وءَاخِرِنَا﴾ (المائدة/114). فلننظر الى هذه الروح الإيجابية المتفائلة، فهناك فكرة أن تكون هذه المائدة عيـداً، ومناسبة للفرح والسرور على عكس البعض من الناس الذي يتوهّمون أنّ الحياة كلّها حزن وغم.

**التكامل المعنويّ**

وبالإضافة الى العيد – كحالة مادّية نستبشر بها – فانّنا بحاجة الى تكامل معنويّ يشير إليه النبي عيسى عليه السلام في قوله وهو يدعو ربّه: ﴿... وءَايَةً مِنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيَ أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لآ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة/114-115) فاذا ما نزلت النعمة ثم كفر الإنسان بها فانّها ستتحوّل الى نقمة وعذاب.

وباختصار! فانّنا بالاضافة إلى تعاملنا، وتفاعلنا مع الأحداث السياسيّة، ووقائع حياتنا اليوميّة، لابدّ أن لا نغفل في نفس الوقت عن تربية أنفسنا، وتزكيتها بالدرجة الأولى، لأنّ الله تعالى لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم، ولأنّ المبادرة الى تزكية النفس وتطهيرها من أدران الذنوب والشوائب الدنيوية تمثّل المرحلة الضرورية الأولى في عملية الاصلاح والتغيير.

وبعد أن نتجاوز هذه المرحلة بنجاح علينا أن نتّجه بعد ذلك الى تربية الأمّة واقتلاع جذور الفساد منها، وانتشالها من مستنقع التشاؤم والسلبيّة والانطواء على النفس.. وإذا ما استطعنا أن نتجاوز هذه الحالة السلبيّة، ونبعث في أنفسنا روح التفاؤل والمبادرة وروح الاستقامة والصبر والتحدّي والاقتحام، والهمّة والعزم الذي لا يلين.. فانّنا سنستطيع آنذاك أن نصلح حياتنا، ونصلح حياة الأمم الأخرى في جميع المجالات، ذلك لأنّ الروح الإيجابية هي الأساس في عمليّة الإصلاح والتغيير.

# تزكية النفس؛ مقدّمة إصلاح الواقع

يبدأ الإصلاح الحقيقي في المجتمع البشري من حيث القرار النهائي والحاسم الذي يتّخذه الإنسان على صعيد الأفراد والجماعات، ومركز هذا القرار، ومنطلق العزم هو ذات الإنسان؛ فإذا ما طابت هذه الذات قرّرت الصلاح والإصلاح، وإذا خبثت صارت الى الفساد والإفساد. والقرآن خير الشهود في هذا المجال إذ يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَيَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً﴾ (الاعراف/58)

فالإنسان بسلوكه وعمله وتصرّفاته، انعكاس وتجسيد لضميره ونفسه وما يحمل فيهما من نوايا، كما يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس/9-10) فعندما تكون النفس الإنسانية مزكّاة، فانّ جلّ حياة الإنسان سوف ينقضي في التزكية والخير والإصلاح. أما عندما تكون فاسدة ملوّثة مدنّسة، فانّ حديث الإصلاح في الحياة سوف لا يتغلغل فيها، ولا ينفعها شيئاً.

**النفس منطلق الإصلاح**

إنّ بداية الإصلاح في المجتمع الإنساني تبدأ من حيث مركز القرار، وهو النفس، التي لابد أن يكون صاحبها متصلاً بها لكي يكون الإصلاح؛ فإذا ما صلحت نوايا الناس ونفوسهم ظهرت بوادر الإصلاح. ولذلك كان التركيز القرآني على هذه النقطة أكثر من التركيز على أنواع الإصلاح الأخرى التي

تتفرّع من مركز قرار الإصلاح في ذات الإنسان وضميره، كالإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي وحتى الإصلاح التربوي. ذلك لأن الحديث القرآني عن تلك الأنواع من الإصلاح لم يكن بمستوى الحديث عن إصلاح النفس الإنسانية، وتزكيتها، وتنمية مواهب الخير وبواعث الصلاح فيها.

ترى ما الذي يريده الإنسان؛ الدنيا أم الآخرة، وما هو هدفه، وإلى أين تسير به إرادته التي هي حالة نفسية كما هو معلوم؟

هذه التساؤلات وغيرها يعكس القرآن الكريم الجواب عليها في شتى الصور، كقوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ * وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة/200-201).

**مشكلة الحضارة**

والحضارة الجالهية الراهنة القائمة على أساس الفساد والإفساد الفكري والثقافي، لم تنتبه الى هذه الحالة، أو ربّما تجاهلتها؛ أي كون النفس الإنسانية هي مركز القرار في حياة الإنسان، ولذلك راحت هذه الحضارة تتخبّط خبط عشواء؛ فتارة تعلّل المشكلة بالاقتصاد، وعلى ضوء ذلك مضت تبحث وتجرّب الأفكار والآراء التي وضعتها من أجل الإصلاح الاقتصادي، فاعتبرت الاقتصاد إله الأرض وعلّلت كل المشاكل، وأنواع القلق الفكري والثقافي والتربوي والسياسي الذي يسود الحياة الإنسانية بالاقتصاد وبنيته الهزيلة.

هذا من حيث الاقتصاد، وهناك من ينظر الى المشكلة (مشلكة الإصلاح)، ويرى علاجها بالاباحية، والتحلّل الجنسي، كما يرى ذلك (فرويد) الذي كان يعتقد أن عقدة الجنس مصدر كلّ فساد في الأرض، لذلك نهض يدعو الى

سيادة الإباحية، والحياة البهيميّة بين الناس، حتّى يصلوا الى حدّ الاشباع الجنسي الذي يكمن فيه – حسب زعمه – صلاح الإنسانية والحضارة.

وهناك فريق آخر راح يعزو مشكلة الإصلاح الى الاقتصاد أيضاً، ولكن على خلاف الرؤية الماركسية، وهو ما يطلقون عليه اسم (اقتصاد السوق)؛ أي فتح الأبواب والمجالات الاقتصادية بشكل حرّ، ونتائج هذه النظرية وآثارها السلبية المدمّرة هي المعاناة التي تعيشها الكثير من الشعوب.

وعلى هذا؛ فانّ سرّ فشل الحضارة الجاهلية المعاصرة بأنواعها في عمليه الإصلاح هو جهلها وعدم معرفتها بمنطلق الإصلاح، ومركز القرار في حياة الإنسان، وهذا ما جعلها تتخبّط في مسيرها، فتتّجه مرة ذات اليمين، وأخرى ذات الشمال، وفي كل يوم نراها في مسار ينتهي بها الى الفشل، وخيبة الأمل.

وبناء على ذلك فانّ سفينة البشرية لا يمكن لها أن ترسو على شاطئ النجاة وساحل الخير إلاّ عندما تبحث عن مشكلتها في النفس الإنسانية، التي هي مركز حياة الإنسان؛ فإن صلحت صلح ما سواها، وإن فسدت فسد ما سواها.

والقرآن الكريم يحدّثنا عن هذه النقطة الأساسية والمهمّة قائلاً: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص/83) فإذا ما صلحت الإرادة الإنسانية، وأضحت طيبة زاكية طاهرة، فانّ الله تبارك اسمه سوف يجعل مصير البشرية ينتهي إلى العاقبة الطيبة في الآخرة.

**المادّة ليست سبباً للاصلاح**

وقد سبق الحديث قبل هذه الآية عن قارون وملكه العظيم الذي جاء وصفه في قوله تعالى: ﴿وءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ

أُوْلِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص/76)؛ أي إن ما كان يمتلكه قارون لم يكن يستطيع أن يحمل مفاتحه سوى مجموعة من البشر الأقوياء، فهل إن ما كان يمتلكه قارون من خزائن تمخض عن الصلاح له ولمجتمعه؟ كلا بالطبع؛ فالغنا المادي، والثروة الطائلة، والقوة الاقتصادية البعيدة عن التزكية... كل ذلك لم ينفع قارون في إصلاح نفسه، وإصلاح مجتمعه، فهو لم يكن بثرواته وكنوزه يطلب رضوان وثواب ربه تعالى، ولم يكن يريد بها وجهه الكريم، ولذلك أصبحت هذه الثروات والخزائن مصدر علوّ، وفساد في الأرض.

واليوم نحن ننظر الى المجتمعات المتقدمة التي تعتبر رائدة التطوّر الحضاري المعاصر كالمجتمع الأميريكي، فهل سينفعهم ما بلغوه من تقدّم اقتصادي بعيد عن إطار الدين والأخلاق في إصلاحهم، ويحدّ من الفساد الاجتماعي والأخلاقي الذي يعيشونه اليوم، وهل سيكون في مصلحتهم ومصلحة البشرية؟؟

الجواب بالنفي طبعاً؛ فعندما تفسد النية فان مسار الإنسان سينتهي الى الدمار والخراب، ذلك لأن مثل النية كمثل سكة حديد تنتهي الى واد عميق؛ فالذي يسير على هذه السكة لابد أن يكون مصيره السقوط والهلاك. وهكذا الحال بالنسبة الى الحضارة الجاهلية المعاصرة فانّ مثلها كمثل سيّارة يقودهان رجل ثمل، فهل من الممكن أن نأمن سلامتها والركوب فيها؟

فعندما تكون البداية بداية صلاح وخير، وعندما يكون الأصل والنبع صافيين، فانّ كل الفروع المنطلقة من هذا الأصل النقي ستكون – هي الأخرى – صافية، نقية كصفاء ونقاء الأصل.

**العصبية ليست من الدين**

إنّ على الحركات الإسلامية أن تنتبه الى هذه الحقيقة القرآنية، وهي التركيز على نفس الإنسان ونيّته؛ فعندما نجمع حولنا الجماعات فعلينا أن ننظر تحت أي شعار، وباسم أي شيء نجمعها؛ هل باسم العصبية والقومية والاقليمية والطائفية، أم باسم الدين والعقيدة؟

إن العصبية ليست من الدين في شيء؛ بل إن الدين ينبذها، ويدعو الى تجنّبها بكل أشكالها، وهؤلاء المتعصّبون يخدمون في الظاهر الدين، لكنهم – في الواقع – إنما يخدمون عصبيّاتهم. وللأسف فانّ العصبيات هي التي تحرّك بعضنا، لا روح خدمة الهدف المشترك. ومن أجل القضاء على هذه الظاهرة السلبية، يجب أن نعتمد في أعمالنا النوايا الخالصة لله عز وجل؛ علماً إن هذا هو أول شعار حمله الإمام الحسين عليه السلام في رحلته الجهادية الى كربلاء، عندما هتف هتافه الخالد في ضمير التأريخ قائلاً: "إني لم اخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي".

فلقد كشف عليه السلام منذ البدء عن نيته، وهدفه من الخروج ضدّ يزيد، إذ كان خروجه هذا لطلب الإصلاح، لا للحكم والسلطة..

وتأسيساً على ما سبق، فانّ النية ينبغي أن تكون خالصة، والهدف مقدّساً، وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله: "إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه".[1]

(1) بحار الأنوار، ج67، ص211.

من هنا؛ يجدر بالمؤمنين أن يزكّوا أنفسهم، ويخلصوا نيّاتهم، ويجعلوا أهدافهم من وراء العمل الرسالي نزيهة يبتغون بها وجه الله سبحانه، لا من أجل منصب يبتغونه في المستقبل، أو زعامة يحلمون بالوصول إليها، ولا من أجل عزة طائفتهم أو جماعتهم أو حزبهم.. فمثل هذه العصبيات وغيرها لا تنفع يوم القيامة، بل إنّها تعود بالضرر على الإنسان، وتدنّس صفحة أعماله.

فلتكن نوايانا خالصة لوجه الله، وإلاّ فسوف لا تقبل منّا أعمالنا مهما كثرت، ومهما اجتهدنا فيها؛ وقد قال لقمان الحكيم: "وأخلص العمل فإنّ الناقد بصير".[1]

(1) بحار الأنوار، ج13، ص432.

# تزكية النفس طريقك الى الجنة

من الصفات الخلقيّة ما هو أصل تتفرّع منه الصفات الأخرى، ومنها ما هو فرع يتبع الأصل، والفروع تختلف أيضاً في درجاتها، وسواء سعى الإنسان من أجل تزكية نفسه وإصلاحها بالنسبة الى الصفات الرئيسية أم الثانوية فان سعيه هذا مبارك من قبل الله سبحانه وتعالى الذي سوف يجزيه الجزاء الأوفى.

**الإنسان العاقل يبحث عن الجذور**

ومع ذلك فانّ الإنسان اللبيب هو الذي يبحث عن جذور الفساد في نفسه، ويسعى من أجل اقتلاعها لكي لا ينبت ولا ينمو هذا الفساد في نفسه مرّة أخرى.

أما أولئك الذين يهتمّون بقطع واستئصال الفروع فحسب، فانّ الذي يخشى عليهم أن تنمو في أنفسهم الصفات السلبيّة، ثم يأتيهم الموت في لحظة من اللحظات السيئة في حياتهم؛ أي أنّهم من الممكن أن يتوفّاهم الموت وهم على تلك الصفات، فيحتاجون بذلك إلى عملية تطهير عنيفة في القبر، أو في عالم البرزخ، أو في يوم القيامة، أو في نار جهنّم لكي تقتلع جذور الفساد من نفوسهم، ويتطهّروا، ثم يدخلوا الجنة طيّبين مبرّئين من الذنوب.

**لا يدخل الجنة حسود!!**

أما من كان يحمل في ذاته الحسد ولو بمقدار حبّة خردل فانّه لا يمكن أن يدخل الجنّة إلاّ إذا استطاع أن يقتلع جذور هذه الصفة الرذيلة من نفسه في

الدنيا، فانّ ظل هذا الحسدُ عالقاً في نفسه فانّ سكرات الموت سوف تشتدّ عليه حتى يتم تطهيره من هذه الخصلة السلبية، وإلاّ فانّ عذاب البرزخ سيكون في انتظاره وسيستمرّ هذا العذاب خلال هذه المرحلة كما يقول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون/100). وقد يكون هذا اليوم قريباً، وربما يكون بعيداً يستغرق الملايين من السنين الى قيام الساعة التي لا يجليها لوقتها إلاّ الله سبحانه وتعالى.

فان لم يتمّ تطهير الإنسان في القبر فانّ هول المطّلع كفيل بتطهيره في يوم كان مقداره خمسين الف سنة مما نعدّ، وقد صرّحت بعض الروايات أنّ بعض المسلمين يدخلون جهنّم ويمكثون فيها الالاف المؤلّفة من الأعوام حتّى تتزكّى أنفسهم ليدخلوا بعد ذلك الجنّة!!

**ضرورة التطهّر قبل التعرّض للعذاب**

لقد أضحى من الأفضل للإنسان أن يجتهد ويبذل كل ما بوسعه من أجل اقتلاع الصفات الرذيلة من نفسه في الدنيا قبل أن يتعرّض للعذاب الأليم، والشقاء المقيم الذي لا يمكن تصوّره وتحمّله، والقصد من هذا العذاب تزكية النفس، وتطهيرها بشكل كامل، فالله تبارك وتعالى خلق نفوسنا طاهرة ولا يرتضي لها إلاّ أن تعود طاهرة مرة أخرى بعد أن لوّثها الإنسان ودنّسها بأفكاره وأعماله الخاطئة.

**كلّ إنسان بحاجة الى التزكية**

إن ضعفنا واستسلامنا للأهواء يجعلان أنفسنا مليئة بالصفات السيئة، ومن يدّعي أنّه زكي نقي طاهر من هذه الصفات فانّه إما أن يكون إنساناً عظيماً جدّاً إذا صدق في ادّعائه هذا، وإمّا أن يكون الشيطان قد خدعه. فالإنسان ليس من حقّه أن يدعي نـزاهة نفسه، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يزكّي من يشاء، والمطلوب منه أن يبادر إلى العمل الجاد من أجل تزكية نفسه.

وقد حدّثنا الله تبارك وتعالى عن ضرورة أن يزكّي الإنسان نفسه، وينمّي صفة التقوى فيها من أجل التخلّص والنجاة من أهوال يوم القيامة، فيقول عز من قائل: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَاهُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج/1-2).

**أهوال يوم القيامة**

والملاحظ في القرآن الكريم أنّه عندما يحدّثنا عن خلق السماوات والأرض فانّه لا يهوّل الأمر، ولكنّه عندما يتحدّث عن زلزلة الساعة فانّه يصفها بأنّها شيء عظيم. وفي الحقيقة فان أشدّ ما يكون التعلّق العاطفي هو ذلك الذي يكون بين الأمّ وطفلها الرضيع الذي تحتضنه، وتنشغل بارضاعه، ومع ذلك فانّ هول الساعة يجعل هذه الأم تذهل؛ أي تغيب من الناحية الذهنية عن أمر طفلها الحبيب إليها، فلا تستطيع أن تفكّر فيه، أو أن تفعل له شيئاً.

إنّ أولئك الذين يصبّون اهتمامهم على الدنيا، تراهم في ذلك اليوم سكارى ولكن لا بسبب الخمر، وإنّما لأن شدّة الزلزال في يوم القيامة تبلغ حدّاً يجعلهم لا يستطيعون الاستفادة من أفكارهم، فهم يشتركون مع السكارى في فقدان القدرة على التفكير.

**الإنسان هو الذي يلوّث نفسه**

ومع أنّ هذا اليوم ينتظرنا – شئنا أم أبينا - وأنّنا لابدّ أن ندعى إليه ونستجيب لـه قهراً، فإنّنا نملأ نفوسنا بالصفات السلبية، ورغم أن الله تعالى قد خلقنا طاهرين منها إلاّ أننا نحن الذين اكتسبنا هذه الصفات من دون أي مبرّر سوى خداع الشيطان، والنفس الأمّارة بالسوء.

على أنّ الإنسان لا يكتفي بهذا الحد من تلويث نفسه، بل هو يعمد الى الجدل لتبرير سلوكياته وأفكاره كما يقول ربنا تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي

اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ (الحج/3) وفي الحقيقة فانّ مشكلة الإنسان الرئيسية هي الجدل الذي يشكّل حاجباً بين الإنسان وبين رؤية الحقيقة كما هي حتّى يفاجأ بالعذاب وهو يعيش في الخيال والأوهام بعيدة عن الواقع.

**الكبر نتاج الجدال**

ومن الصفات التي تتفرّع من صفة الجدال، الكبر التي هي صفة ملازمة للإنسان منذ كان روحاً في عالم الأرواح. فعندما خلق الله تعالى البشر أرواحاً في عالم الأشباح، كانت هذه الأرواح منطوية على الكبر، وكان أصحابها يتصوّرون أنهم آلهة أو أنصاف آلهة. فصحيح إنّ الله عز وجل قد خلق روح الإنسان خلقاً قويماً وسويّاً، وصحيح أنّ هذه الروح ذات قدرة هائلة، ولكنّ قدرتها هذه لا يمكن أن تقاس بقدرة ربّها وخالقها، ولذلك أنزل الله جل وعلا هذه الأرواح الى عالم الطبيعة الدنيويّة لكي ينتزع منها حالة الكبر. وإذا ما استطاع الإنسان أن ينتزع هذه الحالة من ذاته، فانّه سيدخل الجنة بعد الموت فوراً، وإلاّ تعرّض لعمليات التطهير السابقة الذكر.

**الصلاة وسيلة انتـزاع الكبر**

وفي الحقيقة فانّ الصلاة بما فيها من ركوع وسجود وتسبيح لله وحمده وتكبيره، إنّما هي وسيلة لانتـزاع صفة الكبر من نفس الانسان. فهو عندما يخرّ ساجداً فانّه يضع جبهته التي هي أكرم أعضاء جسمه على الأرض، وهذا هو أقصى تعبير عن التواضع والتذلّل بين يدي الجبّار. ولكنّ هذا العمل من الممكن أن يفقد محتواه إذا كان فكر الإنسان الساجد منصرفاً الى الأمور الدنيويّة، والعلاقات الشخصية. فالسجود وغيره من الأعمال التعبديّة لا يمكن أن ينتج أثره في علاج رذيلة الكبر إلاّ إذا اقترن بالتوجه القلبيّ الى معناه ومحتواه.

**الطغيان إفراز التكبّر**

والإنسان لا يمكن أن يحرز هذا التوجّه القلبي المطلوب إلاّ إذا أشعر نفسه بالحاجة المطلقة إلى الله تبارك وتعالى، ولم يسمح لنفسه أن تخدعه بالاستغناء الكاذب كما يقول ربنا سبحانه: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَءَاهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق/6-7) فهو عندما يرى نفسه قد وصلت إلى مستوى الاستغناء المزعوم، فانّه يعمد الى الطغيان، وهذه هي طبيعة الإنسان، فبمجرّد الخداع الذاتي يتكبّر هذا الإنسان.

والتكبّر والطغيان هذان يحصلان بمجرّد أن يتكبّر الإنسان على الآخرين، بل حتّى عندما يستعلي على الحيوانات، وعلى النباتات والجمادات، فهو في هذه الحالة إنما يتسعلي على الله جلّت قدرته. فأنت عندما تضرب – على سبيل المثال – في حالة التكبّر والأنانية طفلاً، فانّك في الواقع تتحدّى سلطان الله. فمن أنت لكي تتكبّر، وكيف تقول (أنا) تكبّراً واستعلاءً؟

**التكبّر يحبط أعمال الإنسان**

ولقد جاء عن دور التكبّر في إحباط أعمال الإنسان حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: "لن يدخل الجنّة عبدٌ في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر".[1] فلابد لنا من إخراج حتى هذا المقدار الضئيل من أنفسنا. صحيح أنّ هذا العمل صعب جدّاً، ولكن علينا أن نبذل كل ما بوسعنا، ولنحاول أن نقتل (الأنا) في أنفسنا، هذه الأنا التي تمثّل أساس التكبّر الباطل. ولكي نضمن النجاح في هذا العمل العسير، علينا أن نستعين بالله جل وعلا ضدّ هذه الأنانية الذاتية التي يقول عنها القرآن الكريم: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر/9) فان استطعنا أن نخرج هذه الأنانية من أنفسنا، فانّنا حينئذ سنكون بمثابة من امتلك الدنيا برمّتها.

---

(1) بحار الأنوار، ج2، 141.

إنّ شعور الإنسان بعظمة الله سبحانه وتعالى كلّما ازداد وتكرّس في نفسه، فانّه سيشعر بصغره وحقارته، وبالتالي يزداد تواضعه وخشوعه الى حد بحيث لا تبقى في نفسه ولو ذرّة واحدة من الكبر، فتتطهّر نفسه من هذه الرذيلة تماماً.

**النفس البشرية نار تحت الرماد**

وهناك خصوصيّة في النفس البشرية يجدر بنا الانتباه إليها لخطورتها، ألا وهي إنّ هذه النفس تشبه الى حدّ كبير الثعبان الذي يستغرق في السبات بسبب ظروف معيّنة حتى يبدو وكأنه ميّت، ولكنّ هذه الظروف عندما تتغيّر يستيقظ ليبتلع ما حوله، ويكون بالغ الخطورة والشراسة. فعلينا -إذن- أن ننتبه إلى أنفسنا، وإذا وجد الواحد منّا نفسه في حالة معيّنة تتميّز بالهدوء والسكون، ولا تتفجّر فيها عوامل الشر، والصفات الرذيلة الكامنة، فعليه أن لا يأمن جانبها، أو يطمئن إلى زوال الخطر.. فبمجرد أن تتوافر ظروف وأحداث معيّنة ستثور سلبيات النفس كالحسد، والكبر، والأنانية.. فانّ هذه النفس سوف تستيقظ لتتمرّد على صاحبها الذي لم يستعدّ الاستعداد اللازم لمواجهتها، فتبتلعه كما يبتلع الثعبان الشرس ضحيته.

فالنفس البشريّة تشكّل خطراً عظيماً كامناً قابلاً للتفجّر في أي وقت، وإحداث الدمار الرهيب في وجود الإنسان، ووضع مصيره ومستقبله على كفّ عفريت!!

**كيف نواجه أنفسنا؟**

والسؤال المطروح هنا هو: ماذا ينبغي على الإنسان أن يفعله، وما هو السلوك الذي يجب أن يتحلّى به لكي يحيط نفسه بدرع واقٍ من هجوم نفسه ذاتها على حين غفلة منه، ويكون على الدوام في حالة استعداد كافٍ لمواجهة الخطر الذاتي الكامن في نفسه؟

بإمكاننا هنا أن نذكر ثلاثة أساليب تقي الإنسان من شرور نفسه، وتضمن له الاستقامة في الحياة دون التعرّض الى خطر الانزلاقات التي تهوي به في مهاوي سوء العاقبة، وهي:

1- الدعاء؛ وفي هذا المجال يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر/60) فالدعاء يشعر الإنسان بحالة الذل والصغار أمام الله سبحانه وتعالى. وهذا الدعاء عادة ما يكون صعباً على الإنسان عندما يكون في حالة الرخاء، حيث يشعر بالحاجة الى شيء، لأنّ نفسه في هذه الحال تكون أكثر ميلاً إلى الاستكبار والطغيان والغرور، حتّى في حالة تعاملها مع الرب الخالق الرزاق.

ومع ذلك؛ فانّ رحمة الله عز وجل التي وسعت كلّ شيء اقتضت أن يسلّط على عباده بعض الشدائد والصعوبات، ويقدّر عليهم رزقه في بعض الأحيان، لكي يشعروا بالعجز والحاجة، ومن ثم تتوجّه نفوسهم الى الله القوي الغني عن طريق الدعاء الذي هو جوهر التوسّل والتضرّع الى الخالق العظيم الذي له ملك السماوات والأرض وهو على كلّ شيء قدير.

وكثيراً ما لا يستجيب الله تعالى لعبده إلاّ بعد فترة – قد تطول أو تقصر – لكي يظلّ هذا الإنسان في حالة الحاجة التي من شأنها أن تجعله يلحّ في الدعاء، لكي يقتلع جذور الكبر والتكبّر من نفسه تماماً، وبذلك يتخلّص من هذه الخصلة الخطيرة المغروزة في نفسه. وهذه هي فلسفة الاحتياج في الحياة التي يشير إليها ربنا عز وجل في قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ (الشورى/27).

2- التواضع للمؤمنين؛ وهذه الصفة هي المصداق العمليّ للتواضع لله سبحانه وتعالى، والخضوع له، وهي درع حصين يقي الإنسان من هجمات نفسه الأمارة بالسوء التي تحاول النفوذ من أية ثغرة إلى صاحبها ومن ثم إيقاعه

فيما يخشى الوقوع فيه من مهاوي التكبّر الذي مثله كمثل النار التي كلّما تركتها كلّما اتّسع انتشارها؛ وكما أنّ الماء هو الذي يطفئ النار فان التواضع هو الذي يكبح جماح التكبّر، ويطفئ ناره في النفس البشرية.

وبإمكاننا في هذا المجال أن نتّخذ من علمائنا الأفاضل قدوة؛ فنحن نرى أن منهم من كان يقوم بأعمال البيت بنفسه، ومنهم من كان إذا زاره أشخاص لهم حاجة إليه فانّه يقف لهم، وبعد أن يجيب مسائلهم، ويقضي حوائجهم يطلب منهم أن يتقدّموا فيمشي هو وراءهم لكي لا تحدّثه نفسه بالخيلاء والاستعلاء إذا مشى أمامهم، ومنهم من إذا أراد أن يعطي الفقير صدقة مدّ يده إليه بحيث تكون يد الفقير فوق يده. وفي الحقيقة فانّ هذا السلوك بالغ اللطافة، إذ يُعد تعبيراً عن ضرورة الاحتياط التام في مواجهة النفس، فبمجرّد أن تكون يد المتصدّق هي العليا فانّ هذا من شأنه أن يسمح للنفس بالهجوم على الإنسان، والوسوسة إليه بأنّه صاحب الفضل، وأنّ الآخرين أقلّ منزلة منه.. في حين إن الفضل كلّه لله تعالى، فهو وحده الذي يجعل الناس على درجات، ويفاضل بين أرزاقهم لكي يبتلي بعضهم ببعض، ويختبر شكرهم وصبرهم.

وقد يقول قائل في هذا المجال: إنّ كل إنسان لا يمكن أن يتواضع بهذا الشكل، وخصوصاً ذلك الإنسان الذي يريد أن يصلح المجتمع، فيزعم أنه لابد للإنسان المصلح أن يكون قويّاً متسلّطاً يأخذ الناس بالعنف والشدّة، ويستعلي عليهم لكي يتمكّن من إدارتهم وإخضاعهم لبرامجه ومنهجه الذي يدعو إليه.

وللجواب على ذلك نقول: إن الإمام علي عليه السلام يقول: "وقد عاتبتكم بدرَّتي التي أُعاتب بها أهلي فلم تبالوا، وضربتكم بسوطي الذي أُقيم به حدود ربّي فلم ترعووا، أتريدون أن أضربكم بسيفي، أما إنّي أعلم الذي تريدون

ويقيم أوَدَكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي، بل يسلّط الله عليكم قوماً فينتقم لي منكم، فلا دنيا استمتعتم بها، ولا آخرة صرتم إليها، فبعداً وسحقاً لأصحاب السعير".[1] فالنفس هي التي يجب أن تكون مهمّة لدى الإنسان، فيجب عليه أن يعمل بما يضمن له خلاصها، وذلك بأن يأخذ بالعنف والشدّة والمجاهدة ليطهّرها من سلبيّاتها، ثم يدعو الناس الى الحق بكلامه وسلوكه بكل لطف وتواضع، وليس لـه أن يجبرهم على اتّباع الحق؛ فعلى فرض أنه قد تمكّن من تحقيق هدفه في الإصلاح، فانّه سيكون قد أصلح غيره، وأفسد نفسه، وهذا ما يخالف العقل.

3- التفكّر في آيات الله، ومعرفة عظمته، وهيمنته وقدرته، وأنّه جل شأنه قادر في لحظة واحدة أن يسلب من الإنسان كلّ ما أعطاه؛ فلِمَ التكبّر إذن؟ وهل يمكن أن تكون عاقبة هذه الآفة النفسيّة سوى الندم والخسران والخزي في نهاية المطاف، ودخول نار جهنم في الآخرة.

(1) بحار الأنوار، ج74، ص364-365.

الفصل الثالث:

# من مكارم الأخلاق

# إن الله يأمر بالعدل والإحسان..

في القرآن الكريم آيات تسمّى محكمات، وآيات أخرى تسمّى متشابهات؛ ولابد من ردّ المتشابه من الآيات الى المحكم منها. ذلك أن القرآن كتاب أحكمت آياته ثم فصلت؛ أي أنّ الكتاب المنـزل من عند الله تبارك وتعالى يحتوي على قيم عليا بالإضافة الى تفاصيل هذه القيم العليا؛ فالمحكم هو الأصول، والمتشابه هو الفروع في أحد أهم وجوه التعريف. فالتوحيد - مثلاً - قيمة عليا وأصل ثابت، ولكنه في الوقت ذاته يتشعب الى مجموعة فروع ومفاهيم وقيم وحقائق، ثم من شأن هذه الفروع أن تتشعب بدورها الى حقائق نتلمس مظاهرها في الواقع اليومي المتكرر. ولعل المعنى الأقرب لمصطلح (المتشابه) في الآية القرآنية هو الفروع دون الأصول، إذ كثيراً ما تتشابه التكاليف الفرعية على المكلّف، في حين يختلف الشأن في الحقائق الاساسية، فهي قليلة من جهة، ومعروفة من جهة أخرى.

ومن الآيات القرآنية الكريمة المحكمة (الأصول) قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل/90)

فنلاحظ في الآية ثلاث مفردات؛ هي: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، أمر الله بهنّ أمراً قاطعاً، خالياً عن قرينة ما تصرفه الى

الاستحباب أو غير ذلك؛ وثلاث مفردات أخرى نهى الله عنهنّ نهياً جازماً كذلك، هنّ: الفحشاء، والمنكر، والبغي.

فما هو مفهوم هذه المفردات ؟ وماذا تعني ؟...

حينما نؤكد أنّ هذه الآية آية محكمة، فان ذلك يعني لزوم ردّ الفروع كلّها، أو على الأقل فيما يتصل بالعلاقات الاجتماعية الى هذه الآية المباركة.

فربنا جلّ شأنه يشير الى العدل - كأصل أول - ويأمر به الإنسان ليعرف أنّه ليس الكائن الوحيد على وجه البسيطة، وليعرف أنّ للآخرين حقوقاً بذمته يتوجب عليه أداؤها، كما له هو نفسه حقوق يتطلع الى نيلها عن طريق أداء الآخرين لها، والله - وهو العدل المطلق- لم يغفل عن إلزام الإنسان بتحقيق العدل حتى مع أعدائه، أي أن أعداء الانسان أيضاً لهم عليه حقوق... حيث قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة/190) فحق أعداء المسلمين عليهم أن يقاتلوهم ضمن حدود الوعي الديني، وواحدة من مفردات هذا الوعي أن تكون مقاتلة الأعداء الكفار ضمن مفهوم سبيل الله لا غير، ولو لم يكن الأمر كذلك لأصبح القتال فعلاً وحشياً وخالياً عن هدف مقدس الغرض منه الإصلاح. ثم يقول تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة/190) نظراً لصيانة قوانين الحرب العقلية المتعارفة، من قبيل عدم الاعتداء على الآمنين أو المهادنين من الكفار، وحفظ حياة الأسير وصيانة حقوقه كإنسان، وكذلك لا يجوز التوسّل بأيّ طريق للفتح أو إبادة العدو، فالعدل يتناقض وهكذا منهج باطل.

وهناك حقوق للطبيعة - بمفهومها العام - من حولنا تنبغي رعايتها، فالأرض بحاجة الى الإحياء عبر الزراعة والبناء والإعمار. فقد روي عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: "من وجد ماءاً

وتراباً ثم افتقر فأبعده الله"،[1] وقال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: " اعلموا أنّكم مسؤولون عن بقاع الأرض وهوامها "، وقد أولى الفقهاء المسلمون بحث إحياء الأراضي مزيداً من الأهمية؛ ومن ذلك مسألة إذا كانت لإنسان أرضاً ثم تركها بعدم الإحياء، وقد صرحت الفتاوى بهذا الشأن بلزوم مصادرة الحاكم لهذه الارض، ومنحها لمن له الاستعداد لإحيائها، على اعتبار عدم جواز تعطيل الأرض.

وفي وقت كان صياح الديكة لا ينقطع بين الكوفة والبصرة لحجم الإعمار والإحياء الكبير بين البلدين، وذكر في التاريخ؛ أن أحد وزراء العباسيين أسدى خدمة جليلة الى السلطان، فأراد هذا الأخير منحه جائزة، فقال لوزيره: ما هي الجائزة التي تتمناها ؟ فقال الوزير: لن تستطيع تقديم ما أطلبه.. فأصرّ عليه السلطان بالتصريح، فأجابه الوزير: أريد قطعة أرضٍ بائرة في العراق! فأرسل السلطان من يبحث له عن ذلك، فلم يعثر على ذلكٍ. وكان في هذا إشارة ذكية من الوزير الى عظمة إنجازاته، وتوجيه وتنبيه السلطان الى أهمية الأمر. بينما ترانا اليوم - وللأسف الشديد - يحاصرنا التصحر الزاحف وقلة المحاصيل، فنضطر الى استيراد معظم غذائنا من الدول الأجنبية...

إن عدم التعامل بالعدل مع الأرض قد عطّل في بلداننا الاسلامية والعربية منها على وجه الخصوص حوالي ثلاثة ملايين فرصة للعمل، وأسفر عن وجود خمسة عشر مليون عاطل عن العمل، هذا عن العدل.

وأمّا الإحسان؛ فهو درجة تفوق العدل، حيث يكون أمام الانسان واجب يفوق الحق الملقى تنفيذه على عاتقه. فمن يؤدي حقّ الناس يكون عادلاً، وإن هو قدّم ما يزيد على ذلك فسيصبح محسناً. وقد قال الإمام علي بن أبي طالب

---

(1) بحار الأنوار، ج100، ص65.

عليه السلام في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ قال: "العدل الإنصاف، والإحسان التفضل".[1]

فهل الإحسان أمر واجب أم مستحب؟

الكثير من علماء الفقه قالوا بالاستحباب، باعتباره فعلاً ليس من حق الناس المطالبة به. ولكنهم -بهذه الفتوى- يصطدمون بصريح قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وإزاء إمكانية الجمع بين الوجهين أقول: إن الإحسان أمر واجب، إذ المجتمع لا يقوم إلاّ على أساس الإحسان، فإذا كان كل واحدٍ من أفراد المجتمع يطالب بحقّه الفردي فيعطاه، فإذن من سيصغي للحق الاجتماعي العام؟

فإذا دخلت مدينة من المدن فرأيت بيوت الناس معمرة، وأمام كل بيت سيارة من آخر طراز، ويتمتع الناس في بيوتهم بألوان الطعام والأثاث، ثم وجدت الشوارع خربة غير مضاءة، والمدينة تفتقر الى الحدائق العامة أو المساجد والجامعات ومراكز الخدمة العامة، فاعرف أن أهل هذه المدينة يؤمنون بالعدل، رافضين للإحسان. فمن الذي يفتح الشوارع ويشقها عبر الجبال الشاهقة، ومن الذي يبني الجسور فوق الأنهار والروافد، ومن الذي يجمع الناس في الحسينيات والمدارس والمساجد ليتعلّموا ؟

إنه الاحسان؛ الكفيل بكل ذلك دون ريب، وكلما ارتفعت نسبة الإحسان في بلد كلما ازداد تقدماً ورفاهاً. فالمدينة لا تكتفي بأن يكون لكل بيت حديقة خاصة بها، والناس لا يكتفون بأن يكون في كل بيت مصلى، أو أن يكون كل أبٍ متصدٍ لتعليم أولاده في البيت دون المدرسة. فالإحسان يحوّل الحديقة

(1) بحار الأنوار، ج72، ص29.

العامة والمسجد الجامع والمدرسة الى بيوتٍ عامّة من شأنها حفظ التوازن وتوطيد العلاقات الطيبة.

ومن هنا؛ يمكن القول بأن الإحسان عاملاً من عوامل تنمية العدل، أو لنقل: إن الإحسان هو الثوب الجميل والضروري جداً للعدل، ومن دونه سيكون العدل عارياً، معرضاً للضربات والهزّات.

فالخطيب الذي يفكر بأنه لايخطب دون مقابل، والمؤلف الذي لا يؤلّف إلاّ ما يعود عليه بالنفع بصورة خاصة ومباشرة، والكاسب الذي لا يلتزم بقواعد الإحسان في التعامل، والطبيب الذي يفرض أسعار العلاج قبل المعالجة.. كل أولئك وهؤلاء وغيرهم ممن يسير بهذه السيرة يشكلون عوامل ضغط على المجتمع ليدفعوه باتجاه الانهيار.

لقد أجرى الله مقارنة رائعة بين الإحسان وبين الفساد من خلال قصة قارون الممتنع عن الانفاق، حينما قال له قومه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الاَخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الاَرْضِ﴾ (القصص/77). وفي سورة الأعراف نقرأ قوله جل شأنه: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الاَرْضِ بَعْدَ اِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. (الاعراف/56) ففي بداية الآية المباركة كان الحديث بشأن النهي عن الفساد، أما في خاتمتها فكان الترغيب للإحسان. فالفساد والإحسان أمران متضادّان، كما هو التضادّ المشهود بين الظلم والعدل؛ بمعنى أنّ الإمكانات الفاضلة بعد تأدية الواجب (العدل) إما أن توظف في مصارف الإصلاح وإمّا أن تُهدر في أُطر الإفساد.

وأضرب لكم مثلاً؛ فالتاجر ذو الإمكانات الوفيرة والذي أدّى حقوق الناس، ماذا سيفعل بالمتبقي لديه ؟ فهو لو بنى بيتاً كبيراً جداً وتركه معطّلاً سيكون مفسداً سفيهاً، ولو أنه اشترى عدداً كبيراً من السيارات ولم يستفد إلاّ

من واحدة أو اثنتين فهو سيكون مسرفاً أحمقاً، ولو أنه أحجم عن هذا أو ذاك فعمد الى تكريس ثروته فسيكون ممن قالت عنه الآية: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ (الهمزة/2) أو سينطوي تحت قائمة من هددهم الله تعالى بقوله العظيم: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة/34) إذ المال نعمة إلهية، الغرض منها تحريك الاقتصاد العام لا غير ذلك.

إن الامكانات والطاقات لم ينعم بها الله على الانسان لكي تعطّل أو يُسار بها نحو الفساد؛ فالحقائق الدينية والمنطق الإنساني السليم يشيران الى العكس من ذلك، فالإحسان والتفضّل إذا ما اعتمده الناس في حركتهم، من طبيعته أن يكون العامل الأهم في توفير فرص التقدم الدنيوي والسعادة الأخروية الأبدية.

فالإحسان من وجهة النظر الإسلام لا يختص بأمر إنفاق المال بالضرورة فحسب، وإنما المفهوم الواسع والطبيعي له هو بذل كافة الامكانات والطاقات؛ من قبل الإحسان بالكلمة الطيبة. والملاحظ هنا أن معظم الذين تسببوا في بناء وتأسيس المراكز العامة، هم من الفقراء أو حتى المعدَمين، إذ أنّهم استخدموا لهذا الغرض أحاديثهم النافذة الى القلوب، ويكون مثلهم بذلك مثل الكنوز المتحركة فوق الأرض.

فالمسألة الحساسة في هذا الإطار هي ما يعبر عنه مفهوم المقطع التالي من الآية الكريمة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (القصص/54) فمن لديه المال، ومن لديه الفكر والتخطيط، يجتمعان لرسم المشاريع البنّاءة من أجل أن ينفذها هو والآخرون، ليحركوا المجتمع والتاريخ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ لعل الأمر بإيتاء ذي القربى تعبير عن نوع من أنواع الإحسان، وهو النوع المتميز منه، وذلك أن الانسان

حينما يحسن الى أقاربه سيعمل في الحقيقة على تكتيل المجتمع، باعتبار أن الأسرة تمثل اللبنة الأولى له. وقد ورد في الشريعة نصوص جمّة بخصوص صلة الرحم وأن يقدّم أقاربه في فعل الخير على نفسه؛ منها قول رسول الله صلى الله عليه وآله: "صل رحمك ولو بشربة من ماء، وأفضل ما يوصل به الرحم كف الأذى عنها".[1]

ثم يقول جلّ ثناؤه: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فكل هذه الكلمات مقابلة لتلكم الكلمات الأولى، وهي العدل والاحسان وايتاء ذي القربى.

إننا - وللأسف الشديد - نعيش في زمن الانهيار الاجتماعي، والتغافل عن تطبيق التعاليم السماوية؛ وخير مثال لذلك هو حضور نسبة ضئيلة من المسلمين في مجالس الذكر والوعظ والإرشاد. وهذا يعني أن الحس الفردي يغلب الحس الاجتماعي. وفضلاً عن الأسباب الأخرى، فإن السبب المهم في هذا الانهيار هو ندرة تطبيق واجب الإحسان.

(1) بحار الأنوار، ج71، ص103-104.

# الانفاق والحياة الطوبى

أن يترك الانسان الانفاق فتلك مصيبة، وأن يعتاد عليه فذلك عمل صعب، إذ ليس من السهل على أحد منّا تجاوز شحّ نفسه أو ينتصر على البخل الذي يمثل صفةً أساسية فيه؛ إنه ليس من السهل أن يناقض الانسان ذاته.

إن الناس كثيراً ما ينشغلون بأعدائهم، بل وبمنافسيهم، وقد يعتبر البعض أصدقاءهم أعداءً، ولكن المشكلة؛ كل المشكلة أن أعدى أعداء الانسان ليس هذا الذي يحسبه عدواً، ولا ذاك الذي يعتبره منافساً، وإنما أعدى أعدائه هو نفسه التي بين جنبيه. فهذا العدو يتميز بالفطنة والمكر والاختباء والتلون، ولا يمكن كشفه ببساطة ويسر؛ إنه يجري في الانسان مجرى الدم من العروق، فكيف له الانتصار عليه؟

وعلى هذا الأساس؛ كان أشجع الناس من غلب هواه، وإنها لعمري شجاعة بالغة وبطولة عظمى وانتصار كبير يسجله المرء إذا ما تمكن من التغلب على هواه وكبح جماحه، لأنه قد انتصر نصفه على نصفه الآخر.

وهنا تكمن المشكلة الكبرى، إذ أن مما يتحسس منه ابن آدم ويصعب عليه أن يتجاوزه، أنه قد جبل على التخوّف من المستقبل والموت والزوال، فتراه يتشبّث بهذه الحياة الزائلة، حيث يريد لنفسه كل شيء، لعل هذا الزائل يمنحه البقاء. وكان من طبيعة الانسان أنه كلما تقادم به العمر، كلما ترسخت فيه صفة البخل والحرص والطمع وحب الدنيا بصورة عامة؛ فهو يبني القصور ويضع اللبنة

على الأخرى ويشتري العقارات لعله يخلد فيها، ولعل بقاء أبراجه الضخمة تكون سبباً في بقائه يوماً آخر أو سنة أخرى.

هذا هو إحساس الانسان، فكيف يمكن تجاوزه؟ بل كيف يمكنه التحرر من قيود الماديات؟

وقبل كل شيء لابد من التنبه أن القرآن الكريم وفي معرض اجابته على هذا التساؤل، حيث يحدثنا عن أولئك الرجال الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، إنما يستفيد من صيغة المجهول، إذ يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ...﴾ (الحشر/9) نظراً الى أن الانسان- وفق القانون القرآني الأصيل هذا – لا يستطيع أن يقي شحَّ نفسه بنفسه أو يصونها دون البخل والحرص والطمع، بل هو بحاجة ماسّة الى من يأخذ بيده فيحفظه ويصونه من هذه الأمراض المتكرسة فيه، وهذا الحافظ والصائن إنما هو الله سبحانه وتعالى.

**عقدة الذات**

في بعض الأحيان يجد الانسان صعوبة بالغة في تجاوز هواه وذاته، ولكنه إن لم يحقق النصر عليهما، وانشغل في تحقيق مصالحه الخاصة، وانغمس الآخرون كما انغمس هو في الأنانية وحب الذات.. كان المجتمع إذ ذاك عبارة عن مجموعة من الوحوش الكاسرة، وإذا كان ذلك تفشى الظلم وساد منطق القوة في المجتمع، حيث ينهش البعضُ البعضَ الآخر وينهار كل شيءٍ.

أقول: إن الانفاق صعب، وعدم الإنفاق أصعب، فياترى كيف يتمكن المرء من الانفاق فيخطو خطوة نحو التكافل الاجتماعي؟ وكيف له محاربة عدوّه الداخلي وهو النفس، فتكون يداه مبسوطتين قادرتين على البذل والعطاء؟

وقبل الإجابة، ينبغي الإشارة الى موضوعين أساسيين؛

الأول: هو أن حديثـي هذا لا يشمل الأفراد الذين يتوجّب عليهم الإنفاق فحسب، بل هو يعم من ينبغي عليهم التحدّث الى الناس ونصحهم بالإنفاق؛

بمعنى ضرورة تقديم برنامج متكامل لإقناع الآخرين بجدوى الإنفاق، حيث تنتشر العدالة ويتقدم المجتمع.

أما الموضوع الثاني: فهو أن الإنفاق لا يعني جدلاً إنفاق المال فقط، فالله تبارك وتعالى قال في أكثر من مقام: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾، (المنافقون/10) ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى/38).. فالإنفاق قد يكون بانفاق الطاقات والامكانيات الأخرى، فمن لا يستطيع إنفاق المال قد يكون بإمكانه حثّ الآخرين على الإنفاق، ومن يعجز عن منح المال بوسعه أمر الناس بالمعروف أو نهيهم عن المنكر أو التخطيط لمشاريع ثقافية أو سياسية تهدف الى خدمة المجتمع وتطويره. وهذه وغيرها صور للإنفاق في سبيل الله تعالى، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: "الدال على الخير كفاعله".[1]

**هدى القرآن بشأن الإنفاق**

القرآن الكريم يبين مجموعة من التعاليم تدفع بالمرء الى الخروج والتحرر من الأنانية وتحويله الى كائن أعلى من كل الكائنات، وبالتالي ليسهل عليه أمر الإنفاق. ففي سورة الحديد المباركة تنمي تعاليم الرسالة الإلهية خصال الكرم والجود والعطاء والنهضة بدلاً من الانكماش والانطواء والأنانية.

1- فأول حديث الله فيما يخص هذا الموضوع في السورة المشار إليها آنفاً، هو أن الله عز وجل يريد أن يخرج الإنسان من الظلمات الى النور، وأن على الانسان التأكد بأن الله يريد أن يعطيه المعرفة والحياة بمصداقها الأصيل، نظراً الى أن الوجود كلّه قد خلق من أجل الإنسان. وعليه فإن من المؤسف حقّاً أن يحوّل ويبدل هذا الكائن نفسه من مسؤول أول عن هذا الوجود، الى مجرد وسيلة حقيرة لتحرّك هذا الوجود الرحب. فالله عز وجل

(1) بحار الأنوار، ج43، ص56.

لا يريد تحطيم الإنسان، بل هدفه إخراجه من ظلمات الأنانية الى نور الحق والحرية والأمل.

2- إن برنامج القرآن في الإنفاق إنما هو رحمة بالإنسان، لأن من ينفق يحصل على ثواب الله الأعظم وعلى نوره في يوم القيامة؛ ولأن الإنسان إذا ما أنفق نزل في موقع الاطمئنان والارتياح من قبل الآخرين.

3- إن المال الذي ينفقه الإنسان – أو غير المال- إذا لم ينفقه فانه يعجز عن اصطحابه الى القبر، بل هو يرجع لله تبارك وتعالى، في وقت كان الله قد خوّله في التصرف الخيّر فيه، ولكنه أحجم عن التصرف وعكف عليه مكتنزاً له دونما فائدة. ولذلك فإن ربّنا العلي العظيم يسأل المؤمنين بهذا الصدد بقوله الكريم: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...**﴾ (الحديد/10) فالله أعطى المال وأعطى معه فرصة إنفاقه حسب ما يرتئيه هو، فلماذا هذا الإحجام مع العلم المسبق بزوال الحياة وانتهائها في يوم من الأيام؟ ومثل الإنسان في ذلك مثل راكب القطار، فهو إن نام أو استيقظ؛ قعد أو وقف، محكوم بالحركة على أيّة حالةٍ، فالقطار لا وجه لإيقافه بمجرد نوم المسافر أو يقظته، وكذلك المال لا يمكن تجميده بمجرد رغبة أنانية من الإنسان.

4- إن على الانسان - حسب الآية القرآنية- أن يبادر الى الانفاق، ليثبت جدارته بامتلاك المال أو سائر الإمكانات والطاقات منذ البداية، دون انتظار الآخرين وما يفعلون. إذ المسألة ليست مسألة مباهاة أو رياء أو حسد، حيث يريد البعض من المنفقين التأكّد من مقدار أو نوعية ما أنفقه الآخرون؛ فالخير لا يستوعب مثل هذه الألاعيب التي تتنافى ونية الخير والإحسان والنظر الى الأفق الأعلى، وقد قال سبحانه وتعالى بهذا الصدد: ﴿**لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ**

الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد/10). فحقيقة هذا التقسيم تعكس بصورة مباشرة حقيقة النوايا والأعمال.

5- قبل أن ينفق المرء شيئاً معيناً في سبيل الله، عليه أن يعرف بأن ما ينفقه لن يذهب عبثاً؛ فسبيل الله يختلف عن السبل الأخرى، بل وأبعد من ذلك بكثير، ففوق أن يحفظ الله للانسان ما أنفق، فهو ينميه وينميه على حد كرمه اللامتناهي، وقد قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد/11) والأجر الكريم هنا قد يكون كما تشتري البضاعة فتعطي بائعها الثمن، فتراه يعطيك زيادة ويشكرك فوق ذلك، فالله هو المعطي وهو الشاكر.

وثمة ملاحظة أخرى في هذا المجال، وهي أن الفقهاء وبعض المفسرين إذا كانوا قد استفادوا من هذه الآية بالذات واستنبطوا منها أحكاماً وآراءً في موضوع القرض، فان هذا لا يعني حصر البحث فيه فقط، بل إنني على قناعة تامة بأن القضية المهمة التي تريد الآية الكريمة معالجتها هي قضية الإنفاق في سبيل الله، وقد يكون أحد وجوه هذا الإنفاق هو مساعدة الآخرين ومنحهم القرض، دون أن يكون موضوع منح القرض هو المفهوم المطلق للآية الكريمة، لا سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار قول الله تعالى: ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ أي أن الإنفاق بمفهومه الكلي بمثابة قرضٍ يقرضه الانسان لله تعالى. وعلى أيّة حال، فان من يريد أن ينفق شيئاً ما، عليه أن يعرف لمن ينفق وفي سبيل من ينفق، فإذا عرف أنه ينفق لله وفي سبيل الله، فعليه الاطمئنان بأن الحسابات الإلهية تختلف عن المحاسبات الأخرى بما لا عدَّ ولا حصرَ له.

6- إن الله سبحانه وتعالى يؤكد -عبر الآية التالية- بأن الانسان في يوم القيامة بحاجة الى النور، تبعاً للظلمات التي تغلّف حركته منذ البعث الى الوقوف في ساحة المحاسبة والعدل الإلهي؛ فترى الناس يتساقطون لأنهم لا

نـور لهم، ولكـنّ أحد ضمانات عدم السقوط في الظلمات الأخرويـة، وأحد ضمانات التمتّع بالنور الإلهي هو الانفاق في الدنيا؛ بمعنـى إن إنفاقك في الدنيا هو نورك في يـوم القيامة، حيث يقول تبارك وتعالى في وصف حال ومعيشة المنفقين في الدار الآخرة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الحديد/12).

إذن؛ فإن جزاء الانفاق هو الأجر الكريم، ونور الله، وجنات تجري من تحتها الأنهار، والخلود في تلكم الجنان، بالإضافة الى البشرى والرضوان الأبديين.

ولكن الذين لم ينفقوا في سبيل الله وخرجوا عن أوامره، حيث أبطنوا الأنانية وحب الذات وأظهروا في وجوههم وعلى ألسنتهم فقط حب مجتمعهم، وهم الذين يسميهم الله عز وجل بالمنافقين، تراهم في ذلك يلتمسون بذلٍّ قاهر النور من المؤمنين ليروا مواقعهم، غافلين عن أنهم قد حكموا من قبل الله تعالى بحصار العذاب الدائم، إذ يقول سبحانه بهذا الخصوص: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد/13) فهم لا يرون إلاّ الظلمات؛ أي طبقات الظلام، وذلك لأنهم اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا ظلمات البخل والحرص والطمع والأنانية وحب الذات، فيأتيهم نداء المؤمنين إذ ذاك أن ارجعوا إلى دنياكم فلعلكم ترون نوراً ما في أنانيتكم، ولكن ما من نور يرجى أو يذكر!!

إن هذه وغيرها من تعاليم القرآن الكريم إنما تشير الى حقيقة وضرورة أن يأخذ الانسان نوره وزاده الأوفى من دنياه الى آخرته، وإن من الخطأ التسويف، حيث يحرص البعض منّا الى الانكماش على أمواله وامكاناته

والنعم التي أنعم الله بها عليه، ومن ثم يوصي بأن يفعل عنه الخير بعد مماته، متجاهلاً ضرورة حب الخير والمبادرة الى الصالحات وعدم التنعّم والإحساس بلذة القيام بالعمل الصالح.

7- والله سبحانه يدفعنا الى سبر أعماق الهوى، حيث يتبين لنا بذلك كيف يدفع هذا الهوى بالإنسان الى اختلاق المعاذير والبحث عن التبرير حتى ينتهي به الأمر الى النفاق، فيقول عز وجل: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (الحديد/14).

فأن يصيب الإنسان نفسه بالمهالك، وأن يتربّص بها الدوائر ويخطط لتدميرها بجهل أو تجاهل وغباء، وأن يرتاب بالحقائق الناصعة وبالتجارب التاريخية والاجتماعية الثابتة، وأن يتملّكه الغرور فيتشبث بالأوهام، كل ذلك يحوله الى كائن تافه، وتلك جريمة لا تغتفر، وليس لها من جزاءٍ سوى العذاب.

وبعد كل ذلك؛ لابد من الإشارة مرة أخرى الى ضرورة أن يعي الواحد منّا حكمة وأهمية الإنفاق -الإنفاق الذي يصلح أن يكون قسيماً لأنعم الله- حيث يعني تقاسم الثروة والإمكانات بالعدل والإنصاف، ويعني أن تحترم الآخرين فتعطيهم حقّهم وتنصفهم من نفسك، ويعني أن تدلّل على أنك أقوى من قيود الأنانية، وأنك موجود تعي مسؤوليتك العظمى في الحياة الدنيا.

# التسابق الى الخيرات وسيلة النجاة

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران/132-136)

هناك قيمتان أساسيتان لابد أن يحققهما الانسان بصورة خاصة، والمجتمع بصورة عامة حتى يحظيا بالكمال ويتساميا الى حيث يريد الله؛ القيمة الأولى: قيمة الصلاح والاصلاح، والقيمة الثانية: قيمة الاستباق والسرعة والبحث الدائم نحو التطور.

ففي البدء؛ لابد أن تكون الحركة ضمن المسار الصحيح الذي ينتهي الى نقطة الهدف المحدد، ومن دون الاهتداء الى الطريق المستقيم فان سرعة الحركة لن تنتهي إلاّ بمزيد الابتعاد والانحراف عن الهدف المرجوّ. ولذلك نجد ربنا العلي العظيم يؤكد بأن الصالحين هم الوارثون للأرض، لأن الصالحين هم الجهة الوحيدة القادرة على تمييز الخير عن الشر، والصواب عن الخطأ.

ففي الوقت الذي تتعدد وتتفاوت فيه الآراء والنظريات فيما يخصّ قضية الحكم أو البقاء أو ما يسمى حديثاً بنظرية حافّة التأريخ، تؤكد المدرسة الاسلامية بأن البقاء للأصلح وليس للأقوى أو لهذا العنصر وذاك المذهب على وجه الحتم، كما توهمته بعض المدارس الغربية خصوصاً.

فلمّا كان الله سبحانه وتعالى هو المبدع لخلقة الانسان ووجوده، يكون من الجدير الاعتقاد بأنّه هو الجهة الوحيدة التي لها حق التشريع ورسم الواجبات والأخلاقيات التي من اللازم على البشرية التحلّي بها. وكذلك الأمر بالنسبة لعموم الحركة الاجتماعية والتاريخية، فكانت سنّة الله عز وجل أن يورث الصالحين الملتزمين بتعاليمه حكم أرضه وشريعته، لأنهم أحرزوا في أنفسهم جميع عوامل البقاء. فالأصلح - على هذا الأساس - لديه عوامل القوة المعنوية والمادية، في حين إن الأقوى لم يكن أقوى إلاّ على أساس وحدات القياس المادية؛ والعقل من طبيعته التصويت الى من يحرز أفضل نوعية وكمية من صفات البقاء. ولنفترض أن رجلاً ملاكماً قوي الجسد ضخم الجثة ولكنه مصاب بداء السرطان، وإلى مقابله يقف رجل معافىً من الأمراض رغم كونه لا يتمتّع بما يمتاز قرينه المشار إليه من ضخامة الهيكل واستفحال العضلات. فذاك أقوى، وهذا أصلح؛ فمن منهما ستكون له الكلمة الأخيرة يا ترى؟ بالتأكيد سيكون البقاء للأصلح؛ إذ الأقوى كان مصاباً بالفساد، فكان عرضة للفناء والتلاشي في كل لحظة.

ومن هذا المنطلق قال تبارك وتعالى: ﴿**يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾ (البقرة/276) نظراً الى أن الربا - وهو مضاعفة الثروة على أساس الجشع والاستغلال الحرام- محكوم بالفناء، بينما الصدقات كان محور انطلاقها من النية الخالصة لله ومساعدة من يستحق المساعدة والعون؛ فأين هذا من ذاك؟

وربنا العزيز الحكيم كان قد خلق الناس ليعرف أيّهم أحسن عملاً، وليس ليعرف أيّهم أكثر عملاً. إذ المناط هو النوع دون الكم بالدرجة الأولى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "عمل قليل في سنّة خير من عمل كثير في بدعة".[1]

إذن؛ فإحدى أهم قيم الدين الأساسية هي قيمة الصلاح والإصلاح؛ أي قيمة إحراز الدين وهجران البدع والضلالات والفرار من مكائد الشيطان والهوى، حيث يدفعان بالمرء الى أداء العمل على أساس الرياء والمصلحة الذاتية والغرور واعتزال الصالحين...

القيمة الثانية؛ وهي الاستباق والسرعة والبحث الدائم نحو التطور والرقّي، فقد عبّرت عنها الآية القرآنية الكريمة بالقول: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾ (البقرة/148) وكذلك قالت آية قرآنية كريمة أخرى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقد فاضت على لسان الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الحكمة المتعالية، حيث يقول فيها واصفاً أهمية المسارعة الى الخير: "ساع سريع نجا، وطالب بطيئ رجا".[2] والنجاة ليست بالضرورة أن تكون حكراً على الآخرة، بل من الطبيعي أن تقاس على أمور الدنيا، فيتم ضمنها بناء النفس والمجتمع والحضارة. أمّا الفرد الصالح غير المسارع في تفعيل صلاحه، فيتردد أو يشكك أو يصاب بالكسل والخمول في اتخاذ القرارات المناسبة والخطوات المناسبة في المكان المناسب والزمان المناسب، فلا يمكنه الحصول على ما يبتغيه، كما لا يمكن وصفه إلاّ بما وصفه الامام علي

(1) بحار الأنوار، ج2، ص261.
(2) المصدر، ج67، ص12.

عليه السلام بأنه لايعدو أن يكون فرداً راجياً ومتمنّياً للصلاح دون أن يكلّف نفسه عناء الجدّ والاجتهاد.

وهذه البصيرة القرآنية - الإسراع في فعل الخير - تبدو آثارها جلية للغاية بالقياس الى ما نراه من تطور اقتصادي ومدني هائلين تمتاز بهما الشعوب الغربية أو المدنية اليابانية على وجه الخصوص. في حين إن غالبيّة شعوبنا المسلمة قد تغافلت عن وعي والتزام هذه البصيرة؛ الأمر الذي كلّفها الكثير وعرّضها لمزيد من الخسائر في الزمن والطاقة والأفراد، فضلاً عن انعدام التقدم والسيطرة وطيب السمعة بين شعوب الأرض، حتى ترى الانسان الغربي فور تعرفه على إنسان مسلم أو شرقي عموماً يتبادر الى ذهنه أنه كائن خامل كسول لا ينظر الى غده ولا يحسب حساباً ما لمستقبله.

ومهما يكن؛ فالانسان المؤمن الواعي لحقيقة التعاليم السماوية لا يمكن أن يكون فرداً خاملاً بطيئاً الى فعل الخير والتطور، فمن كثر نومه كثرت ندامته يوم القيامة، وكثرة النوم - كنموذج صارخ للكسل والخمول - إنما هو تعبير مباشر عن خمول الروح ومغادرة الايمان والجزع من تقلبات الحياة. وعلى هذا كيف يمكن للفرد المؤمن أن يطيل من نومه وكسله، وهو يعرف كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: "إن الله تعالى يقسم الأرزاق ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس" [1] بل كيف يكون المجتمع المسلم خاملاً، وقد ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "بورك لأمّتي في سبتها وخميسها"؟ [2]

(1) بحار الأنوار، ج13، ص182.
(2) المصدر، ج56، ص36.

وهذا يعني أن بركة الله على عباده تتنـزل في مطلع الاسبوع، حيث التخطيط وتنظيم الخطط والأعمال. وأنّ التبكير في الاستيقاظ، يعني التبكير الى طلب الرزق ضمن تصميم واعٍ لمتطلبات الحياة.

وهكذا كانت شخصية أمير المؤمنين عليه السلام مصاغة على هذا الأساس، حيث كان يعتقد - ومراراً كان يعرب عن هذا الاعتقاد بصيغ شتى - بأنه إن نام نهاره ضيع حق الناس، وإن نام ليله يكون قد ضيّع حقّ نفسه في العبادة والتوجّه الى ربه. كما كان يوصي ابنه الإمام الحسن عليه السلام بقوله الشريف:" ولا تنم ليلاً ولا نهاراً إلاّ نوماً غراراً"؛ أي ليكن النوم عبارة عن غفوة بسيطة، أو كمضمضة الفم بالماء.

وثمة قضية أخرى بالغة الأهمية والخطورة، وهي أن تعاليم الشرع قد أكدت علينا -نحن المسلمين- بأن من أول ما يحاسب عليه المرء يوم القيامة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع؛ عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت".[1] حيث يستدعي - فيما يستدعي- أنّ كل إنسان عليه من الواجبات والحقوق تجاه نفسه وتجاه الآخرين، كما أنّ له مثل ذلك بالمعروف؛ فكيف يتمّ التوفيق بين هذا وذاك في ظل سيطرة الكسل والخمول، أو الانسياق وراء التفاهات ولغو الحديث؟

إنّ عمر الانسان في الحياة الدنيا يعني مجموعة أعماله التي يقوم بها، والكسل لا يلد سوى التردد، ومن ثم الجبن والخوف والهلع في شخصية وكيان الانسان، وبالتالي الامتناع عن أداء الحقوق والواجبات.

ولعل من طريف ما سُئلت، أنّي سئلت في مجلس علمائي عن الدليل الشرعي القرآني على حرمة الغناء والرقص والموسيقي والدفّ، وفي أيّة آية

---

(1) بحار الأنوار، ج7، ص258.

وردت هذه الحرمة؟ فأجبت بالقول: إنني أسألكم عن الدليل القرآني على حرمة لحم الكلب؟ فأُجبت بعدم وجود آية قرآنية تشير الى ذلك. ثم سألت: في أيّة سورة قرآنية ورد تحريم ضرب اليتيم، مثلاً؟ فكانت الإجابة بالنفي. وعند ذلك أكدت بأن القرآن يقول بوجوب اجتناب الخبائث والرجس والنجاسات، والعقل يؤكد من جانبه بأن الكلب أحد هذه الخبائث، فكان الواجب اجتناب لحمه. وكذلك الحكم بالنسبة الى ضرب اليتيم، حيث أمرنا الله بعدم الظلم والعدوان، فكان توجيه الإهانة لليتيم ظلماً، كاستنتاج عقلي سليم. فالموضوع يحدّده العقل، والحكم يصدره الشرع.

وفيما يخصّ حرمة الغناء والرقص، فأقول إنّ القرآن الكريم وصف المؤمنين قائلاً: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمِنون/3) ولا يعدو الغناء أو الرقص أحد مصاديق اللغو واللهو عن ذكر الله.

وأعيد مؤكداً بأن ما من أمّة تقدّمت في المدنية وبناء الحضارة حتى كانت قد هجرت الخمول ولبست لباس الهمّة والنشاط؛ وأبرز مثال على ذلك الواقع الياباني، حيث تحكم هذه المجموعة الصغيرة القاصية معظم الاقتصاد العالمي، رغم افتقارها الى الثروات الطبيعية بشكل ملفت للنظر، ورغم أنّ الارض اليابانية مركز للزلازل والبراكين، وقد ورد في آخر إحصائيات الأمم المتحدة بهذا الخصوص بأن العامل الياباني يعمل سبع ساعات يومياً، في حين ترى نظيره العراقي - مثلاً - لا يعمل في يومه الكامل سوى خمس عشرة دقيقة، أما الانسان الكويتي فلا يكلّف نفسه عناء العمل- على بساطة نوعيته وتفاهة منتوجه - إلاّ في مدّة لا تتجاوز السبع دقائق!! ومن الغريب في الأمر أنّ الشرطة اليابانية عمدت - ضمن قرار صادر من وزارتي العمل والداخلية - الى معاقبة مدراء المصانع بالسجن إذا ما رُصدوا يعملون بعد انتهاء مدة العمل الرسمية المقرّرة، نظراً إلى أنّ مراكز الصحة اليابانية

أعلنت أنّ من سبب تصاعد نسبة الوفيّات في اليابان يعود الى كثرة العمل والارهاق الحاصل من جرّائه!..

إن الافكار السلبية والوساوس الشيطانية والمعاذير الباطلة وعوامل التثبيط واللغو، كلها عبارة عن مصطلحات لا تجد لها متّسعاً في قاموس وحركة وطبيعة الانسان المؤمن؛ الذي يعرف أنّه مطالب بإصلاح ذاته والإسراع الى فعل الخيرات، وبناء الحياة، فضلاً عن معرفته بأن وراءه حساب وكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها.

أما غير المؤمن؛ فهو بليد الإحساس جامد العاطفة، يرى عِبَر حياته فلا يتأثر، ويرى الناس يموتون من حوله ولا يطرف له جفن، وكأنه ليس المعنيَّ بها، ولكنه لن ينتبه الى واقعه حتى يواجه بملك الموت، حيث يتحسر ويتحسر، فيطلب الفرصة والعودة الى القيام بالعمل الصالح، ولكن كلاّ؛ فهي كلمة هو قائلها، ولات حين مندم ومناص، ولا أحدثكم عن حسرته يوم القيامة، فذاك حديث تقشعرّ منه الأبدان وتلوى عنده الرقاب وتكمم فيه الافواه. وأكثر من ذلك، فإن الحسرة في يوم القيامة ستشمل المؤمنين أيضاً، حيث سيغتمون طويلاً إزاء ما فرّطوا من أعمارهم ولم ينجزوا المزيد من أعمال الخير، فتراهم يتحسرون على المنازل الرفيعة التي حصل عليها من هو أفضل منهم.

وحينما يأمر القرآن الكريم أتباعه بالاسراع الى الخير والمغفرة، فانه يفصل في المقطع المبارك اللاحق ثواب هذا الإسراع، وإن المؤمن ينبغي أن يعتقد بأنه حريّ وجدير باستحقاق الجنّة التي عرضها السماوات والأرض التي أعدت للمتقين.

المتقون الذين ينفقون في السراء والضراء، دون الالتفات الى مقدار ما يملكون، أو نوعية الظرف الزماني أو المكاني الذي فيه ينفقون. فالله أوسع

من الزمان والمكان، وهكذا هو تطلع الانسان المؤمن، حيث لا تحده الحدود ولا تقف دونه العقبات، بل هو كائن معطاء في كل الظروف، تخلّقاً بأخلاق الله تبارك وتعالى.

وهم أيضاً كاظمون للغيظ، عافون عن الناس، فهم بعيدون عن الأحقاد وتفاهات الحياة، ويعرفون كيف يعالجون مشاكلهم، تبعاً الى أنّ قلوبهم مليئة بحب الخير والمسامحة، فإذا كانوا يطلبون المغفرة من ربهم الرؤوف الرحيم، فلماذا لا يقلّدون ربهم ويكدحون إليه في حبّ الآخرين وغفران السيئات وتعميم بركاتهم على غيرهم، وإن كانوا هم المحقين.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أي إنهم يتداركهم الاقرار بواقعهم وكونهم مجرد أناس معرضين للخطأ والزلل، وأنهم لا يمتلكهم الغرور والعزة بالإثم، وذلك انطلاقاً من طبيعة تربيتهم وقناعاتهم الدينية الحميدة.

وعوداً على بدء؛ لابد من التأكيد على ضرورة توجه المؤمنين نحو أن يكونوا الطرف الفاعل والمؤثر في مجتمعهم وفي شتى الظروف والتقلبات. فالله يكره للعبد أن يكون كلاًّ على غيره، بل من المهم جدّاً أن يضاعف من مبادراته نحو الخير والعزّة والقوة...

# آيات لكل صبار شكـور

قليل من الناس هم الذين يستمعون إلى الموعظة ويستثمرونها آخذين العبرة منها، وخصوصاً تلكم المواعظ والعبر التي تكمن في آيات الله تعالى الكثيرة التي اتّسعت لها الآفاق، وتوغّلت الى الأعماق؛ فمن هم أولئك المتّعظون المعتبرون الذي يتمتّعون بقابليّة معرفة تلك الآيات العظام؟

لقد بيّن لنا القرآن الكريم مواصفات هؤلاء الأشخاص الذين يوفّقون إلى اكتساب هذه المعارف الراقية السامية المتعلّقة بآيات الله سبحانه، حتى وصف أحدهم بصفتي الصبّار والشكور، الذي يفهم ويدرك طبيعة تلك الآيات ويعتبر بها في حياته الدنيا. فهم يقتبسون من النور الإلهي المنبعث من جنبات القرآن الكريم، ويستلهمون من روح الآيات المفعّم بالحق والخير؛ فهم في ذروة الصبر، وقمة الشكر.

**السبيل إلى معرفة آيات الله**

وهنا نعود للإجابة على السؤال السابق الذي يمكن أن نطرحه بصيغة أخرى هي: كيف نرتفع إلى درجة تلقّي آيات الله تعالى ومعرفتها؟

إنّ المسألة ليست بالهيّنة – كما قد يتصوّر ذلك البعض- فليس كلّ إنسان بقادر على أن يتلّقى ويستوعب مغزى تلك الآيات، ولذلك كان لابد من بيان فكرة تكون الحجر الأساس الذي نبني عليه الموضوع، وهي إن الناس في هذه الدنيا بكل ما فيها من زخارف وزينة، وما يكتنفها من شهوات وملذّات

على قسمين؛ قسم يسخّر الدنيا ويسيطر عليها ويمسك بزمامها، وقسم آخر تأخذ الدنيا بزمامه وتسيطر عليه.

**تعامل الناس مع الدنيا**

والقسم الأول يمتلك الدنيا في حين أن القسم الثاني تمتلكه الدنيا، فتراه يقضي حياته ويخوض غمارها في دوامة من العمل والإجهاد، فيكدّ ويكدح ليل نهار، ولكنه يفتقر الى الراحة والسعادة. صحيح إنّه قد جنى وقطف الثمار، ولكنّه يبخل على نفسه وعياله، ويأمر بالبخل؛ فهو يجمع تلال الأموال، وعندما تسأله: لأي شيء تدّخر كل هذه الأموال، وماذا تريد من هذه الدنيا؟ فانّه لا يجد جواباً، لأنه مسخّر للدنيا بدلاً من أن يكون مسخِّراً لها. فالله سبحانه وتعالى خلق كل شيء في هذا الكون الرحب، من شمس، وقمر، ونجوم، وأرض وما فيها من حقول، وسهول، وأودية، وبحار، وأنهار.. للانسان لتكون في خدمته.

وللأسف فانّ الأمر قد انعكس عند الغالبية العظمى من الناس، فبدلاً من أن يسخّروا منافع وفوائد الدنيا، وبسبب انجذابهم إليها، وانبهارهم بها أضحوا آلات وأدوات مسخّرة لها، فصاروا عبيداً لها.

**انموذج التعلّق بالدنيا**

وعلى سبيل المثال؛ فانّ أهل اليمن كانوا يطلقون على بلادهم اسم (اليمن السعيد) لكونها بلاداً خضراء يانعة تمتّعت بحضارة وزراعة مزدهرة الى درجة أن الواحد منهم كان – عند احتياجه للفاكهة مثلاً – يضع سلّته على رأسه، ويمشي ما بين الأشجار فتتساقط عليه الفاكهة لتمتلئ سلّته(!). ولكن ما الذي حدث بعد ذلك لأهل هذا البلد السعيد، هؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم، ويصف ترفهم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ (سبأ/15) فالمناطق الزراعية عادة ما تكون في أطارف المدن،

ولكن الحال بالنسبة الى أهل سبأ كان يختلف؛ فقد كانت المزارع الخضراء، والبساتين اليانعة تحيط بمساكنهم منتشرة داخل مدنهم، فكانت الأرزاق تنهمر عليهم، والله سبحانه يدعوهم أن يتمتّعوا بتلك الطيبات، لأنها خلقت لأجل نفع الإنسان، كما يشير الى ذلك قولـه عـز من قائـل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (الاعراف/32).

فالإنسان المؤمن هو الذي يعرف كيف يستثمر الرزق دون أن يسرف فيه، والله سبحانه كما دعاهم الى التمتع بهذه النعم الطيبة، فانه دعاهم أيضاً بان يـؤدّوا واجب شكر النعم. قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ (سبأ/15) فشكر النعمة يسمو بالإنسان الى ما فوق هذه النعمة، وعندئذ يدرك أنها لا تعود إليه بحدّ ذواتها، بل هي من الله تبارك وتعالى، فهو الذي وهبها، وهو الذي جعلها تتحوّل في جسم الإنسان الى طاقة بناء فتعطيه الحيويّة والنشاط، وهو – في نفس الوقت – قادر على أن يحوّل النعمة الى نقمة.

وخلاصة القول؛ لابدّ لنا من أن نشكر النعم الإلهية، فمن خلال شكرها تكون هذه النعم مصدراً للخير والبركة وفي متناول أيدينا، وبدون أداء الشكر تتحوّل هذه النعم الى نقم.

ثـم يقول الله سبحانـه واصفاً لتلك الحضـارة: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ/15) فما أحلى تلك الواحة الخضراء، وأعذب مياهها، علماً أنّ الماء هو أصل الحياة، وأن الطين أصل الوجود الإنساني، والكيان الحضاري، فالماء لا يمكن الاستغناء عنه أبداً، وهو ليس وقفاً على الزراعة فحسب كما قد يتبادر الى أذهان البعض، بل إنّ كل شيء في هذه الحياة يتوقّف وجوده على الماء.

والإحسـاس بالوجود الإلهي، والتوكل على الله سبحانه، يبعثان همـا - الآخران- الطمأنينة في قلب الإنسان، وبذلك يصبح هذا الوجود والإحساس

به نعمة من النعم التي لا تضاهى ولا توازيها نعمة أخرى، وعلى سبيل المثال؛ فان الإنسان الفقير المحتاج ينعم ويطمئن بإحساسه أنّ الله جل وعلا معه مادام يتوكل عليه، وأنّه كفيل بأمره، مدبّر له، ويهيّء له الرزق الكريم عندما ينهض متوكلاً عليه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "نعم العون على تقوى الله الغنى".[1] فالذي يمتلك نعمة لا يمدّ يده الى الناس، ولا يجعل من نفسه إنساناً متذمّراً ذا عقد نفسيّة، ومن ثم تراه إنساناً متوازناً ذا أخلاق سامية يحبّ الخير للناس ويتمنّاه لهم، ولا يحسدهم على ما أنعم الله عليهم، ويخدم نفسه وعائلته، وفي نفسه الوقت يؤدي الخدمة للآخرين.

**شكر النعمة**

والذي يقدّر النعمة الإلهية، ويحسّ بها في كل أنحاء وجوده ويشكرها، فان الله تقدّست أسماؤه لابد أن يغفر له ذنوبه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ في حين إن الذي يشعر دائماً بالفقر، ويتجاهل النعم الإلهية فضلاً عن أداء الشكر لها، بل وينكرها في بعض الأحيان، فإن فقره سيكون هو الفقر الحقيقي الذي يتمثّل في خسارة الدارين، لأن الإحساس بمثل هذا الفقر يؤدي بالإنسان الى سلك السبل الملتوية المحرّمة كالسرقة والاحتيال والابتزاز والاحتكار والاستغلال والرشوة والكذب والكثير من الآفات الاجتماعية والاقتصادية. وقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر".[2] فالنعمة – إذن- مطلوبة مادامت في متناول اليد، وتحت سيطرة الإنسان، وهي مستمرّة إلى ما شاء الله سبحانه مادام الشكر يؤدّي لها، لأن النعمة والشكر عليها متلازمان.

---

(1) بحار الأنوار، ج74، ص153.
(2) المصدر، ج69، ص29.

وهكذا كان حال أهل اليمن، تلك البلاد السعيدة الخضراء، ولكنّهم عندما أهملوا الشكر، وانغمسوا في الطغيان كما يشير إلى ذلك ربنا عز وجل في قوله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ (سبأ/16) فانّ الله سلّط عليهم ما أذهب به لتلك النعم، وتلك الجنان الخضراء الوارفة الثمار والظلال. وكما جاء في التفاسير فانّ الفأر - هذا الحيوان الصغير – صار هو آفتهم التي دمّرت وأزالت تلك النعمة، أو ربّما كان سبباً في إصابتهم بالأمراض التي فتكت بهم، فلم يعودوا يشعرون بلذّة النعم.

**عاقبة كفران النعم**

وتذكر الروايات أنّ الفئران فعلت فعلها في السد التأريخي المعروف بسدّ مآرب، فأخذت تقرض الحبال التي كانت تشدّ الأحجار والصخور في الموسم الذي يقلّ فيه منسوب المياه، مما أدّى إلى هدم ذلك السدّ، وارتفاع منسوب المياه، وحدوث ذلك السيل العرم الذي أهلك الكثير من المزارع والبساتين، وعمل على تدمير تلك الحضارة، كما يروي لنا ذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ (سبأ/16) وكانت النتيجة أنّهم لم يجنوا من طغيانهم وكفرانهم للنعمة سوى مجموعة من أعشاب وأشواك لحيواناتهم، وقليل من الاثل والسدر كما يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ (سبأ/16-17).

فالله جل وعلا يحبّ عبده المؤمن المطيع له، لأنه خلقه للرحمة لا للنقمة، وهو – سبحانه- لا يستوفي منه ما أعطاه من نعم وما وهبه من اللطف والرحمة. فهو غنيّ كريم، بل إنّه – تعالى – يمسك يده عندما يكفر الإنسان بالنعم، ولذلك يقول عزّ من قائل: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ وهو كما الذي لا

يشكر النعمة، ولا يعرف قدرها، فيطغى ويسرف، وينحرف عن جادة الصواب، وسبيل الخير والمعروف.

ثم يضيف السياق القرآني الكريم قائلاً: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً ءَامِنِينَ﴾ (سبأ/18) فلقد كانت لتلك المناطق الشاسعة الممتدة ما بين اليمن ومكة المكرّمة مزروعة، تغطّيها الحقول والبساتين، وكانت الحياة قائمة فيها على قدم وساق، والناس في رغد وعيش هنئ، ونعيم وافر، ولكنّهم عندما غفلوا عن الشكر وأخذوا يكفرون بالنعم بدلاً من شكرها، ولبسوا ثوب الطغيان والإنحراف، فانّهم قد ظلموا بذلك أنفسهم، وأصبحوا أمثولة للتأريخ، تلاحقهم اللعنات الى يومنا هذا، كما يشير الله تعالى الى ذلك في قولـه: ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ/19).

**دروس وعبـر**

ثم يقدّم لنا القرآن الكريم الدروس والعبر من هذه القصة في قولــه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ/19)؛ أي ذلك الإنسان الذي يصبر على ما يصيبه من المصائب والآلام والمتاعب، ويشكر الله تعالى على نعمه، ولا شأن له بما يمتلكه الآخرون، بل يتمنّى لهم الخير والبركة. وهذا هو الإنسان الصبّار الشكور، لا ذلك الإنسان الذي تطمع نفسه بما عند الغير، فتراه قد يمتلك كلّ أسباب الراحة والعيش الرغيد ولكنه يتطلّع بحسد الى النعم التي أنعم الله تعالى بها على الآخرين. فتراه يرهق نفسه ويتعبها، ويعيش عقداً شتّى، وربما يعطيه الله بعد فترة من الزمن ولكنّه لم يكن قد اعتبر بآيات الله جل وعلا، واستثمرها لراحة نفسه واطمئنانهـا، ترى أفلا يأخذ مثل هذا الإنسان بنظر الاعتبار أنّ مكروهاً ما لو أصاب عضواً في جسمه، وأحدث فيه الخلل والمرض والاعاقة فان حياته سوف تتحوّل إلى جحيم لا يطاق، فلماذا

يتغاضى هذا الإنسان عن أداء واجب الشكر في حياته؟ ولذلك كان من الأمور المستحبّة زيارة المرضى، وعيادتهم، لأن المريض يشعر بالاضافة الى مرضه الجسديّ بالآلام النفسية، وعندما تزوره وتقدم له هديّة فان تصرّفك هذا يمنحه أملاً جديداً، وشحنة إيجابية تدعم نفسيّته، وتزيل عنه ذلك الإحساس الكئيب. ولذلك جاء الاستحباب والتأكيد على هذه الآصرة الاجتماعية الإيجابية.

والجانب الآخر والمهمّ من هذه الزيارات يتعلّق بك أنت، فهذه الزيارة تشعرك بمدى ومقدار النعمة التي أنت فيها؛ نعمة الصحة، والراحة، والعافية من خلال رؤيتك عن كثب لأولئك الذي يفتقرون إليها، وتعرف - حينئذ- قيمة وقدر هذه النعمة الإلهية، فتؤدّي شكرها، لأن الذي ينظر في هذه الدنيا إلى من هو دونه، تراه يتمتّع دوماً بحيوية ونشاط، وذهنيّة فاعلة متفتّحة على الحياة.

وتأسيساً على ما سبق؛ يجدر بنا أن نكون نحن المسخِّرين للدنيا، والمسيطرين عليها، لا أن يحدث العكس فنصبح أسرى، وعبيداً لهذه الدنيا؛ بل يجب علينا أن نكون نحن المسخّرين للأموال والممتلكات، لا أن نكون خدماً لها، فتسيطر علينا وتقودنا. فليس كل ثروة نعمة، بل إن الكثير من الأموال والثروات تكاد تكون نقماً، إذا ما أساء الإنسان استغلالها، ألم يؤدّ فريضة الشكر عليها.

# شكر الله رأس الحكمــة

"الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراه إلاّ المرضى"..

في ظروف صعبة يعيشها الانسان بين أروقة المستشفيات لينقذ خلالها مريضه؛ فبعض الأطباء يوصي بإجراء عملية جراحية عاجلة، وآخر رأيه يختلف عن ذلك.. قلب هذا الإنسان يعتصره الاضطراب والألم والخوف، وبعد أن تجرى العملية بنجاح بعد أن كان المريض يعيش بين الموت والحياة، يطمئن صاحبه للشفاء الذي منّ الله به على مريضه فيحسّ بأهمية العافية التي كان يتمتع بها في اللّيلة الماضية.

وفي نهار قائض يصوم المؤمن ويكدح، فيكضه العطش والجوع، ويهيمن عليه الضعف والوهن حتى تقترب ساعة الإفطار، فتمد مائدة الطعام وعليها أصناف المأكولات والمشروبات، وحينما يمدّ هذا المؤمن يده الى لقمة طعام أو شربة ماء لا يسعه - إذ ذاك - إلاّ حمد الله وشكره، بعد أن تلمّس بالفعل ألم الجوع والعطش ونعمة الطعام والشراب.

ورجل آخر؛ مضطرب الحال، لا يعرف كيف يهرب من الطاغوت الظالم، فيبحث عن مخرج من مآزق أجهزة المخابرات، وبين عشية وضحاها يفتح الله تبارك وتعالى له ويفرّج عنه، فإذا به يجد نفسه في رحاب الأمن والحرية، ويحسّ بعظمة هاتين النعمتين.

... وكثيرة هي الأمثلة والمواقف التي تكتشف فيها النعم بعد طول غفلة أو تغافل، فيعود للمرء وعيه، فيعود بدوره الى فطرته غير الملوثة برجس الجهل وظلم النفس والتجبّر في الحياة.

أقول: لولا الظلام الذي يهيمن على الوجود في الليل، ما أحسّ أحد بأهمية النور وبسنى ضياء النهار. فمشكلة ابن آدم أنّ النعم التي تواترت عليه قد أذهلته عن حقيقته وعن وجودها هي أيضاً، علماً أن حقيقة الإنسان حقيقة عدمية، من منطلق أنّ كل نعمة من نعم الله عليه المحيطة به لا تمت بصلة به، بل هي فضل من الله تبارك وتعالى يؤتيها من يشاء ويسلبها ممن يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء.

لقد كان رسولنا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلّم يشكر ربّه في كل يوم ثلاثمائة وستين مرة، وكان يؤكد أنّ في جسم الإنسان ثلاثمائة وستّون عرقاً، وأنّه لو ضرب -أخطأ- عرق واحد من هذه العروق طريقة أدائه لمهمّته، فإن هذا الإنسان ستسلب منه العافية. وجاء في مناجاة الشاكرين للإمام زين العابدين عليه السلام: "إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طولك، وأعجزني عن إحصاء ثنائك فيض فضلك، وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك وأعياني عن نشر عوارفك توالي أياديك، وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء وقابلها بالتقصير، وشهد على نفسه بالاهمال والتضييع، وأنت الرؤوف الرحيم البرّ الكريم الذي لا يخيّب قاصديه، ولا يطرد عن فنائه آمليه، بساحتك تحط رحال الراجين، وبعرصتك تقف آمال المسترفدين، فلا تقابل آمالنا بالتخييب والاياس ولا تُلبسنا سربال القنوط والابلاس". [1]

ولكي يكون الإنسان جديراً بنعماء الله؛ عليه أن يعاود الكرّة أو الكرّات في متابعة حقيقة نفسه العدمية، ليذهب الى المستشفيات ليرى من خلال المرضى

---

(1) بحار الأنوار، ج91، ص146.

نعمة الصحة التي يتمتع بها، وليذهب الى المقابر ليلمس نعمة الحياة التي يعيشها وفرصة القيام بالعمل الصالح لإثبات إنسانيته، وليذهب الى السجون ليرى بأم عينيه عظمة الحرية التي يتلوع من أجلها السجناء ويتنعم هو بها... وليتابع بوعي وإصرار حقيقة الأحداث الجارية في البلدان حول بلده، ليتأكد بنفسه ما تعانيه شعوب العراق وأفغانستان وفلسطين وأغلب الدول الأفريقية من مآسٍ وويلات على الصعيد المادي، فضلاً عن الجانب المعنوي الذي أول ملامحه الجهل والظلم والتيه الحضاري.. بما للكلمة من معنى؛ بل ليلقِ نظرة على جيرانه ممن قد يضطرب للأخطار التي تداهمه أو الديون التي تعاجله أو الأمراض التي تؤلمه أو الأعزاء الذين يفقدهم... هنالك فقط يتلمس بمصداقية تامة حقيقة وجود نعم الله المحيطة به.

إن أهم صفة من صفات الفرد المؤمن أنّه يتمتع بالوعي والحكمة، حيث يعي ويستوعب استيعاباً حكيماً حقيقة ذاته؛ يعي أنّ نفسه عدميّة وليست وجوديـة، بدليل أنّ بعض الناس أو كثيـراً منهم يفتقـرون الـى الكثيـر من النعم والإمكانات رغم أنهم متساوون مبدئياً من حيث التكوين، والى ذلك أشار الإمام علي عليه السلام: "من عرف نفسه فقد عرف ربّه". ومن الطبيعي جداً أن يكون العارف بربّه إنساناً مؤمناً واعيـاً وحكيمـاً.

نرى عدداً من الناس يفتقرون الى عدد من النعم، مما يعرضهم الى خسائر فادحة على مختلف الأصعدة. وقد يكون هذا الافتقار نابعاً ممّا جنوه هم على أنفسهم، وقد يكون أساسه تقديراً أو قضاءً إلهياً؛ الحكمـة فيه يعلمها الله، من قبيل الابتلاء لإثبات الصبر والايمان بقضائه وقدره، كما هو الأمر بالنسبة الى وجود النعم نفسها، حيث من الممكن والطبيعي جداً أن يبتلي الله جل شأنه الإنسان عبر التفضل عليه بهذه النعمـة أو تلك.

وفي الوقت الذي لا نرى من أكثر الناس أية ردود أفعال إيجابية تجاه تمتعهم بالنعم الوفيرة، نرى المؤمنين يحسنون استغلال كل نعمة ينعم الله بها عليهم، وفي مختلف المواقف والمناسبات. أما الإنسان الذي لا يتلمس النعم التي أنعم الله عليه ولا يستفيد منها استفادة واعية وحكيمة، فإنه محكوم بجهل حقيقة نفسه، وبالتالي فهو معرض في كل لحظة من لحظات عمره لأن يكابد العذاب ولأن يعيش عيشة ضنكاً. فهو يعتقد بضرورة أن يكون كل شيء بالنسبة له مناسباً، ويتصور أن وجوده في الحياة بمثابة كونه ضيف شرفٍ، يأكل ويشرب وينام دون أداء مهمة ما؛ إنّه يتوقع أن تكون حياته حياة محترمة الى أبعد الحدود دوماً... وهو حين يلتفت في لحظة من اللحظات الى بعض النقص، أو الى زوال بعض النعم، يهيمن عليه الانزعاج، وهذا الانزعاج يتصوره عذاباً أليماً، أو هو بالفعل يتحول الى عذاب أليم يخرجه عن المسار والطور الطبيعي له كإنسان.

وعلى الضفة الأخرى يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ فكيف يا ترى يعيش الانسان مثل لقمان الحكيم؟

ويجيب تبارك وتعالى على لسان لقمان في معرض إرشاداته ووصاياه لابنه بالقول المبارك: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

فالشكر إذن هو عنوان الوعي والحكمة، والشكر لله إذا ما قسمناه وحللناه نجده مبنياً على أساس معرفة الإنسان لنفسه معرفة حقيقية. فمن يدرك منّا أنّه لم يكن ثم كان، سيتّضح لديه أكثر بأن الله سبحانه وتعالى قد أنعم عليه بنعمة الوجود، وفي ذلك الفرصة الأكبر لإثبات ذاته ولتأكيد جدارته بأن يكون المخلوق المفضل من بين سائر المخلوقات الأخرى، وبالتالي يكون الأجدر بدخول الجنان الخالدة والاستظلال بظلال الرضوان الإلهي.

وهناك الكثير من النعم التي تلي نعمة الوجود، كنعمة حنان الأم على طفلها، أو لنقل نعمة تسخير الله تبارك وتعالى للأم لإيلاء طفلها مزيداً من الحنان، الذي لولاه لما أصبح الطفل سوى كائن معقد غريب المزاج والأطوار.

وفي مقابل روعة وعظمة أن يعرف المرء حقيقة نفسه العدمية، وأن لا يتكبر على تعداد نعم الله عليه، وأن يشكر الخالق عليها قولاً وفعلاً، في مقابل ذلك يقف الشيطان الرجيم ونزعات النفس الأمّارة بالسوء متربصين للحيلولة دون تمكن الإنسان من السمو والارتفاع بايمانه ومعتقداته وعقليته. فالشيطان من طبيعته أن يوسوس ويثير ويشعل نار الحقد والعصبية والأنانية في قلب من لم يتوصل الى معرفة حقيقته العدمية تجاه من يتمتع ببعض النعم، وإن كان مطمئناً ومتأكداً من عدم ديمومتها. ولذلك فهو يعيش واقع الجهل المركّب، حيث يورط نفسه في العذاب النفسي دون شعوره بذلك، أو أنّه يشعر به ولكنه لا يتصور تأثيراته عليه، أو لا يريد تصور ذلك!

في حين إنّ الانسان المطمئن السوي العالم بحكمة ربّه في تقدير أرزاق الخلائق، الحكيم في نظرته الى الوجود، تراه متطلعاً الى ما عند الله لا الى ما يتمتع به الآخرون، راضٍ بما يرضاه له الربّ الوهاب. فهو يدعو كل صباح بالدعاء المأثور عن الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام: " يا من أرقدني في مهاد أمنه وأمانه، وأيقظني الى ما منحني به من مننه وإحسانه، وكفّ أكفّ السوء عني بيده وسلطانه..." (1)

الفرد المؤمن حيث تشبّع بالبصائر القرآنية لا يرى انفصالاً بين الشكر والصبر، فهو إذ يشكر الخالق على ما أنعم عليه يكون قد صبر على استمرار وعيه وحكمته؛ وهو إذ يصبر على فقده نعمة من النعم، يكون في واقع الأمر

(1) مفاتيح الجنان، دعاء الصباح، ص60.

قد شكر خالقه على ما أنعم عليه من نعم أخرى. والآية المباركة تقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ والعطف - هنا - جاء دون أداة، مما يدلل على عمق الارتباط ووحدة الإشارة والمعنى.

وفي موقع آخر يقول ربّنا العزيز: ﴿الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فالمؤمن الذي يصبر على ما أصابه، واستذكر حقيقة نفسه وأنه عبدٌ خلقه الله عائد فرداً إليه، من المؤكد أن تشمله صلوات الله ورحمته، وهذه الصلوات وهذه الرحمة قد ينزلهما الله على هيئة نعمة أخرى تحلّ محل النعمة المسلوبة، بداعي الحكمة الإلهية الغائبة عن الأذهان، وقد تتنزّل على هيئة تكريس المزيد من الايمان والقناعة في قلب هذا المؤمن المصاب.

وقد لمست بنفسي نموذجاً مؤمناً من هذا القبيل، حيث قصدت في يوم من الأيام إحدى المقابر للمشاركة في تعزية أحد المؤمنين بفقد زوجته، وإذ بادرته بعبارات التعزية بعد تأنٍ مديد، أجابني بالقول: لقد أنعم الله عليّ بما لا يحصى من النعم، واليوم شاء أن يأخذ واحدة منها. فهذا القول لا يصدر من قلب ساهٍ في حال من الأحوال، وإنما هو نابع من قلب ملأته الحكمة والشكر والصبر، وعوضاً أن أقربه الى الإيمان والصبر كما كان يخيّل إليّ، أصبح هو الذي علّمني الحكمة وألهمني حقيقة الصبر.

لقد أورد الأئمة المعصومون صلوات الله عليهم الكثير من الأدعية الهادفة الى النهوض بمستوى الانسان العقائدي والأخلاقي والتربوي، وهي بمثابة الترجمان الحيّ لبصائر القرآن الكريم، ومن لم يسعه أخذ الموعظة والحكمة المتعالية من خلال سيرة هؤلاء الأئمة وحياتهم، فإنه يسعه مطالعة أدعيتهم المباركة التي ما هي إلاّ نصوص غنية للغاية في التربية.

وفي هذا الخصوص - معرفة الانسان حقيقة العدمية ولزوم الشكر والصبر- جاء في الدعاء المأثور: "اللهم اهدني من عندك، وأفض عليّ من فضلك، وانشر عليّ من رحمتك، وأنزل عليّ من بركاتك".[1] وهذه الكلمات النورانية جديرة بالتدبر والتحليل وليس ترديدها على الألسن فقط، ففيها الاشارات الواضحة الى ضرورة التسليم سلفاً لله سبحانه وتعالى في كل الأحوال، وفيها الدعوة الى طلب العون بمختلف صوره من الله الواحد فقط، وفيها أن موقع الانسان من الله جل جلاله موقع المتأثر أبداً.

وثَمّ ملاحظة مهمة ينبغي التوجه إليها، وهي أن القرآن الكريم يعرّف مصطلح الحكمة تعريفاً بعيداً عمّا يذهب إليه البعض، من أنّ الحكمة تلك التعقيدات الفلسفية المتقاطعة مع طبيعة الحياة وطبيعة مهمة الانسان في الأرض، بل هو يعرفها بأنها القدرة على التعامل مع الأحداث بوعي نابع من معرفة الإنسان بنفسه.

والمؤمن إذا ما شكر ربّه فسيؤتى الحكمة، ومن يرزق الشكر سيكون قلبه مطمئناً، وإذا ما كان قلبه مطمئناً فسيكون من الطبيعي له مواجهة مشاكل الحياة والهيمنة عليها بصورة واعية تجنّبه الكثير من المشاكل.

---

(1) مفاتيح الجنان، ص13، التعقيبات العامة.

# الشكر أساس الحكمة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِإِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان/12-15)

ما هي الحكمة؟ وما هذه القيمة المثلى التي يقول عنها ربنا سبحانه وتعالى في سورة البقرة المباركة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً﴾ أو يقول عنها في سورة الإسراء الكريمة مخاطباً نبيه الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ وذلك تبيين جملة من الوصايا الأساسية، خلاصتها: الإحسان للوالدين، وصلة ذوي القربى والمساكين وابن السبيل، وعدم الإسراف، وعدم البخل، وحرمة قتل الأولاد، وحرمة الزنا، وحرمة النفس، وعدم أكل مال اليتامى، ووجوب الوفاء بالعهد، ووجوب استيفاء الكيل، وحرمة التدخل في شؤون الآخرين، وحرمة التكبر وضرورة التواضع..

فالله تبارك وتعالى يبين جملة هذه الوصايا ثم يؤكد لنبيه الأكرم أنها شيء من الحكمة التي أوحاها لـه، في حين يقول في موضع آخر من سورة لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ في سياق التعريف الذي يفيد الاطلاق أو العموم، فما هي تلك الحكمة يا ترى؟!

إن سياق الآيات التي تقدمت الحديث من شأنها تقديم الإجابة الكافية لهذا التساؤل الذي يبدو كبيراً وخطيراً في آن واحد، حيث يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ باعتبار أن حرف "أن" في هذا السياق القرآني غرضه تفسير ما سبقه من مفردات. بمعنى تلك الحكمة التي آتاه الله سبحانه وتعالى لقمان كانت تتلخص في كلمة؛ وهي كلمة الشكر، وعليه فإن خلاصة الحكمة وخلاصة المعرفة وخلاصة العقل وخلاصة الهدى وثمرته هي الشكر لله.

**ما هي حقيقة الشكر وأبعاده؟**

وهذه الحقيقة تنقلنا أو تفرض علينا تساؤلاً مهماً جداً، وهو: ما هو الشكر؟ وكيف أصبح الشكر خلاصة للحكمة؟

وقبل أن أجيب على هذا السؤال، لابد لي أن أبين حقيقة مهمة، وهي أن الإنسان ليس بجسده أو بماله أو بشهرته؛ بل إن أصل الإنسان عقله، فقد روي عن الامام علي عليه السلام :" فانما المرء بأصغريه ذكاء قلبه ولسان يعبر عنه".[1] نظراً إلى أن القلب "العقل" هو الذي يحكم، واللسان هو ما يعبر به عن هذا الحكم وهذه الرؤية. وجاء عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام أنه قال: "من لم يكن عقله أكمل ما فيه؛ كان هلاكه من أيسر ما فيه".[2] ولك أن تتصور سيارة ضخمة بإمكانها حمل العشرات من الأطنان ولكنها دون مقود،

(1) بحار الأنوار، ج51، ص242.
(2) المصدر، ج1، ص94.

فهل تسوى مثل هذه السيارة ذات المصير الخطير شيئاً يذكر من المال في تصورك؟ وإنه لمن المؤكد أنّك ستحجم عن ركوب أفخر وأحدث أنواع السيارات وأغلاها فيما لو علمت بوجود نقص يعرض حياتك للخطر، إذ أن مثل هذه السيارة أقرب إلى الفناء منها إلى الوصول إلى المقصود كلما تضاعفت درجة السرعة فيها...

فإذن؛ لا فائدة للمال والمنال والقوة والشهرة والإمكانات إن لم يكن هناك عقل يدبر ويخطط ويقود، وهذا العقل بدوره لـه ما يغذيه، وهو الحكمة، وإذا غابت الحكمة كان نفع العقل قليلاً، وقد قال عز من قائل: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً﴾.

أما كيف دارت رحا الحكمة حول الشكر لله؟!

فأقول: إن الإنسان حينما يرزقه الله الفضل والنعمة، كالقوة والشباب والمال وسائر النعم الأخرى في حياته، فإنه يقف منها موقفين متفاوتين متضادين؛ فهو إما شاكراً، وإما كفوراً.

فهو عندما يشكر فإنه يعيش في كل لحظة من اللحظات مهرجان الحب لله والوجد به، فتراه في نضارة دائمة وروحية عالية، لأنه حينما يشكر إنما بنى شكره هذا على تذكر نعم الله عليه، وقد ذكر أن نبينا عليه الصلاة والسلام كان يشكر الله ثلاث مائة وستين مرة في اليوم، تمثيلاً بعدد أيام السنة تقريباً، وكان يؤكد أيضاً أن في جسم الإنسان من العروق ثلاث مائة وستين عرقاً، وأنه إذا ضرب عرق واحد من هذه العروق كان مدعاة لألم الإنسان وشكواه، ولهذا يجب الشكر على عدد العروق.. وعليه؛ فإذا رأيت من يعيش حالة النشاط والحيوية والحب والانفتاح والإيجابية والتفاؤل والنزاهة، فاعلم أنه من الشاكرين لربهم؛ المتذكرين دوماً لنعم الله عليهم.

ولنضرب على ذلك مثلاً فلسفياً ولنفرض أن صالة من الصالات منقسمة إلى قسمين؛ قسم يعمه النور، والآخر يغلّفه الظلام، وأن شخصاً يجلس عند الحد الفاصل بين القسمين، فهو إذا نظر في النور رأى الجمال والزينة حيث الصور المعلقة على الجدار والفراش المبسوط وغير ذلك من صور الجمال والجذابية، أما إذا مدّ نظره في الظلام فإن من الطبيعي أن تتراءى لـه الأجسام الغريبة والأشباح وسيطرت على مخيلته الأوهام، وهذا الاندفاع يمثل ردة الفعل التي جبلت طبيعة الإنسان عليها.

هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى، فإن الشاكر لأنعم الله سبحانه وتعالى عليه لا يصاب بداء الطغيان، ولا تحجبه النعم عن ربه، فهو كلما نزلت عليه نعمة ازداد شكراً.

ونقرأ في سورة الكهف المباركة قصة ذي القرنين، هذا العالم الصالح الملِك الذي حكم الأرض في شرقها وغربها وهو من جملة الأشخاص المعدودين الذين أتيحت لهم هذه النعمة، حيث يقول سبحانه وتعالى في جملة ما يقول: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ (الكهف/84-85) فهو كلما كان يزداد نعمة، كلما كان وعيه يتعمق وروحه تتسامى نحو معرفة ربه وتقديم الشكر لـه.

وهذا نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام آتاه الله الملك والنعمة ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، حتى وصل به الأمر إلى إدراك عجزه عن تقديم الشكر لربه، فطلب في نهاية المطاف أن يضاعف عليه ربه القدرة على الشكر، فقال: ﴿حَتَّى إِذَآ أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَآ أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَيَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي

بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل/18-19) نظراً إلى الطبيعة المترسخة في النعم الربانية من الثقل والعظمة، فترى سليمان النبي يتوسل إلى ربه لأن يمنحه القدرة على حمل هذا الثقل ليستمر في الشكر وعرفان الجميل الإلهي.

أما الإمام السجاد عليه السلام، فيقول: "إلهي؛ أذهلني عن شكرك تواتر نعمك" إذ إن تواتر واستمرار نزول وإحاطة النعمة بالإنسان ينسيانه المنعم ويذهلانه عن عدهما وحصرهما، تماماً كما يذهل المرء عن وجود النور حينما تلفه أشعته الساطعة في بعض الأحيان. فهو يحدق في النور، ولكنه لا يراه، أو لا يحس بوجوده. والإمام السجاد عليه السلام أراد بهذا المقطع من مناجاته إعلامنا بعظمة عرفانه بالله وشكره له رغم تواتر نعم الله عليه، كما أراد لنا أن نتأكد بأن بمستطاع المرء الوصول إلى هذه الدرجة من التواضع والشكر والإستفادة الإيجابية من نعم الله غير المنقطعة؛ أو إن إرادة الله في حجب بعض نعمه علينا إنما للفت نظرنا إليها، وهذه الإرادة الحاجبة هي الأخرى تمثل بدورها نعمة كبيرة يمتعنا الله تبارك وتعالى بها، لأن بها نعود إلى جادة الوعي والعرفان بمصدر النعم علينا فنشكره ونستزيد من فضله..

**لماذا يحجم الإنسان عن شكر ربه؟**

أما الموقف الثاني الذي قد يتخذه الإنسان تجاه النعم المنزلة عليه؛ فهو عدم شكرها، وهذا الموقف له بعض الأسباب والخلفيات التي منها:

1- أنه لا يعرف المنعم والمتفضل عليه، أو لنقل إنه لا يعرفه تلك المعرفة الكافية على أبعد التقادير؛ ولأنه لا يعرف المنعم، فإنه يعجز عن أن يستمد - بشكره - أسباب القوة والإنسانية والفضيلة، ولذلك فإنه معرض في أية لحظة إلى زوال النعمة عنه.

وأمثلة ذلك تتجسد فيمن يشرب من ماء النهر ولكنه يجهل -لأي سبب كان وفي أي ظرف كان- أصل النبع، فإذا جف النهر عجز عن استخراج الماء؛

أو كمن يتمتع بالكهرباء في بيته ولكنه لا يعرف المصدر الأساسي الذي يولّد الطاقة الكهربائية ليملأه بالوقود بين الفترة والأخرى، فإذا انتهى الوقود توقّف توليد الطاقة. ومن هنا؛ فقد عزا الحكماء سبب الدين بقولهم: شكر المنعم واجب؛ أي أن الشريعة الإلهية مترتبة ومتوقفة على شكر المنعم، وهو الله سبحانه وتعالى.

2- إن من لا يشكر النعمة يتصور أن النعمة منه، كما قال قارون لمن نصحه بإعطاء الآخرين شيئاً من المال الذي يكتنزه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ أو كما قال صاحب الجنة التي وردت قصته في سورة الكهف المباركة: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ (الكهف/ 34-35) فهو يتصور أن ما يتمتع به من نعم وإمكانات ملتصقة به، وأنه هو الذي أوجدها لنفسه ودونما منعم عليه، وأنها ستدوم له إلى الأبد.. في حين أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام سئل ذات مرة عن السبب وراء ولادة بعض الأشخاص وهم معوقين أو عديمي البصر والسمع والنطق وغير ذلك، فأجاب الإمام: لكي يعرف الناس بأن هذه العين ليست من ذاتهم، وأن الله هو الذي أعطاهم إيّاها، وقد قال تبارك وتعالى بهذا الصدد ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ* فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد/8-17) ثم يوصي بعد هذه الآيات بجملة من الوصايا التي تدور حول التعقل والرحمة التي لا تصدر إلا عمن عرف مصدر النعم عليه، فشكره، وترجم شكره إلى صورة الإفاضة والإنعام على غيره من العباد ذوي الحاجة.

إن من لم يشكر ربه واعتقد أن النعمة منه هو لا غير، وتقمص هذه العقيدة الفاسدة، سيرث من الفساد ما لا تحمد عقباه أبداً، إذ سيرث داء الطغيان، الداء الرهيب الذي لن ينجو المصاب منه مطلقاً.

وقد جاءنا كتاب الله الكريم بالعديد من الأمثلة على ذلك، بل لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا بأن المحور المهم التي تدور حوله الآيات القرآنية هو تنبيه الإنسان الطاغي ومحاولة إعادته إلى المسيرة الصحيحة.

أقول: من أوضح ما ضرب الله من الأمثلة والمصاديق هو قصة فرعون، حيث قال لقومه في معرض مواجهته للنبي موسى عليه السلام: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلآئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف/51-54) وهذا لا يعني أن القضية منحصرة بشخص فرعون وأنها قد لا تنطبق عليَّ أو عليك - والعياذ بالله - إذ يقول القرآن في إطار وصفه لطبيعة الإنسان وضرورة سوقها بالاتجاه الصحيح: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَءَاهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق/ 6-7).

فالنعمة التي لا تلقى شكراً من الإنسان، ولا يعرف هذا الأخير أنها من عند الله، ستتحول إلى نقمة، لأنها تسبب الطغيان، وليس للإنسان مقتلٌ أعظم من الطغيان، إذ أن الله قد يغفر هذا الذنب أو ذاك إلا أن ذنب منازعة الله في كبريائه وجبروته، فهذا ما لا يغفره الله مطلقاً، لا سيما وأنه سبحانه قد شهد على نفسه بالوحدانية والربوبية، حيث قال: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾.

والطغيان نفسه يتسبب في مشكلة معقدة أخرى للإنسان، وهي الحجب عن الله سبحانه وتعالى، حيث نقرأ في سورة المطففين: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾. تبعاً لما اعتدوا وأثموا الإثم الأكبر وهو التكذيب بالحقائق، والطغيان على الإرادة الإلهية، وقد يمكن وصف الحجب عن الله بأنه أكبر عقوبة يتعرض لها ابن آدم من قبل الله عز وجل.

إن شكر النعم يعني دفع اليأس عن النفس وتوفير المزيد من عوامل النجاح والانتصار والموفقية في الحياة. فأول جزاءٍ يواجه الإنسان الشاكر هو أن الله تبارك وتعالى يضاعف عليه النعم ويزيده من فضله ما يشاء، لأنه في ذلك نتيجة منطقية مطلقة للإحسان وعرفان الجميل من رب صبور شكور هو مطلق العدل والرحمة، هذا أولاً. وثانياً إن من ينظر إلى النعم عليه بعين الشكر والعرفان، سيزيل عن نفسه أدران الحسد والبغضاء والبحث عن عيوب الآخرين، ذلك لأن الشاكر يعرف أن مصدر النعم هو الله تعالى، وبالتالي سيتأكد من أنه لا مدعاة لحسد الآخرين أو بغضهم، لأنهم ليسوا من أنعموا على أنفسهم، بل وأنهم لا يملكون من الأمر شيئاً. وكذلك بالنسبة للورع عن البحث عن عيوب الآخرين، باعتبار أن الشاكر منشغل بنفسه وتهذيبها، ولا يجد الفرصة لتتبع عورات الآخرين، بل قد ينتهي الأمر به إلى العكس تماماً، حيث إن إحساسه بالنعم التي أنعم الله بها عليه سيغمره بالحب لله وللآخرين من مخلوقات الله، لكي ينعم ربهم عليهم من فضله.

والورع عن الحسد والبغضاء وسائر العيوب النفسانية الأخرى سيقربنا من الناس، وبالتالي سيوفر لنا الفرص الكثيرة من جذب الأصدقاء في كافة مجالات الحياة. وهذا يعني إحراز أكبر قدر ممكن من فرص النجاح والموفقية في الدنيا والآخرة.

وهذا الواقع ينتهي بنا إلى التأكيد على أن من لم يشكر النعم، ستنعدم الحكمة فيه وسيفقد فرص النجاح التي دلّه الله عليها، حيث سيغط في أوحال الهزيمة ويحيط به الفشل من كل جانب، لأنه لم يتصرف في الحياة وفقاً لأصول الحكمة المبنية أساساً على شكر النعم.

# الحكمة بوابة الحياة السعيدة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِإِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان/12-14)

الحكمة؛ هي أن يعرف الانسان بواطن الأمور، ويتعامل مع مخابر الاشياء، وينظر الى العواقب ونهاية الطريق كي لا تستخفه بدايته. والحكيم؛ هو من لا ينساب وراء العواطف والأحاسيس والمؤثرات المختلفة.

فقديماً حينما كانت النفايات تجمع في بعض أطراف المدن ومن ثم يهطل المطر عليها أو ترسل الشمس بأشعتها إليها، تتحول هذه النفايات المتراكمة الى تلّ أخضر، حتى يخيّل للناظر أنه يرى حلّة خضراء قشيبة فوق هذا التل، ولكن هذه الخدعة لم تكن تنطلي على من يعرف ما بباطن هذا التلّ من جيفة وقذارة.

وفي هذا المجال روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال للناس: إياكم وخضراء الدمن. قيل: يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة

الحسناء في منبت السوء".[1] لأن الكثير من المخدوعين ينجذبون الى ظاهر المرأة دون الالتفات الى ما تحمله من خلق وأدب وعفّة، ولكن سرعان ما تتكشف الأمور على حقيقتها، فما أن تمر فترة من الزمن حتى يتلاشى كل شيء، خصوصاً بعد أن يتعوّد الرجل على ذلك الحُسن الذي انبهر به في بادئ الأمر. ويشير المثل البريطاني الى هذا المعنى فيقول: (الانسان لا يتمتع بأزهار حديقته)، وذلك لأنه يشاهدها بين الحين والآخر.

أما العبرة من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهي تتجاوز حدود المرأة لتشمل مختلف زخارف الدنيا وزينتها؛ فما أكثر المظاهر الخدّاعة التي جاءنا بها التطور المادي في عصرنا الحاضر، وما تنقله إلينا الشاشة الصغيرة من البرامج ذات المظهر الأنيق من مختلف نقاط العالم والتي تتخللها الوقفات المنوعة والفواصل الدعائية الجذّابة، وقد جمعت بين طياتها كل ألوان الطيف، فتسلب لبّ ذلك الشاب المسلم الذي يبقى متسمراً في مكانه لساعات وساعات مسلوب الارادة والتفكير.

وذات الوضع يواجهه شبابنا مع الصحف ذات الألوان الزاهية والطباعة الفاخرة التي تبحث أول ما تبحث عن صور النساء الحسناوات لتـزيّن بهن صفحاتها من الغلاف الى الغلاف، وبين هذا وذاك تبث سمومها القاتلة وأفكارها الهدّامة التي تهدف إثارة الفتن وتأجيج الخلافات والنعرات.. فيضل الشاب وهو منجذب الى تلك الصور، ومسترسل في تلقي الكلام المعسول، والتهام الأفكار المطبوخة والمعدّة سلفاً دون شعور منه.

من جانب آخر؛ فان الاندفاع نحو المظاهر قد يؤدي الى ما هو أسوأ من ذلك؛ الأمر الذي قد يتسبب في اختلاط المقاييس لدى البشر. فقد كان الدافع الأساس وراء انتخاب الشعب الامريكي لكل من "جون كندي" و"بيل كلنتون"

(1) بحار الأنوار، ج100، ص232.

كرئيسين للولايات المتحدة هو وسامتهما، بينما انتخب "رونالد ريغان" في مطلع الثمانينات لكونه ممثلاً سينمائياً. وليست هناك علاقة منطقية بين الوسامة والشهرة السينمائية من جهة، وإدارة سياسة بلد بحجم وموقع الولايات المتحدة في العالم من جهة ثانية. وما يثير الاستغراب هو ثقة هذا العدد الهائل من البشر برجل - لكونه وسيماً أو أنيقاً- سيمتلك أخطر قرار على الصعيد الدولي، وهو قرار إطلاق الصواريخ النووية!!

وهكذا أصبحت البشرية أُلعوبة بيد هذه المؤسسة الدعائية أو تلك القناة التلفزيونية.. مما فسح المجال لأعدائنا كي يتحكموا بعقولنا ويقرروا لنا أسلوب حياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

إذن؛ فماذا نفعل حيال هذا الواقع ؟ وكيف نهتدي الى الحق وسط هذا العدد الهائل من سُبل الضلال؟

إجابة على ذلك نقول: علينا ان نزيّن رؤوسنا بتاج الحكمة، لأنه السلاح الأجدر في مواجهة الفتنة والتضليل، وأن نحتذي حذو لقمان عليه السلام الذي لم يكن يمتلك ذلك المظهر الأخّاذ أو الشكل المتميز، بل يؤكد التاريخ على أن مظهره كان كأبسط ما يمكن أن يكون عليه مظهر أي إنسان عادي، إلاّ أن حكمته في الحياة كانت الميزة التي أعطته تلك المكانة العظيمة، بحيث كرر الله ذكره في القرآن الكريم، فقال تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾.

ويوضح القرآن الكريم شكل هذه الحكمة فيقول في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُولُواْ الاَلْبَابِ﴾ فقد تميز هؤلاء الذين سمّاهم الله بالـ "عباد" عن سائر البشر بعقولهم النيرة التي باركها الله وأضاف عليها نور الوحي، فتمتعوا بالنورين معاً؛ نور الوحي ونور العقل. وكانوا للبشرية النموذج الأمثل والأرقى على الاطلاق، لكونهم

لا يسمحوا لشاردة أو واردة من الكلام أو الفعل أن تمر دون أن يخضعوها للتمحيص والتجزئة والتحليل، فيأخذوا ما هو حق منها ويجتنبوا الباطل. وهو النموذج الذي يجدر بنا أن نتبعه ونقلد خطواته. فلا نسمح للكلام المسموم الذي يلقيه البعض كالحلوى من على المنابر أومنصات الخطابة أن يترك أثره على عقولنا، بل بالعكس نجعل من عقولنا مختبراً لكل ما يفد إلينا؛ فنفرز ما يوافق ديننا وشرائعنا ومنهجنا الفكري ونضرب بالباقي عرض الحائط، وأن نتعامل مع ما نسمعه من الحديث كما يتعامل الطير مع طعامه فيلتقط الجيد من الحبّ ويترك الردئ.

ولقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الانحرافات الفكرية التي تخلقها الافتراءات عليه، قائلاً: "قد كثرت عليَّ الكذابة وستكثر فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنّتي فما وافق كتاب الله وسنّتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنّتي فلا تأخذوا به".[1] وبذلك يفضح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلك الحفنة من أشباه الرجال الذين يتقولون ويفترون عليه لطمس الحقائق وتزوير الوقائع، وذلك لضرب الدين والقضاء على المبادئ. لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترك لنا مرجعية أساسية نتردد عليها لتقييم كل ما يوفد إلينا، إذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنّتي. وقد أكد الأئمة الأطهار عليهم السلام على هذا المبدأ في أكثر من حديث. وقد قال المسيح عليه السلام: "كونوا نقّاد الكلام"[2]؛ أي تعاملوا مع الكلام كما يتعامل الصرّاف مع النقود، فيميز المزيف من الأصلي منها؛ إلاّ أن خسارة الإنسان ستكون أبهض ثمناً إن خدعه الكلام المزيف.

---

(1) بحار الأنوار، ج2، ص225.

(2) بحار الأنوار، ج2، ص96.

إذن؛ فالحكمة في التعامل مع الكلام هو أن تكون ناقداً للكلام. أما فيما يرتبط بباقي الأمور، فقد أكد أئمتنا عليهم السلام على أن الحكمة من التعامل معها هي النظر الى عواقبها، لأن من الطبيعي أن لا يسلك الانسان طريقاً لمجرد أن ظاهره أنيق أو لكثرة الأنوار المضاءة على جانبيه؛ بل القاعدة أن يعرف الانسان مؤدى أي طريق قبل أن يسلكه، لأن البداية لا تعبر دائماً عن النهاية. ولهذا نصحنا رسول الله صلى الله عليه وآله بضرورة التدبير في الحياة بقوله: " التقدير نصف المعيشة".[1]

والكثير منا يفعل عكس ذلك تماماً، وخصوصاً في المجال الاقتصادي والتجاري؛ فالبعض عندما يخطط لمشروع ما لا يضع أي اعتبار لتقلبات المستقبل. وهذا ما حدث بالفعل لأحد الأشخاص مؤخراً، فقد بدأ منذ سنوات ببناء بيت واسع وكبير له، وحرص أن يستخدم لتشييده أجود أنواع المواد اللازمة للبناء، بل وأفرط في ذلك بحيث أخذ يبتاع بعض هذه المواد من بلدان بعيدة وبأسعار باهضة، وما أن فرغ من بنائه حتى جاء ملك الموت وأسكنه داره الأبدية، ففارق الحياة دون أن تطأ أقدامه هذا البيت الجديد.

وقد يفتقر البعض منا الى الحكمة على صعيد التجارة، فنجده يرصد كل أمواله لمشروع واحد دون أن يفكر بخطورة عمله هذا. وما أكثر من خسر جميع أمواله في لحظة واحدة لهذا السبب.

والنظر إلى عواقب الأمور أيضاً تشمل علاقة بعضنا ببعض؛ فالعاقل هو من لا يبلغ بصداقته الى حد الافراط، أو بعدائه إلى حد التفريط؛ بل يترك خطاً للرجعة بين هذا وذاك، حيث ينصحنا الأئمة الأطهار عليهم السلام أن نصادق بالهون أي بالهدوء والرصانة وليس بالاندفاع والعجلة، وذلك هو نموذج العلاقة الاجتماعية الحكيمة. وقد قال الإمام علي بن أبي طالب عليه

---

(1) المستدرك، ج14، ص171.

السلام: "احبب حبيبك هوناً ما فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما". [1]

ومن الحكم الأساسية التي بيّنها القرآن الكريم عندما يأتي على ذكر لقمان الحكيم، هي حكمة الشكر، فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.

فالانسان ينظر الى الحياة بعينين: إحداهما إيجابية والأخرى سلبية، ومع اختلاف البشر تتفاوت نظرتهم الى الحياة. ومثال الكأس الممتلئ حتى النصف أبسط دليل على هذا الاختلاف، فالبعض يرى نصفه الممتلئ والآخر يرى نصفه الفارغ، لكن الحقيقة هي أن أكثر الناس يرون الجانب السلبي من كل شيء، وهذا ما نكد عليهم حياتهم. فهم ينظرون الى المستقبل بعين الخوف والريبة، وهو ما جعلهم يلهثون وراء الدنيا لجمع ما أمكنهم جمعه منها. لكن آمالهم تبقى معلقة ما بين السماء والأرض، لأنهم غفلوا عن قول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: "ابن ندم؛ إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك، فان أيسر ما فيها يكفيك، وان كنت إنما تريد ما لا يكفيك فان كل ما فيها لا يكفيك". [2] فالطغيان والجشع لا يبقيان أثراً للعقل والحكمة، لهذا يجب أن نعجب لحال ذلك الأحمق الذي دفعه طغيانه الى بناء صرح من طين ليطّلع منه الى إله موسى، ولحال أولئك الذين أرادوا أن يتحدوا السماء بصاروخ أسموه " تشالنجر" والذي يعني ( التحدي) فما أن انطلق من قاعدته حتى عاد إليها حطاماً.

---

(1) بحار الأنوار، ج71، ص177.

(2) المصدر، ج70، ص176.

فمثل هؤلاء البشر منعهم حرصهم وجشعهم من التمتع بما منّه الله عليهم من النعم، لهذا فهم يتذمرون من أبسط النواقص، على الرغم من كل النعم التي يعيشون في بحبوحتها ولا يحمدون الله عليها.

وقد روي عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام، أنه قال: "لا والله ما أراد الله من الناس إلاّ خصلتين؛ أن يقروا له بالنعم فيزيدهم، وبالذنوب فيغفرها لهم". (1)

إذن؛ فروح الحكمة هي شكر الله على النعم، والمزيد من الشكر يعرّف الانسان بربه أكثر فأكثر. فهو الذي خلق الانسان من نطفة، وهو الذي رعاه وشايعه حتى بني عوده واكتمل فرعه، وهو الذي حمله من ظلمة الى ظلمة ومن طور الى آخر حتى تمت الولادة بسلام، وخرج من بطن أمه وهو في أحسن تقويم. ولم تتوقف حينها الرعاية الالهية، بل استمرت.. حتى وقف الانسان عند لحده، وهناك قد تركه مشيّعوه من أولاده وأهله وحيداً بين التراب. فيالحسرته ومسكنته ووحدته، فمن له بعد أن تفرّق عنه الناس وابتعدوا، فيأتيه النداء المبارك يخاطبه: عبدي؛ هل تركوك وحيداً وذهبوا، وهل تفرّقوا عنك وارتحلوا؟.. لكن؛ لا تخف فأنا معك وأنا بك أرحم منهم.. إنه نداء الله تبارك وتعالى الذي لم ينس عبده للحظة في الدنيا مع كثرة الناس من حوله، فكيف به وقد صار وحيداً بعد موته. فهلا بنا أن نذكر هذا الرب العظيم ولو لبضع لحظات؟ إنه لم يطلب منا سوى شكره على تفضله إلينا ليمن علينا بعد ذلك أيضاً، ويزيدنا فضلاً وكرماً، وينوّر قلوبنا بنور حكمته ورحمته.

وفلسفة الشكر تلخّصه الآية الكريمة ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِإِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ**﴾ فتؤكد على أن من أهم صفات الانسان الشاكر، هي أن يعرف أن

(1) بحار الأنوار، ج6، ص36.

ما يتنعم به مصدره هو الله تعالى على الاطلاق، ويجدر به أن لا يلوّث هذا النبع الزلال بإشراك من لا يستحقه.

ويأمرنا الله أن نشكر في المرتبة الثانية أولئك الذين هم الوسيلة في وصول نعمه إلينا، وعلى رأسهم الوالدين. فقد حثنا المعصومين عليهم السلام على معاملتهم بأحسن ما يكون، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: ما من رجل ينظر الى والديه نظر رحمة، إلاّ كتب الله له بكل نظرة حجة مبرورة. قيل: يا رسول الله؛ وإن نظر إليه في اليوم مائة مرة؟ قال: وإن نظر إليه في اليوم مائة ألف مرة.[1] كما إن الدعاء عند قبرهما مستجاب، فيقول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

ويأمرنا الله تعالى أن نسدي بكل هذا التقدير والاحترام لوالدينا اللذين حرصا على منحنا جسم سليم ومعافى، فكيف بمن حرص على تربية أخلاقنا وتهذيب سلوكنا وهم الرسول الأكرم والأئمة المعصومون عليهم الصلاة والسلام. فالأولى أن يكون تقديرنا وشكرنا لهم أجزل، وشكر هؤلاء يتم من خلال إحياء ذكرهم في ذكرى ميلادهم ووفاتهم وما ترتبط بهم من مناسبات.

إذن؛ فملامح الحكمة هي الشكر وتقييم الكلام والنظر الى عواقب الأمور وعدم الانخداع بالمظاهر، فمتى ما التزم الانسان بهذه الأمور تساعد على تحقيق حياة سعيدة في الدنيا والآخرة.

---

(1) مستدرك الوسائل، ج15، ص204.

# العفو؛ آثاره، وحاجتنا إليه

من المعلوم إنّ القرآن الكريم هو كتاب الحياة، وكلّما استطاع الإنسان أن يتقرب من هذا الكتاب علماً وعملاً، ازداد حيويّة ونشاطاً، واستطاع استيعاب المعاني الحقيقية للحياة، ذلك لأنّ الحياة على درجات؛ فهناك من الأحياء من هو ميّت، كما أنّ هناك من الأموات من هو حيّ يرزق.

إنّ الإنسان الجاهل كلّما توغّل وأمعن في جهله كلّما توغّل في الموت، وعلى سبيل المثال فانّ الإنسان الذليل كلّما كانت ذلّته أكثر شمولاً لكيانه، كلّما كان الموت هو الصبغة الطاغية عليه.

والفقر، والذلّ، والجهل، كلّ ذلك هو من علامات الموت، في حين إنّ العلم والعمل الصالح هما من علامات وآيات الحياة، والقرآن الكريم يزيدنا حياة لأنّه يزيدنا عزّاً ونشاطاً وعملاً.

**العفو وصيّة القرآن الكبرى**

ومن أهم الوصايا التي أوصانا بها الخالق جلّت قدرته، والتي أكّد عليها في كثير من المواضع، أنّه قد أوصانا بأن يعفو بعضنا عن البعض الآخر. فما هو العفو، وما هي الفوائد التي ترتجى من هذه الصفة، وما هي الحكمة من ورائها؟

**للعفو حدود**

في البدء لابدّ أن نقول إنّ العفو له حدود، فلا يجوز العفو عن الظالم إن كان هذا العفو يزيده تجبّراً على الله تعالى وظلماً للعباد. فهذا ليس من العفو

في شيء، فان قال الضعيف إنّني أعفو عن القويّ، فانّ عمله هذا لا يسمّى عفواً، بل هو ذلّ وصغار وحقارة؛ بل العفو أن تصفح عمّن هو مثلك، أو دونك، ولذلك أكّدت الأحاديث على ضرورة العفو عند المقدرة. فعندما يكون الإنسان المؤمن مقتدراً، فان صفة العفو لابدّ أن تتجلّى عنده، لأنّه سيعفو عن الإنسان الذي هو دونه في حين إن يده هي العليا، وهو قادر على أن يأخذ حقّه.

**فلسفة العفو**

إنّ فلسفة العفو ليست دفع الإنسان الى التمادي في الجرائم، أو ترك حدود الله سبحانه وتعالى، بل إنّ فلسفته الحقيقيّة محاولة إبعاد جوّ الذنب والجريمة عن المجتمع، وبناء على ذلك فان الدين الإسلامي يتوخّى تحقيق عدّة أهداف منها: القضاء على الذاتيات والأنانيّات؛ فمن المعلوم أنّ النسبة الأكبر من الصراعات الاجتماعية منشؤها حبّ الذات، والجري وراء المصالح الذاتيّة. فتفكير كلّ إنسان في مصلحته يسبّب حالة نموّ الصراعات، في حين أنّنا بحاجة إلى تآلف القلوب وتحابها وصفائها، وبحاجة إلى أن لا تقوم بيننا حجب الضغائن والأحقاد وسوء الظنّ لكي نستطيع أن نتعاون في سبيل تحقيق أهدافنا. فعندما تكون في قلب الإنسان المؤمن تجاه أخيه المؤمن الأحقاد والضغائن، فانّ قدرته على التآلف والتعاون ستنخفض الى الصفر. فمن طبيعة الإنسان أنّه إذا أحبّ أحداً، فانّه يحبّ أن يلتقيه، ويتحدّث إليه، ويتعاون معه. أمّا إذا كان قلبه مشحوناً بالضغينة والحقد تجاه أخيه، فانّه سوف لا يستطيع أن يتعاون معه؛ بل لا يكون بمقدوره أن يندفع في العمل. فالإنسان إنّما يعمل بنشاط عندما يكون قلبه نقيّاً، أمّا إذا كان مشغولاً بإضمار الحق للآخرين والبغضاء وخوض الصراعات الاجتماعية، فانّ هذه الحالة سوف لا تشجّعه على القيام بالمزيد من العمل.

وعلى هذا فانّ القلب المتشتّت والمشحون بالهموم المختلفة لا يمكن لصاحبه أن يركّز في تفكيره، ويخرج بنتيجة إيجابية من هذا التفكير. أما الإنسان الذي يحظى بالتشجيع على العمل الصالح من قبل الأشخاص المحيطين به فانّه سوف يجد في نفسه إندفاعاً الى القيام بالمزيد من هذا العمل. وعلى العكس من ذلك الإنسان الذي يواجه التثبيط والتهم من قبل أفراد مجتمعه والمقرّبين إليه، فانّه سوف يُشغل فكره بهذه الموقف السلبيّ تجاهه، وبالتالي فان قدرته على العمل سوف تنخفض الى حدّ كبير.

ولذلك؛ فانّ القرآن الكريم يأمرنا بالعفو، لأن الإنسان يعيش عادة حالة التوهّم بأنّه مظلوم، وأنّ الآخرين يحقدون عليه، ويهضمون حقوقه.. وهذا هو أحد الأساليب التي يستخدمها الشيطان لشلّ قدرة الإنسان على العمل، ولذلك ترى هذا الإنسان يفكّر دائماً في نفسه، ويتصوّر أنّه أكبر مما يراه الآخرون.

أمّا الإنسان المؤمن فانّه يطلب من الله تعالى دائماً أن لا يرفعه بين الناس إلاّ ويضعه عند نفسه بقدر تلك الرفعة. فهو ينظر الى نفسه بحيث يراها أقلّ من حجمها، فلا يصاب بحالة التكبّر، وقد جاء في دعاء كميل في هذا المجال: "اللهم إنّي أسألك سؤال خاضع متذلل خاشع أن تسامحني وترحمني وتجعلني بقسمك راضياً قانعاً وفي جميع الأحوال متواضعاً". فالإنسان المؤمن يطلب من الله جل وعلا أن يرزقه صفة التواضع في جميع الأحوال.

ومع ذلك فانّ الغالبية العظمى من الناس يزعمون أنّهم أكبر من حجمهم، فيتوهّمون أنّ الآخرين يهضمون حقوقهم ويظلمونهم ويسلبون منهم المناصب والمراكز التي من المفروض – حسب زعمهم – أن يشغلوها... ومن أجل أن يعالج القرآن هذه الحالة فانّه يحثّ الإنسان على العفو عن الآخرين إن كانوا حقّاً قد ظلموه. وعندما ينمّي الإنسان هذه الخصلة في نفسه، فانّ قلبه سيبقى محافظاً على صفائه ونقائه، فلا يكون فيه حقد على

الآخرين.. وبالتالي سيندفع نحو العمل، وتكون سجيّته العفو والصفح والتغاضي عمّا يرتكبه الآخرون بحقّه. وفي هذه الحالة فانّ الله جلّت قدرته سيلقي محبّته في قلوب الآخرين، فهو تعالى الذي يؤلّف بين قلوب المؤمنين، وهو الذي يجعل المحبّة بين القلوب المتنافرة.

**العفو والنشاط الجسميّ**

ولذلك؛ فانّ من المستحبّ في صلاة الليل أن يدعو الإنسان لأربعين مؤمناً بأسمائهم، فعندما يدعو لهم في جوف الليل حيث يشعّ قلب الإنسان إيماناً، فانّ المؤمنين بدورهم سوف يدعون له. وهكذا ستسود المحبة أفراد المجتمع، وعندما تزداد القلوب المتحابّة المتآلفة فانّها سوف تستطيع أن تصنع المعجزات. وبالإضافة الى ذلك فانّ القلب عندما يكون نقيّاً طاهراً خالصاً من الأحقاد، فانّ صاحبه سيكون في حالة راحة واطمئنان نفسيّين على الدوام. فلقد أثبت علم النفس الحديث أنّ خمسين بالمائة من حالات التعب والارهاق، إنّما هي نتيجة امتلاء القلب بالهموم والمشاغل والصفات الأخلاقية السلبيّة التي سبقت الإشارة إليها.

وهكذا؛ فانّ الإسلام إنّما يأمرنا بالعفو لأنّ الإنسان عندما يكون ديدنه العفو والصفح عن الآخرين فانّ قلبه سيكون نقيّاً مطمئناً، ولا يمكن أن يصاب بالتعب والارهاق، لأن الإرهاق يظهر نتيجة للحالات النفسيّة المتمثّلة في الحزن والغمّ لا نتيجة لعمل الجسم.

**العفو موجب للعـزة**

وبالإضافة إلى ذلك فانّ (العفو) يكون موجباً لعزّة الإنسان كما روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "عليكم

بالعفو فانَّ العفو لا يزيد العبد إلاّ عزّاً فتعافوا يعزّكم الله".[1] فاذا ما عفا أحدنا عن الآخر، سيتحوّل المجتمع الى مجتمع عزيز. فعندما يعفو بعضنا عن البعض الآخر، فانّ أعمالنا سوف تسمو، وتكون أفضل، وبالإضافة إلى ذلك سيكون المجتمع مجتمعاً متماسكاً. وعلى العكس من ذلك فعندما يكون المجتمع منشقّاً على نفسه، وتسوده الصراعات الداخليّة، وتنخر في كيانه، فانّه لا يلبث أن يتحوّل الى مجتمع ذليل، لأنّ صراعاته كلّها سوف تكون متجهة الى نفسه بدلاً من أن تكون متّجهة الى العدوّ.

إنّنا إذا أردنا أن يعفو الله تعالى عنّا، فانّ علينا أن نعفوا عن إخواننا المؤمنين. فالانسان المؤمن عندما يتّخذ موقف العفو عن أخيه المؤمن، يجدر به أن يعلم بأنّ الله عز وجل أولى بالعفو منه".

وللأسف؛ فانّ هناك البعض ممّن هو غير مستعدّ مطلقاً لأن يعفو عن الآخرين، فتراه لا ينسى الأخطاء والذنوب التي ارتكبت بحقّه، فيفكّر فيها، ويعاني منها حتّى تتحوّل الى عقدة في نفسه. في حين إنّه لو فكر وتأمّل قليلاً، فانّه سرعان ما يكتشف أنّ الأذى النفسي الذي سبّبه لنفسه بسبب التفكير في تلك الأخطاء هو أكبر بكثير من الآلام النفسيّة التي يعاني منها بسبب عدم صفحه عن الآخرين، وتفكيره غير المجدي في المواقف السلبيّة التي بدرت منهم إزاءه، وبالاضافة الى ذلك؛ فانّ تغاضيه عن أخطاء الآخرين من شأنه أن يجعل قلبه نقيّاً طاهراً، ومن شأنه أيضاً أن يقلّل من مشاكله.

**العفو عند القدرة**

والعفو - كما أشرنا إلى ذلك – ترتفع قيمته عندما يكون في موضع القدرة، وخصوصاً إذا كان هذا العفو صادراً من الحاكم والممسك بزمام أمور المجتمع؛ فهو إن أخذ الناس بالعنف والشدّة فانّهم سوف لا يحتملون ولا

(1) بحار الأنوار، ج68، ص401.

يطيقون شدّته، وبالتالي فانّهم سوف يثورون عليه، فلا يمكنه أن يحكمهم ويسيطر عليهم.

والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إنّما استطاع أن يملك الجزيرة العربيّة، بل وقلوب جميع المسلمين في أنحاء الأرض بعفوه وصفحه وتسامحه. فمن المعروف أنّ قبيلة قريش شنّت حروباً عديدة ضدّه صلى الله عليه وآله، وكانت هذه الحروب حروباً شرسة وقاسية، وكانت ممارساتهم ضدّ النبي صلى الله عليه وآله قبل الهجرة ممارسات وحشيّة غير إنسانية، وقد بلغت هذه الممارسات ذروتها من القسوة والوحشيّة عندما عمدوا الى قتل عمه حمزة بطريقة وحشيّة، ولكنّه مع ذلك عفا عن قريش عندما فتح مكّة متناسياً تلك الأعمال الوحشيّة التي مارسوها معه ومع أقاربه وأصحابه قائلاً: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".[1] في حين إنّه كان بامكانه أن ينتقم منهم، ويبيدهم عن آخرهم، ويقتلهم شرّ قتلة، ومع ذلك فقد عفا عنهم عند المقدرة.

وعلى هذا؛ إنّنا بحاجة اليوم الى مثل هذه الأخلاق الرفيعة السامية، لأنّنا نعيش ظروفاً قاسية، والحياة التي نحياها حياة صعبة، وإذا ما لم نتمتّع بصفة العفو عن بعضنا البعض، فانّ قسوة الحياة سوف تؤثّر فينا سلبيّاً، فاذا بالواحد منّا يتحوّل إلى برميل بارود بسبب المصائب والمشاكل التي يواجهها مثل هجرته من بلده، ومعاناته الغربة، والمشاكل التي يصادفها من قبل المجتمع المحيط به، وإذا ما أصبحت هذه الحالة جماعيّة فانّ خطر التمزّق والتشتّت سوف يهدّد المجتمع برمّته.

وبناءً على ذلك فانّنا اليوم أحوج ما نكون الى تربية الصفات الإيجابية في أنفسنا؛ هذه الصفات التي تقف في مقدّمتها صفة العفو، والتسامح، وكظم الغيظ.. فالعاملون في سبيل الله عز وجل بمسيس الحاجة إلى هذه الأخلاق؛

---

(1) بحار الأنوار، ج19، ص181.

فهم يعيشون حالة الصراع مع أعدائهم، ولذلك فانّهم يحتاجون إلى أن تكون صدروهم رحبة واسعة لكي ينطلقوا في مجالات العمل الرسالي.

**العفو من عزم الأمور**

بالنسبة إلى بعضنا البعض، وعلى صعيد علاقاتنا الداخليّة، فقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (الشورى/43).

ولعلّ هناك تفسيرات عديدة لعبارة: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ ولكنّ التفسير الأقرب أن نقول إن هذه الأمور نحن بحاجة فيها الى عزم، فاذا ما أراد الانسان أن يحمل حملاً ثقيلاً فانّه يحتاج إلى إرادة وعزيمة، وإلى استعداد نفسيّ لكي يكون بإمكانه حمل هذا العبء.

وهكذا الحال بالنسبة إلى العفو، فانّه يعتبر من ضمن الأخلاق التي من الصعب على الإنسان أن يتحلّى بها، ويحوّلها الى ملكة وسجيّة له في نفسه؛ بل هي بحاجة إلى استعداد وتمرين وتدريب طويل، ولذلك أشار الله سبحانه وتعالى إلى أنّها من عزم الأمور؛ أي من الأمور التي لا يمكن أن تصدر من الإنسان إلاّ إذا كان ذا إراداة قويّة، وعزم لا يلين على كظم عواطفه، ومشاعر غضبه إزاء الأشخاص الذين يسيؤون إليه.

# الأمل طريق الانتصـار

الانسان المؤمن متفائل دوماً حتّى وإن واجه مئات الهزائم المادّية، لأنّه مستعد دائماً لصنع النصر، ومؤمن أنّ العاقبة للمتّقين في الدنيا كما في الآخرة.

والآيات القرآنية تؤكد دائماً على حتميّة انتصار الإيمان دون أن تعيـر أيّ اهتمام لسيطرة الطغاة، وانتشار المفسدين في الأرض، حيث يقول الله تعالـى: ﴿وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ (الاسراء/81).

**الأمل مصنع الانتصار**

إنّ هذا التأكيد يجسّد واقعيّة الإيمان عبر شحن نفس الإنسان المؤمن بالأمل الصادق، لا بالآماني الكاذبة. فالأمل المرتبط بالله سبحانه وتعالى يزكّي النفس، ويربّيها، وينمّي فيها الطاقات الخيّرة، وبالتالي فانّه يصنع الانتصار للإنسان المؤمن.

أمّا الهزيمة النفسيّة التي كثيراً ما تنجم عن الأماني التي لا تتحقّق، فهي التي تخلق الهزائم الحقيقيّة. فالنصر هو عزيمة في القلب تتجسّد في الواقع عبر الحركة، كما أنّ الهزيمة في النفس لابدّ وأن تنعكس على السلوك.

ومن هنا؛ فانّ القرآن الكريم يريد أن يصنع الانتصار للإنسان في واقعه الخارجيّ من خلال شحنه بروح النصر والأمل والتفاؤل، لأنّها العامل الأساسيّ للعطاء والاستمرار في البذل، وحينئذ فانّ الإنسان المؤمن سوف لا

يستسلم للطبيعة، بل يتحدّاها ويتغلّب على صعابها؛ ولا يقف مخذولاً أمام العدو، بل يتحوّل الى جبل صامد أمامه.

**الأمل مفجّر الطاقات**

الإنسان يمتلك كتلة من الطاقات لا تحدّ آفاقها، ولا تحصى أبعادها. فهي تمتدّ أفقياً لتنعكس في صورة أعمال واختراعات مدهشة يشهدها العالم. فالانسان هو عالم مصغّر من الطاقات والقدرات الهائلة، ومفتاح هذه الطاقات والقدرات هو الأمل.

فالإنسان يمكنه -بفضل تلك الطاقات- أن يكون فوق المادّة والشهوات، وأقوى من الشيطان. فلا يمكن للشهوات والمادّيات أن تهزمه، بل سينتصر عليها وعلى الشيطان رغم أسلحته الخبيثة.

ولا ريب أنّ سلب الأمل من قلب الإنسان هو أقوى أسلحة الشيطان. فاليأس هو عموماً جنديّ ماكر من جنود إبليس؛ فلا حياة للإنسان اليائس، إذ لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة؛ ولأنّ الأمل هو الفاعل والمؤثّر في واقع والإنسان هو أكبر عامل في التغيير الطبيعي والحضاري، فانّ الأمل هو وقود حركة الإنسان، في حين أنّ اليأس يشلّ هذه الحركة.

**الإيمان مجلبة للبركات**

إنّ حركة الإنسان هي من أبرز العوامل الطبيعيّة والحضاريّة في الكون، أمّا الطبيعيّة فلأن جميع مظاهر الطبيعية وخيراتها وأحداثها رهن بارادة الإنسان المرتبطة بإرادة الله عزّ وجل. فالمؤمنون الصادقون يستجلبون بركات السماء والأرض بالدعاء، فإذا شاع التديّن والإيمان تفجّرت الخيرات والبركات، وإذا التزم الناس بالتعاليم الإلهية زالت عنهم النكبات؛ فالخلق الحسن يبعد عن الأرض الكوارث، والصدقة تدفع البلاء وهكذا الحال بالنسبة الى الدعاء.

وهكذا نجد أنّ الظواهر الطبيعيّة كالزلازل، والعواصف، والسيول مرتبطة بارادة الإنسان الذي هو محور هذه التغيّرات، وبهذا المفهوم أيضاً كان الإنسان محور التغيّرات الحضاريّة. فلو تأمّلنا في ظاهرة سيادة بعض الأمم وسقوط أخرى، لوجدنا أنّ الإنسان هو المحور والسبب؛ فعندما يعمل ويستقيم ينتصر، وعندما يتقاعس وينهزم ويغلّفه اليأس فأنّه يسقط لا محالة.

**القرآن مفتاح الأمل**

ويبقى القرآن هو مفتاح الأمل نفسه من خلال آياته الكريمة التي تحمل مفتاح الحياة، وتشعّ بالنور، وتبعث الأمل في القلوب.

وفي الحقيقة؛ فانّ الأمل يعدّ أمراً طبيعيّاً بالنسبة الى الإنسان المؤمن، فهو يرى أنّ السماوات والأرض مطويّة بيد الله تعالى، وقائمة بإذنه، وما من شيء إلاّ ويسبّح بحمده، ويخضع لملكوته.

وإذا ما اتّصل الإنسان المؤمن بالملكوت الأعلى، واعتصم بحبل الله، فانّه سيرى بعين البصيرة العاقبة الحسنة التي ستكون في انتظار المتّقين، وهذا هو السبب الواقعيّ للأمل.

الفصل الرابع:

# من مذام الأخلاق

# الغفلة؛ داء البشرية المزمن

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِلسَّآئِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى اَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفي ضَلالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ * قَالَ قَآئِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا يَآ أَبَانَا مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ (يوسف/7-14)

لا شك أن قارئ الآيات الكريمة يجد في ظاهرها حكماً وأمثلة وقصصاً عديدة ومتنوعة، إلاّ أن القليل ممن يتصفح القرآن الكريم يتوغل في أعماقه الغنية بالنور. وهذه القضية بحد ذاتها تجسد حكمة ونوراً خاصاً أشار إليها القرآن الكريم نفسه حيث يؤكد إنه ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة/79) أي أن من لم يكن على طهارة شرعية لا يحق له مس حروفه وآياته، بالاضافة الى ما يمكن فهمه عبر التدبر الذي يوصلنا الى حقيقة عجز الانسان غير الطاهر القلب والسريرة عن مس معانيه الحقيقية والخفية. وبما أن ظاهر القرآن تحكمه الأناقة والروعة والجمال والجذابية الخارقة، فاننا نجد أن أكثر الناس ينبهرون به ولا يتوغلون الى أعماقه الأعظم والأروع. فالقرآن المجيد كتاب

لا يتمكن كل انسان من الوصول الى حقيقته دون توفير عوامل روحية وفكرية يقف في مقدمتها تطهير القلوب من الشهوات والصحوة والتوجه المتكامل الى الله سبحانه وتعالى.

ومن هذا المنطلق أريد -في هذا المقام- أن أفتح لكم ولنفسي بعداً من أبعاد القرآن الحكيم، ومفهوماً من مفاهيمه التي تذكرنا به الآيات الكريمة المتقدمة.

فتوصيات النبي يعقوب سلام الله عليه لأبنائه بالمحافظة على ابنه الأقرب إليه -النبي يوسف عليه السلام- وتحذيره إياهم من الغفلة عن يوسف واحتمال تعرضه للأخطار، تشير هذه التوصية الى أكثر من درس قرآني توضحه لنا هذه الآيات الكريمة لنكون في حالة استنفار دائم تجاه الأخطار الشيطانية والدنيوية المحيطة بنا.

إن أول علامات الغفلة التي كان النبي يعقوب عليه السلام يحذر أولاده منها، هي الغفلة عن صيانة النفس من الحسد والبغضاء الذي من الممكن أن يحملهم على كيل الأذى لأخيهم النبي عليه السلام. وليست المكانة التي كان يحظى بها النبي يوسف عليه السلام عند أبيه نتيجة لرغبة أبوية صرفة، بل إنها كانت انعكاساً طبيعياً للمنـزلة الإلهية المباركة التي كان النبي يوسف عليه السلام يستحقها. وأبعد من ذلك إن النبي يعقوب عليه السلام كان حريصاً كل الحرص على عدم إثارة حفيظة أبنائه على أخيهم، ولا أدل على ذلك من أن النبي يعقوب عليه السلام قد أمر ولده يوسف عليه السلام بعدم قص رؤياه المباركة على إخوته.

غير أن إخوة يوسف لما ظنوا بأن أباهم يفضل يوسف عليهم أجمعوا أمرهم بعد جدل طويل على أن يضعوه في البئر. فجاؤوا أباهم قائلين: أرسل معنا يوسف الذي أصبح في مأمن من الأخطار، مؤكدين أن الفترة فترة لعب وصيد وترفيه، واصفين له روعة الجو واعتدال الطبيعة. فقال لهم أبوهم: إنه ليحزنني

أن تذهبوا به، باعتباره لم يكن ليستطيع الصبر على مفارقته ساعة واحدة، مؤكداً لهم خوفه من أن يتعرض أخوهم يوسف لخطر الذئب أثناء انشغالهم بالصيد واللعب، بقوله عليه السلام: ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾

**الغفلة داء مزمن**

يهمنا ونحن نتلو الآيات القرآنية في سورة يوسف، أن نتدبر معنى الغفلة التي استخدم النبي يعقوب عليه السلام لفظتها وحذر أبناءه منها. الغفلة عن استفحال ضعفهم أمام الرضا بقضاء الله وقدره وما قسم لهم ولأخيهم من منازل، والغفلة عن الأخطار الخارجية المحيطة بأخيهم يوسف عليه السلام.

وتمثل الغفلة موضوعاً بالغ التعقيد في تكوين النفس الانسانية، بل إن من أسباب تسمية الانسان بالانسان، لأنه عرضة للنسيان الذي ينضم تحت سياق الغفلة؛ ﴿وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ﴾ (الكهف/63) فالذكر واليقظة لواجه النسيان والغفلة.

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى بني آدم الى هذه الدنيا التي هي دار لهو ولعب، لتتكامل حقيقة النفس البشرية. فتركيبة الدنيا تركيبة تتحدى أعظم الناس عقلاً ويقظة في استمرار يقظته. ومن المتاح لأي شخص منا أن يخوض تجربة التحدي هذه، إذ بإمكانه تدوين برنامج عمل يملأ كل لحظات يومه، ولكن نهاية النهار كفيلة بأن تذكره بما غفل عنه من بنود برنامجه الذي أعده. ويصل الأمر بالبعض منا الى أنّك تراه يبحث مهموماً عن حاجة ما لمدة مديدة، وحينما يستسلم أمام العثور عليها تراه ينتبه الى أن هذه الحاجة كانت في يده طوال مدة بحثه عنها..

إن فلسفة وجود الانسان في دار الدنيا تأتي في سياق الامتحان الإلهي للإنسان، لإثبات الحجة عليه في الفترة التي قضاها من عمره حذراً متيقظاً إزاء محاولات الشيطان الرجيم لإغفاله وإلهائه. ولو كان الله عز وجل قد

خلق الانسان بهيئة متفاوته؛ هيئة تمتاز باليقظة الدائمة والحذر المستمر، لما عاد هناك من حكمة في أن يتعرض للامتحان، ولما كانت للانسان أهلية الحصول على الثواب؛ بل إن الخالق عز وجل خلق الناس خلقاً حسناً، وبيدهم هم لا غيرهم أن يحددوا واقعهم ومصيرهم.

**الغفلة الاجتماعية**

من المؤكد أن انعدام التخطيط وانعدام الرؤية والوعي سبب رئيسي في تراجع المجتمعات وتأخرها عن مسيرة الركب الحضاري. فالمتصدون في الساحة الاجتماعية هم المسؤولون عن وضع برنامج متكامل للوقاية من إصابة المجتمع بالغفلة.

ولقد أدّى انعدام مناهج التربية والتوجيه من قبل معظم المسؤولين في العراق – مثـلاً - إلى إصابة الناس بحالة استثنائية من الغفلة قلما يمر بها شعب من الشعوب. فلقد كنا نرى المساجد مكتظة بالمصلين؛ والأضرحة المقدسة معمورة بالزائرين، وكنا نعتقد بأن كل شيءٍ يسير بصورته الطبيعية، ولكن الأوضاع انقلبت رأساً على عقب؛ وقد يرى غير الخبير وغير المتدبر لآيات القرآن الكريم أن هذا الانقلاب قد حدث فجأة، إلاّ أن العكس هو الصحيح، فالأحزاب السياسية الإلحادية التي طغت فعالياتها على الشارع العراقي لم تأت من فراغ، والتفكك الأسري الذي حدث في العقود الأخيرة ليس وليد اللحظة الراهنة، إنما هو نتيجة غفلة اجتماعية وانعدام الشعور الاجتماعي بالمسؤولية والافتقار الى ممارسة عملية الرقابة الدينية والروحية على الحركة الاجتماعية، وهذا الواقع وضع المخلصين من القادة والمؤمنين والمجاهدين موضعاً حرجاً أدى بهم الى بذل المزيد من الدماء الغالية للحد من الانحراف السائد في الساحة.

وعوداً على بدء، أقول مؤكداً إن الروس حينما يستطيعون القضاء على قائد اسلامي محنك مثل الشهيد جوهر دوداييف في جمهورية الشيشان عبر تكنولوجيا فائقة وأسلحة متطورة فان هذا يؤكد - وبكل إلحاح - على حرمة الغفلة عن تطوير خططنا الاقتصادية والعسكرية والاقتصادية والسياسية والمخابراتية. وكما يتوجب علينا عدم الغفلة عن واقعنا المعاش ومستقبلنا المنظور، فانه من الأجدر بنا أن لا نغفل عن الاستفادة والاتعاظ بتجارب التأريخ وحركته. فعلى سبيل المثال؛ قد قرأنا بما فيه الكفاية عن أسباب سقوط الدولة العثمانية التي كان في مقدمتها الغفلة القاتلة التي أصابت السلطان العثماني وحكومته عن القفزات العلمية الهائلة التي كان يحققها المعسكر الغربي والذي كان يكيل بهذه القفزات الضربة تلو الضربة لهذه الامبراطورية الخامدة بداعي الاتكال على أن الاسلام يعلو ولا يعلى عليه، حتى وصل بها الأمر أن تسيطر عليها قوة علمانية تابعة بشكل مطلق للقوى الغربية والصهيونية التي هي بالأساس قوة معادية للاسلام والمسلمين وتعمل دوماً للقضاء عليهم. بينما نجد في الضفة الأخرى اهتماماً نبوياً واضحاً بملاحقة التقدم الصناعي في زمانه، إذ قام صلى الله عليه وآله بإرسال اثنين من شباب المسلمين فور سماعه نبأ ابتكار طريقة جديدة لصناعة السيوف في اليمن ليتعلما ويعودا إليه.

إن التوجيهات الشرعية ترشدنا بما فيه الكفاية الى أن تقدم الانسان والمجتمع رهين بالدرجة الاولى بما يقف عليه هذا الانسان وهذا المجتمع من يقظة وإحاطة بتطورات زمنهما، وكلما انحسرت نسبة الوعي بهذه التطورات كلما انحسرت نسبة القوة والوجود. ولقد كان حرياً بالمسلمين ولا يزال أن ينتبهوا الى أنفسهم، من أين جاؤوا وأين يقفون وبأي إتجاه يسيرون... فيجيبوا عن كل واحد من هذه الاسئلة ضمن مناهج تضمن لهم

تطبيقها استمرار الوجود والقوة. فإذا استيقنوا بأنهم يعيشون في دنيا زائلة، وأنهم صنيعة الإله القادر، وأنهم لا شك ملاقو ربهم، فهم من دون أدنى ريب سينجحون في خضم الاختبار الالهي، وإلاّ فانهم سيكونون كمن ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر/19). وقال الله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء/102)، وكما هو معهود أن القرآن الكريم يسلك سبيلين؛ الأول ظاهري، والثاني باطني. وهنا يبدو أن ظاهر الآية يؤكد أن أعداء الله يودون لو ننسى مواقع أسلحتنا، أو ننسى حملها. أما باطن الآية فانه يعني فيما يعني - أن أعداءنا يتمنون لوغفلنا عن الواجب الملقى على عواتقنا من تطوير أسلحتنا والتفوق عليهم. فالقرآن لا يدعونا الى عدم الغفلة عن مواقع أسلحتنا فحسب، بل ويدعونا الى عدم الغفلة عن استمرار قوة أسلحتنا وفاعليتها.

**أنواع الغفلة**

إن هناك نوعاً من الغفلة، وهو ما نطلق عليه بالغفلة الجبرية التي يتكرس معظم نماذجها بالغفلة التي تسبق الموت، وهناك العديد من الشواهد التي تشير إلى أن موت الأبطال كان بداعي هذه الغفلة، من قبيل مالك الاشتر، الذي قال عنه الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد موته: "يرحم الله مالكاً فقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله". [1] ولقد قضى مسموماً بجريمة دبرها له معاوية.

ولكن هناك نوعاً آخر من الغفلة أكثر ضرراً وأشد وقعاً ينشأ من تهاون المرء في عاداته وأموره؛ الضرورية وغير الضرورية، فأنت ترى العالم الكبير المعروف بالذكاء والعبقرية؛ تراه يموت موتاً فجائياً، وإذ تبحث عن السبب تجد ان أعداءه تمكنوا من التسلل إليه ليضعوا له السم في طعامه. أو أن

(1) بحار الأنوار، ج42، ص176.

تلك الشخصية الاسلامية العظيمة يتم اغتيالها بمطلق البساطة. وأكثر من ذلك أن حركات إسلامية ثورية انتهت بالتمام وقضي عليها بداعي التهاون والغفلة، في حين ان القرآن الكريم يحذرنا من الغفلة، ويؤكد علينا أن نواجه الأعداء حتى في حال إقامتنا للصلاة؛ وأن تكون أسلحتنا بمتناول أيدينا. فالاعداء يتمنون أن نضع أسلحتنا بعيداً ونصلي فيفاجئونا بهجوم سريع.

أعود وأقول: إن الحديث حول مسألة الغفلة حديث متشعب الجوانب، ولكن يجدر بنا القول إن احتمال الغفلة يطرأ على الانسان كل حين، وهي – الغفلة - تحدو ببني آدم الى ارتكاب المعصية ولا يذكروا ربهم أو ينتبهوا الى مصيرهم، فهم يشاركون يومياً تقريباً في مراسم تشييع أو دفن أصدقائهم ثم يخرجون وكأن حادثاً لم يحدث. فالبعض يعتقد بأن ميته مسافر وعما قليل سيقفل راجعاً، أو أن إيمانه بقوة بدنه وصحته يعوقه عن تذكر كونه مجرد بشر وأن الموت رسالة من الله إليه ينبغي أن يقرأها بإمعان بالغ.

إن غفلة الانسان عن الموت تصل درجة من السذاجة إلى أنه يصاب بالأرق طوال الليل بمجرد انتظاره لجلسة محاكمة قد يدان فيها يوم قابل، ولكنه لا يأبه ألبتة بما جاء في القرآن الكريم وما جاء على لسان الرسول الأكرم صلى عليه وآله والائمة عليهم السلام من أن محكمة يوم القيامة محكمة لا تمييز ولا استئناف فيها، بل هي حساب بلا عمل. وهو لا يأبه أيضاً بما تمر به من حوادث مفجعة يفقد فيها أقاربه وأصدقائه.

إذن؛ فالغفلة عن رب العالمين عز وجل هي أساس كل أنواع الغفلة، وإذا ما أصيب المرء بهذا النوع من الغفلة فانه سيكون عرضة لأنواع أخرى من النسيان والغفلة، من قبيل الغفلة عن النفس أو العرض أو المال أو الصحة.

# الحسد سجن الذات

قد يظل الإنسان يعيش في سجن نفسه، وقد يوفّق الى الخروج من هذا السجن من خلال الإرادة والتخطيط والمثابرة والاستقامة؛ بل إن الإنسان إنما جيءَ به إلى هذه الحياة الدنيا من أجل أن يخرج من هذا السجن، فان خرج منه دخل الجنة، وإن بقي فيه كان مصيره النار المحيطة بالكافرين كما يقول ربنا عز وجل: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة/49).

وفي هذا المجال – مجال الخروج من سجن الذات - يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر/9) وبعبارة أخرى؛ فانّ الإنسان الذي يخرجه الله تعالى من زنزانة ذاته، ويحفظه من شرّ نفسه، وينقذه من ضغوط هذه النفس الأمارة بالسوء، فانّه يكون قد تخلّص من النار، هذه النار التي نطلب من الله تبارك وتعالى أن يقينا شرها كل يوم عندما نقول في دعائنا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة/201).

وفي الحقيقة؛ فان النار في الدنيا هي هذه النفس، والنار في الآخرة تتمثّل في تلك الدار التي لا رحمة فيها، رغم أن رحمة الله جل وعلا قد وسعت كلّ شيء، فنعوذ به – تعالى – من هذه الدار التي يقول عنها الإمام علي عليه السلام إنها نار سجّرها الجبّار لغضبه.

إن هناك في النفس البشرية صفات وجذوراً للفساد يجب اقتلاعها،

وإلاّ فأنها لا تلبيث أن تتفرّع من جديد؛ ومن هذه الصفات المترسّخة في النفس صفة الحسد التي تتفرّع بدورها من جذر آخر وهو العيش في زنزانة النفس؛ أي أن يعيش الإنسان لنفسه ولوحده، ولا يعترف بالآخرين، ولا يقرّ بالحق. ولذلك فانّ الانسان الحسود يعيش لوحده، ولا يعترف بالناس، وكأنّه يريد أن يعيش لوحده في هذه الدنيا، ويريد خيراتها لنفسه.. ولذلك فانّ هذا الانسان إذا ما رأى انساناً آخر سعيداً فانّه يحسده على سعادته هذه، ويدعو دعاءً باطلاً أن تُسْلَب منه هذه السعادة لتكون من نصيبه هو فقط، وكأن رحمة الله تعالى ضيّقة لا تسعه إلاّ هو! في حين إنّ من المفروض في الإنسان أن يدعو الخالق أن يعطيه، ويعطي الآخرين في نفس الوقت ويجزل لهم في هذا العطاء. فمجرّد أن يدعو الإنسان للآخرين فانّ هذا سيكون سبباً لأن يستجيب الله تعالى لدعائه. وفي هذا عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: "من دعا لأخيه بظهر الغيب، وكّل الله به ملكاً يقول: ولك مثلاه ".[1]

**الحسد يمنع دخول الجنّة**

ولنعلم أنّ الإنسان الذي يحمل قلبه ولو ذرّة واحدة من الحسد لا يمكن أن يدخل الجنّة، لأن هذا الإنسان إذا حمل قلبه الحسد، فانّه سيعيش حالة الألم، ومن المعلوم أن لا مكان للألم في الجنة. فالأفضل للحسود - إذن - أن لا يدخل الجنّة ! لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (الاعراف/46) فأهل الجنة لا مكان للإنسان الحسود بينهم، فهم يعيشون حالة نفسيّة ملؤها السرور والحبّ والنقاء، كما يقول عزّ من قائل: ﴿إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر/47) فنفوسهم تبلغ من الصغاء والنقاء درجة بحيث إن الواحد منهم يشعر بالهناء واللذّة والسعادة عندما يرى إخوانه يتلذّذون وينعمون بالنعم

(1) بحار الأنوار، ج48، ص172.

الإلهية في الجنة، لأن قلوبهم واحدة. فنسأل الله جل وعلا أن يرزقنا دخول الجنة، وأن نعيش تلك اللحظات السعيدة؛ بل ذلك الأبد المليء بالهناء، والفرح، والسعادة.

إن هذه الصفات يجب أن تتحوّل الى صفات حقيقيّة، بل يجب أن يحوّلها الإنسان الى أهداف سامية يسعى للوصول إليها عبر حياته، وأن يسارع الى إزالة الصفات السلبية، فالانسان من الممكن أن يتسطيع الآن القضاء على الحسد، ولكنّه سوف لا يستطيع ذلك إذا توانى في البدء.

وفي هذا المجال يروى عن السّيد بحر العلوم أنه خرج من منزله ذات يوم وهو أشدّ ما يكون فرحاً وسروراً، فلمّا سئل عن ذلك قال: لأنّني استطعت اليوم أن أتغلّب على صفة الحسد في نفسي، وقد تمكّنت - والحمد لله - أن أقطع رأس الثعبان!!

صحيح إنّ الإنسان قد يكون من الصعب عليه في البداية أن يتغلّب على الحسد، ولكنّه يجب أن يسعى ويسعى حتّى يوفّق في النهاية الى اقتلاع هذه الصفة السلبيّة من نفسه، وحينئذ سيشعر بالراحة والاطمئنان، ويدرك أنّه قد أصبح من أهل الجنّة؛ لأنّه إذا رأى أخاه المؤمن وقد أنعم الله عز وجل عليه بنعمة، فانه يفرح لنزول هذه النعمة عليه، ويحمد خالقه قائلاً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر/10).

#### القرآن يعالج الحسد

وفي الآيات القرآنية التالية يشير الله سبحانه وتعالى الى صفة الحسد، وآثارها السلبيّة من خلال تذكيرنا بالمصير الذي آل إليه ابنا آدم اللذان قتل أحدهما الآخر: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَاَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الاَخَرِ قَالَ لاَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ

لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّيَ أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَآؤُاْ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة/27-31).

لقد كان بإمكان قابيل أن يتعايش مع أخيه، ولكنّ الحسد المستند الى أسباب تافهة هو الذي دفعه الى قتله، فراحت نفسه الأمّارة بالسوء توسوس له أنّ هابيل قد حصل على شيء أعظم منه وهو أنّ الله سبحانه وتعالى تقبّل قربانه، ولكنّه لم يتقبّل القربان الذي قدّمه هو. ويجيب هابيل على إحتجاجات أخيه بأنّ الذنب كان ذنبه هو، إذ قدّم لرب العالمين قرباناً هزيلاً، وإذ لم تكن لديه دوافع خالصة لوجه الله في تقديم هذا القربان، أمّا هابيل فقد جاء بغنم من أحسن ما تكون وضحّى بها في سبيل الله عز وجل.

وعندما ترك هابيل قابيل لشأنه ازداد الأخير حسداً، لأنّه رأى نفسه تنزل الى الحضيض في حين أنّ قابيل قد صعد إلى مدارج الكمال، فما كان منه إلاّ أن جاء بصخرة كبيرة، وضرب بها رأسه وهو نائم بعد أن علّمه الشيطان الرجيم طريقة القتل، وحينئذ بعث الله سبحانه وتعالى غراباً ينبش في الأرض بعد أن قتل غراباً آخر، ثم دفن جثّة الغراب المقتول، وعندما رأى قابيل هذا المشهد استولى عليه الندم، وبادر الى دفن أخيه وهو يؤنّب نفسه ويقرّعها، لأنّه عجز أن يكون مثل ذلك الغراب فيواري سوأة أخيه.

وبعد تلك الآيات التي يذكر فيها الله جلّت قدرته قصّة أوّل حسد في تأريخ البشرية، يقول تعالى: ﴿مِن أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً

**وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾** (المائدة/32)

**ثلاث حقائق أساسية**

وهنا أريد أن أتوقف عند هذه الآية الكريمة؛ إذ المعلوم أنّ السياق له دلالة، فما هي دلالة هذا السياق، ولماذا تأتي هذه الآية بعد سرد تلك الحادثة مباشرة؟ وهنا أستنبط من هذه الآية ثلاث حقائق أساسية هي:

1- ربّما تدلّ هذه الآية – خصوصاً وأنّها قد جاءت بعد الآيات السابقة – على أنّ أكثر أسباب القتل شيوعاً صفة الحسد.

2- إنّ الإنسان إذا عاش للآخرين، فانّه لا يمكن أن يحسد، وفي هذه الحالة فكأنّه أحيى الناس جميعاً. أما إذا عاش لنفسه فانّه سوف يضمر الحسد فيها، وفي هذه الحالة يكون بمثابة من يقتل الناس جميعاً، لأن الانسان الذي يعيش داخل إطار ذاته، ولا يقيم للآخرين أيّ وزن، بل يعدمهم من حسابه، فانّه سيقتلهم في نفسه قبل أن يقتلهم قتلاً مادّياً، ولذلك يقول القرآن الكريم: **﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾**. ذلك لأنّ الإنسان الذي يريد أن يزهق روح واحد من الناس فانّه لا يحترم الحياة، ويعيش في سجن نفسه.

3- إنّ القتل ليس هو القتل المباشر فحسب، فقد يكون هناك قتل غير مباشر، ولذلك جاء في الحديث الشريف عن محمد بن عبيد بن مدرك قال: دخلت مع عمّي عامر بن مدرك على أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام فسمعته يقول: "من أعان على مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل وبين عينيه مكتوب: آيس من رحمة الله". [1]

(1) بحار الأنوار، ج72، ص148.

وعلى سبيل المثال؛ فان الفتوى التي أصدرها شريح القاضي بقتل الإمام الحسين عليه السلام أدّت الى أن يحتشد ثلاثون ألف إنسان في كربلاء، كلّهم يريدون قتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام، والسبب في ذلك الكلمة التي صدرت من شريح الذي كان مدفوعاً بالحسد. فالعلماء يبتلون عادة بهذه الصفة، فهذا الرجل لم يكن يكنّ الحبّ للإمام الحسين عليه السلام، فقد كان يعلم أنّه لو جاء الى الكوفة فانّ أوّل ما يفعله هو عزله عن منصبه.

إنّ الإنسان الذي يغشى المجالس العامّة، ويتحدّث بالسوء عن المؤمنين الذين يجاهدون في سبيل الله تعالى، ويحاربون الطاغوت، ويبثّ الاشاعات حولهم، ويفشي أسرارهم، فانّما يساهم بعمله هذا في سفك دماء هؤلاء المجاهدين.

وفي الحقيقة فانّ المعلومات التي نجدها منشورة في الصحف الأجنبية، إنّما استقوها من مجالسنا، فهناك من يخوض في أسرار الآخرين بدون ورع، وبدون تقوى وخوف من الله تعالى، في حين إنّ من الحرام على الإنسان أن يهتك سرّ أخيه المؤمن، فإذا عمل عملاً رسالياً حسناً فلا يجوز له أن يكشف عن هذا العمل للسلطات الجائرة، وإذا عمل عملاً سيّئاً فلا يجوز له أن يشيع الفاحشة.

**الحسد الشرك الأكبر**

إن الحسد هو الشرك الأكبر الذي أعدّه الشيطان للإنسان، فلابدّ من أن نحذر من هذا الشرك وأن نبادر الى تقطيعه، لأن الشيطان يستدرج الإنسان فلا يعرف أنّه حسود في ذاته، فالشيطان يحاول إخفاء صفاته السيئة وتزيينها.

وعلى هذا؛ فانّ على الواحد منّا أنّ يستغفر الله كثيراً في كلّ يوم لئلاّ يأتي يوم القيامة وقد كتب على جبهته "آيس من رحمة الله".

إنّ هذه مجموعة حقائق استوحيناها من السياق القرآني الكريم، وهنا يمكننا أن نستوحي حقيقة أخرى وهي إنّ أساس تقدم مجموعة من الناس هو

إزالة الحسد. فبقدر ما تكون هذه الصفة الرذيلة سائدة في أوساط مجموعة أو شعب أو أمّة ما، بقدر ما ينتشر التخلّف بينهم. فعندما يكنّ الإنسان الحسد فانّه سوف يبحث عن أُسلوب لإزالة النعمة عن صاحبها ثم أخذها والاستحواذ عليها.

**عيش في إطار النفس**

إنّ أفراد مثل هذا المجتمع يعيشون دائماً في إطار أنفسهم، فلا يستطيعون أن يفجّروا طاقاتهم في اتجاهات جديدة، ولا يستطيعون أن يكتشفوا أبعاداً أخرى.

إن حكمة تحريم الحسد، والتأكيد على اقتلاعه من الذات أو على الأقل عدم السماح لها بالظهور بقول أو فعل، هي أن تتفتّح أمام البشرية آفاق جديدة. وإنّنا إذا أردنا أن نتقدّم، فعلينا أن لا نبحث عمّا في أيدي الناس، ولا ننظر الى ما يمتلكونه، ويتمتّعون به؛ بل علينا أن ننظر الى الحياة الواسعة، وإلى الآفاق الجديدة الممتدّة فيها، فانّنا في هذه الحالة سوف لا نجد أيّة مقاومة تذكر، كما وسنلاقي استقبالاً واسعاً، وستطمئن وترتاح ضمائرنا، لأننا لم ندخل الصراعات، ولم نورّط أنفسنا في الاختلافات.

**الحسد كفر بالنعم**

فلنفتّش عن مجالات جديدة، ولنحاول أن تكون مكمّلين للآخرين، لا مرادفين لهم، ولنعلم أن الحسد هو نوع من الكفر بالنعم، وذلك من خلال بعدين:

1- إنّ الإنسان الذي يحسد الآخرين إنّما يكفر بتقدير الله تعالى في تقسيم النعم. فالخالق هو الذي يقسّم الرحمة طبقاً لحكمته، ولا حق للإنسان في أن يتدخّل فيما لا يعنيه!!

2- إنّ على الإنسان الحسود أن يعلم أنّه يتناسى ويتغافل عن ملايين النعم التي أسبغها الله جل وعلا عليه، ليفتّش عن النعم التي أسبغها على الآخرين،

ويحسدهم عليها. في حين إنّ هذا الإنسان يمتلك القدرة على أنّ يتحرّك وينمو، ولكنّه يتناسى كلّ ذلك ليصبّ حسده على الآخرين. وهذا ما سيؤدّي الى أن يسلب الله تعالى منه هذه النعم ليبتليه بالنعمة التي حسد الآخرين عليها، ذلك لأنه عز وجل لا يرى أنّ من المصلحة أن يوفّر للإنسان الحسود كلّ هذه النعم.

**الحسد في الأحاديث الشريفة**

وفي هذا المجال ينقل لنا عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام روايات تتحدث عن الحسد وآثاره، منها تلك الرواية المرويّة عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، والتي يقول فيها: "إن الرجل ليأتي بأيّ بادرة فيكفر، وإنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب". [1]

فلنبادر -إذن- الى إيقاف هذه النار في نفوسنا قبل أن تأتي على البقيّة الباقية من إيماننا، ولنحاول أن ننقذ أنفسنا من هذه الصفات السيّئة - وخصوصاً صفة الحسد - لكي يصبح إيماننا إيماناً حقيقياً.

وبالنسبة الى الحديث الذي نقلناه فهو يعني أنّ أيّ ذنب من الذنوب من الممكن أن يكفّر عنه الإنسان إلاّ لحسد، فانّه من الذنوب التي يصعب التكفير عنها. كما إنّه يعني أنّ علينا أن لا نتصوّر أن الكفر بعيد عنّا، فالانسان من الممكن أن ينـزلق في هاوية الكفر بأيّة بادرة بسيطة تصدر منه.

وهناك حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: "كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر".[2] وهذا الحديث - بدوره له معنيان؛ الأول: إنّ الحسود يسهم في تقصير عمره، وإشقاء نفسه، والاستعجال على نفسه بالعذاب. والمعنى الثاني: إنّ الإنسان الحسود يقوم

---

(1) بحار الأنوار، ج70، ص237.
(2) المصدر، ج69، ص29.

بنفس الدور من خلال الطرف الآخر، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق/5).

وهناك أحاديث أخرى حول ذمّ صفة الحسد، منها الحديث عن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السلام قال: "لا يؤمن رجل فيه الشحّ والحسد والجبن، ولا يكون المؤمن جباناً ولا حريصاً ولا شحيحاً".[1] وأيضاً الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: "لا يطمعنّ الحسود في راحة القلب".[2] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "دبّ إليكم داء الأمم قبلكم؛ البغضاء والحسد".[3]

وما هذه الأحاديث إلاّ إخبار من قبل النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام بسبب تخلّفنا وتمزّقنا، وسيطرة الأعداء علينا. فنحن الآن نعيش أزمات سياسيّة وثقافية وحضارية متلاحقة، ولا يمكننا أن نتخلّص منها إلاّ من خلال القضاء على أسبابها، والحسد هو من ضمن هذه الأسباب.

فلنبدأ من أنفسنا وتجمّعنا وعلاقتنا مع بعضنا، ولنحوّل مسيرتنا المليئة بالتزاحم والصراع الى مسيرة للبناء والابداع، والبحث عن آفاق جديدية للعمل، وحينئذ ستكون مسيرتنا هذه مسيرة مباركة يحددها التقدّم والأمل.

---

(1) بحار الأنوار، ج64، ص364.
(2) المصدر، ج70، ص252.
(3) المصدر.

## الحرص واليأس؛ دليلان على عجز الإنسان

هناك منهجان رئيسيّان لمعرفة الله تبارك وتعالى؛ الأول هو النظر في آفاق الكون، والثاني هو التوغّل في أعماق النفس. فهذا الكون الرحيب بما فيه من مجرّات ضخمة يُعادَلْ في منهجيّة معرفة الله بهذه النفس البشريّة.

والسبب في ذلك أن نفس الإنسان هي أقرب شيء إليه، وفي هذه النفس آفاق لعلّها تكون في مستوى آفاق الكون. فهذه النفس التي يزعم الإنسان أنها مخلوق بسيط تنطوي على عالم كبير ينعكس فيها كما قيل:

أتزعم أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر؟

فعلى الرغم من أن جسم الإنسان يعتبر آية من آيات الله العظمى، إلاّ أن نفسه أعظم دلالة، وأقوى شهوداً.

والملاحظ أنّ القرآن الكريم عندما يحدّثنا عن الإنسان كإنسان، أو عن طبيعته الإنسانية فإنه يستخدم كلمة (الإنسان)، وعندما يحدّثنا عنه كمجموعة فانه يستعمل كلمة (الناس). أما عندما يتحدّث عنه بصفاته الخيّرة فانّه يعمد إلى استخدام كلمة (بشر) في كثير من الأحيان.

وهكذا؛ فان مراد القرآن من توظيف كلمة (الإنسان) هو التأكيد على الطبيعة الإنسانية، وفي هذا المجال يشير ربنا سبحانه وتعالى الى طبيعتين مهمّتين في الإنسان؛ أحدهما الحرص، والثانية اليأس. ونحن لو أمعنا النظر لاكتشفنا أنّ هاتين الحالتين تقفان على طرفي نقيض في نفس الإنسان.

والمعروف في هذا المجال أن حرص الإنسان لا يمكن أن ينتهي، فان ملك الأرض تراه يفكّر كيف يمتلك السماء. فالانسان يبقى حريصاً متطلعاً الى المزيد من متاع الحياة الدنيا حتّى يدفن تحت التراب. فالتراب وحده هو الذي يقطع طموحات الإنسان في الحياة الدنيا، ويحدّ من حرصه فيها.

وإلى هذه الحقيقة أشار القرآن الكريم في قوله: ﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ﴾ (فصلت/49). والمراد بالدعاء هنا هو طلب الخير، والبحث عن المزيد منه.

ومن جانب آخر؛ فانّ هذا الإنسان الذي لا تحدّ مطامحه وأطماعه، نراه عند مواجهة الشدائد والابتلاء بالمصائب سرعان ما يتحوّل الى كائن ضيّق الصدر، شديد اليأس، حتى تضيق الدنيا بما رحبت في عينيه. وقد بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله: ﴿وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (فصلت/49) أي أن هذه النفس التي كانت قبل لحظات تعيش الدنيا، نراها فجأة وقد ضاقت الدنيا بها لتعيش في سجن ضيّق.

وفي الحقيقة؛ فانّ اليأس والقنوط هما مثلان للضيق والانحسار، ودليلان على عجز الإنسان، وشدّة فاقتة. لأن الحرص يدلّ على الحاجة، وعدم الاستغناء؛ فأكبر الغنا وأعظمه هو غنا النفس، لأن الإنسان الذي يحرص في سبيل الحصول على المزيد من الدنيا يعيش الفقر الحاضر، لأن معنى الفقر هو التحسّس بالحاجة، والنفس الحريصة فقيرة لأنها تتحسّس بالحاجة، وتنتظر المزيد، والحاجة هي دليل المخلوقية، فالنفس – إذن- هي مخلوق محتاج.

**لماذا الحرص في نفس الإنسان؟**

وهنا يتبادر الى الأذهان التساؤل التالي: لماذا جبلت النفس البشرية على الحرص من دون الكائنات الأخرى؟

للجواب على هذا السؤال نقول: إن النفس البشرية قد خلقت -منذ خلقت- لتجاور رب العزة، ولتكون جليسة لديه، وهذه النفس قد تخطئ الطريق، فنراها بدلاً من أن تتوجّه الى الله، وتمتلئ عزة وكرامة وسعادة وفلاحاً، تتّجه الى الدنيا؛ وهي كلّما اتجهت الى هذا الحطام، فانها لا تشبع مطلقاً، لأن الدنيا هي أساساً ليست مادة من شأنها أن تشبع النفس البشرية. في حين إنّ ساعة من الصلاة، والذكر، والتوجه الى الله جل وعلا، تعطي الإنسان الطمأنينة والراحة كما يقول الله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد/28).

وعلى هذا الأساس؛ فان ذكر الله هو الذي يجعل القلب مطمئناً، أمّا الدنيا وما فيها فحتى لو حصل الإنسان عليها فانّه سوف لا يجد فيها الطمأنية والسكينة. ولذلك فان المؤمنين إنما بلغوا ما بلغوه من قمّة سامقة بتوجّههم إلى الله، وتعبّدهم، وتبتّلهم له. ونحن نقرأ في بعض الأدعية: "يا جليس الذاكرين".[1] فالذي يذكر الله سبحانه كأنما يجالسه، أفَلا يحبّ أحدنا أن يجالس ربّه، ويزوره، ويسمعه، ويتحدّث معه؟

إن الله تعالى يشير إلى هذه الحقيقة في قوله: ﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (فصلت/49) وفي هذه الآية التفاتة لطيفة، حيث يقول ربنا عز وجل: ﴿وَإِن مَسَّهُ﴾ أي إذا لامست الإنسان شهيق الشرّ فانّه يسقط مباشرة من قمّة الحرص الى وادي اليأس والقنوط.

#### آيات الله في النفس

ثم يتحدث القرآن الكريم عن آيات الخالق في الكون، وآياته في النفس. والصفة السابقة هي من آيات الله في النفس؛ فالنفس البشرية -إذن- بحاجة إلى بارئها، والى الاعتصام بحبله، لا أن تجري وراء طبيعتها، وتنساق في تيّار جبلتها، فتجتاحها - مثلاً- النزعة الى الربوبية؛ أي أن تصل الى مقام

(1) بحار الأنوار، ج99، ص56.

الربوبية، ومن أجل إقناع النفس بانّ هذه النـزعة مغلوطة، فلابدّ من أن نتوجّه الى حرصها من جهة، وإلى يأسها من جهة أخرى. فهذه النفس التي تحرص في يوم، وتيأس في يوم آخر، هي في الواقع تعتبر من جانب آخر دليلاً على الحالة الأولى للإنسان، فهو يمتلك حالتين؛ الحالة الأولى هي تلك الحالة التي تحدّثنا عنها، أما الحالة الثانوية التي يمكننا أن نسمّيها حالة التربية أو الحضارة أو حالة الإيمان، فإنّها تقع بالضبط في مقابل ذلك التوجّه.

وطبقاً لهذه الحالة؛ نرى الإنسان قنوعاً حتّى وإن لم يحصل إلاّ على قوت بسيط يقيم به أوده، ونراه إيجابياً متفائلاً وإن مرّت به أسوأ الظروف. وهذه النفس إنما وصلت إلى هذه القمّة من الإيجابية، والأمل، والحيوية بفضل الإيمان، والاتّصال بالله سبحانه وتعالى.

# الأنانية؛ عقبة في طريق التقدم

لا شك أنّ المشكلة الأساسية التي تعاني منها الأمّة هي الأنانية التي تتجسّد في عدّة مظاهر، ولكنّها تشترك في كونها عقبة في طريق الأمة نحو الصمود والتقدم.

**مظاهر الأنانية في سلوكنا**

إن العالم يفترق ثم يتحد، ويحارب ثم يصطلح، وقد يظلّ طرفان يتحاربان عشرات السنين ولكنّهما بعد ذلك يصطلحان ويتعاونان ويتبادلان مع بعضهما البعض التكنولوجيا.. وقد يستمرّان في الصراع ولكنّهما - في نفس الوقت - يتعاونان في حدود معيّنة. أما نحن الذين نعتبر أخوة سائرين على خط واحد، فترانا لا نبادر الى التعاون، لوجود الأنانية المتجذّرة والمتأصّلة في نفوسنا؛ هذه الأنانية التي لم نستطع التخلّص منها، من الممكن أن تتنامى وتتجسّد في عدّة مظاهر منها:

1- إن تطوير البرامج لا يعني أبداً أن نلقي بالشتائم على من كانوا قبلنا، فقد تكون لهم أعذار معيّنة، وقد تكون ظروفهم مستوجبة لوضع البرامج التي اختاروها لأنفسهم، وقد يكون عدم الاستطاعة هو الذي أصبح عقبة في طريق تطويرهم للبرامج.. وهكذا قد يكونون معذورين لألف سبب وسبب.

إن علينا أن نبدأ ونفكّر ونقوم بعمليّة التطوير من جديد، وهذه الفكرة هي الفكرة الصحيحة التي يجب أن نحملها، لأنّ هناك طائفة من الناس يأخذون

من الأمور قشورها، ويتركون اللّب، فتراهم يلقون بالمسؤولية على الأجيال السابقة، ويتملّصون منها. أما نحن فنقول ما قاله القرآن الكريم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة/134) فسواء فعلوا خيراً أم شـرّاً، فاننا نبقى مسؤولين عن أنفسنا.

وبالإضافة إلى ذلك فانّنا يجب أن لا نلغي دور السابقين من فكرنا، فهناك نقاط إيجابية كثيرة في حياتهم، ومواقفهم، علينا أن نستغلّها في تطوير برامجنا، والسير بها نحو الأفضل.

2- إنّ الذين ينظرون الى الأجيال الماضية نظرة تشاؤميّة لا يمكن أن يدفعهم الإيمان والعمل الصالح الى مثل هذه النظرة. ومن المفترض في الإنسان أن تدفعه القدوات الصالحة الى العمل، لا أن تثبّطه القدوات السلبيّة الفاسدة. ومن الممكن أن يكون السابقون على حق، وعلى الصراط المستقيم؛ فهم قد عملوا، وبذلوا الجهود، ونحن أيضاً يجب أن نعمل؛ فلهم ظروفهم، ولنا ظروفنا، وكلٌّ مسؤول عن ظروفه، وعمّا يجب أن يعمله في هذه الظروف بالذات.

ومن جهة أخرى فانّنا يجب أن نستلهم من جهود السابقين دروساً لمتابعة أعمالنا، فالانسان لا يمكنه أن يعمل منقطعاً ومنفصلاً عن تأريخه؛ فهو يمثّل سلسلة تتأثّر بالحلقة الأولى كما تتأثر بالحلقة الوسطى حتّى تصل إليه، وجميع هذه الحلقات يجب أن تلهمنا الدروس والعبر الصالحة. فنحن يجب أن لا نلغي دور السابقين من عملنا وفكرنا، فقد كان لهم دورهم، وكانت لهم جهودهم وأتعابهم، ومع ذلك فانّنا يجب أن لا نقتصر على هذا الدور، بل يجب أن نكمل المسيرة، والإكمال هذا هو التغيير، والتطوير هو البناء وأن نضيف شيئاً جديداً.

3- وثمة أنانية تظهر داخل الفئات المختلفة من المسلمين؛ فهناك من يعمل في العراق، وهناك من يعمل في إيران أو أفغانستان... وكلّ هؤلاء يمثّلون أخوة، وقد يكونون محقّين، فلا نلغي أدوارهم، ولا نفكّر بأنّنا يجب أن نكون أفضل منهم، ونتخذ مواقف عنصرية ازاءهم. فلكل وردة رائحة، واختلاف الأدوار هو من مقتضيات الخلق، ونحن عندما نؤدي دوراً فانّ هذا لا يعني أنّ الآخرين لا يؤدّون أدواراً أخرى.

**الآثار السيئة للأنانية**

إن مشكلة الأنانية تظهر بوضوح عندما نجابه العدوّ، فاذا بنا نكتشف أنّنا قد تآكلنا من الداخل، وأصبحنا أضعف ما نكون، وفقدنا القدرة على مواجهة العدو الذي استطاع في غفلة منّا أن يتكامل، ويتبادل التعاون، ويوزّع الأدوار.

وعلى هذا؛ فانّ الأدوار يجب أن لا تلغي بعضها بعضاً، فكلّ واحد منّا له دوره، فلنحاول أن نجعل بين الأدوار نوعاً من التكامل لكي نكون قادرين على مواجهة العدو، ومتمكّنين من تحقيق الانتصار بإذن الله تعالى.

# طول الأمل؛ آثاره وعلاجه

من الأماني الغفلة عن الزمن، وما يحمل في طيّاته من مفاجآت؛ ومن أكبر هذه المفاجآت الأجل الذي يترصّد الإنسان في كلّ منعطف، وفي كلّ لحظة، ولو أن الإنسان حسب حساب الأجل وما يحمله لـه من مفاجآت بعده لاعتدل في أمانيه، وحدّد أمله واتجه اتجاهاً كلّياً الى العمل الصادق.

**الإنسان يعيش لحظته**

وفي آيات من سورة المعارج هناك بعض الارشادات والتوجيهات التي من شأنها إذا ما استوعبناها أن تقصّر عنّا الأمل من خلال صدق العمل، ومن ضمنها الآية الكريمة التي تقول: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ (المعارج/19-22) فمن طبيعة الإنسان أنّه يعيش لحظته التي هو فيها دون أن يفكّر في الزمن القادم إليه، وهذه الطبيعة هي التي تجعله على تلك الشاكلة التي وصفتها لنا الآية القرآنية؛ فلا يفكّر بأنّ الشر من الممكن أن ينـزاح عنه، بل يتصوّر أنه محيط به، ومستمرّ معه فلا يحسب حساب المستقبل. أمّا إذا أقبل عليه الخير فانّه يصبح منوعاً، لأنّه لا يدرك أنّ هذا الخير قد يزول عنه، وأن الشخص الذي يحتاج إليه اليوم من الممكن أن يحتاج هو إليه، فتراه منوعاً ممسكاً يده عن الإنفاق.

أمّا المصلّون ـ كما تصرّح بذلك الآية السابقة ـ فانّهم الوحيدون الذين

يرتبطون بالمستقبل عبر ايمانهم بالله عز وجل، وهم الذين ينظرون الى الأمور نظرة حضارية، وهذه هي خلاصة ما نستفيده من الآية الكريمة.

**الاستعجال بالشرّ**

وفي الآية الأولى من سورة المعارج يقول عز من قائل: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (المعارج/1) مشيراً الى أنّ الإنسان يستعجل الشرّ كما يستعجل الخير، كما يشير الى ذلك ربنا سبحانه في آية أخرى قائلاً: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ (الاسراء/11) فهو يدعو أن ينزل عليه الشر كالموت، وكعذاب القبر، وهول المطلع..

وعلى الرغم من إيمان الإنسان بهذه الحقائق المستقبلية، إلا أنّه يريد أن يدخل فيها، ويستعجل وقوعها. فتصوّره للمستقبل يكون عادة عبر نظارة مصغّرة معكوسة تبعد الرؤية بدلاً من أن تقرّبها، أمّا الإنسان المصلّي المؤمن فانّه ينظر الى المستقبل من خلال (تلسكوب) يقرّب البعيد. في حين إنّ الإنسان الكافر المشكّك في الحقائق يفعل العكس من ذلك فيرى القريب بعيداً، ولذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (المعارج/2). فعلينا أن نطمئن الى أن العذاب الإلهي حتميّ لا يمكن دفعه.

**التأني الإلهيّ**

ثم يضيف ربّنا تعالى قائلاً: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج/3-4) فان كان قلبك -أيّها الإنسان- صغيراً، ونظرتك محدودة، وإن كنت مستعجلاً للأمور، فانّ الله سبحانه وتعالى ذو تأنٍّ لا يستعجل، ولا تعجله الحوادث، لأنه لا يخاف الفوت، فيوم واحد عنده هو كخمسين ألف سنة مما نعدّ ونحصي. فأنت -أيّها الإنسان- صغير، محدود النظرة، وتريد أن تكتشف الأمور وتراها الآن، في حين إنّ ربّك حميد لا يخشى الفوت، ولا يخاف مرور الزمن.

وعلى سبيل المثال؛ فان الله جل وعلا أعطى لعدوّ الإنسان الأكبر إبليس عليه اللعنة المهلة، إذ طلب منه أن ينظره، فأمهله إلى يوم القيامة، وسمح له أن يغوي أبناء آدم حيث شاء؛ يأتيهم من اليمين والشمال، ويقعد لهم على كلّ طريق ليضلّهم عن السبيل، ومع ذلك فانّه في حدود مهلة الله، وفي حدود الفرصة التي منحها لـه، لأن الله سبحانه لا يخشى أن يهرب إبليس منه، ولا يخاف أن ينسى ذنوبه، فانّ ذهب هذا الكائن الرجيم شرقاً أو غرباً، أو صعد إلى السماء أو نزل الى الأرض فانّه في قبضته.

وهكذا فانّك -أيّها الإنسان- تستعجل العذاب ولكنّ الله لا يستعجله، بل يعطيك المهلة فلا تغترّ بها، ولا تقل إنّ الله تعالى لم يعذبني لحدّ الآن رغم مرور ستّين أو سبعين سنة من عمري - مثلاً - ولا تقل إنّه إن كان يريد أن يعذّبني فقد كان من المفروض أن يعذّبني خلال تلك السنين الماضية!

**طول أمل الإنسان**

وفي هذا المجال يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: "يهرم ابن آدم وتشبّ منه اثنتان: الحرص والأمل".[1] وإنّ علينا - إذا كنّـا متقدّمين فـي السنّ - أن نتذكر أيام المراهقة والشباب، فكلّما تقدّم بنا السنّ كلّما غاب عن بالنا الموت أكثر. في حين إن ملك الموت ينادي بنا يومياً بـأن نستعدّ للموت، ونتوقّع حلوله في أيّـة لحظة من اللّحظات، ولكن عندمـا تكون الأذن صمّاء، والعين عمياء، فهل يستطيع الإنسان أن يرى أو يسمـع شيئاً؟!

**الصبر شيمة المؤمن**

ثم يقول ربّ العزة آمراً رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بالصبـر: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ (المعارج/5)؛ أي اصبر على المشاكل والصعوبات، لأنّ

(1) بحار الأنوار، ج74، ص160.

الإنسان الذي يفكّر في المستقبل يستهين بالمصاعب، بل لا يراها مصاعب أصلاً. فالانسان المؤمن الذي محور تفكيره بلوغ رضا الله تعالى، والفوز بالجنة، لا يمكن أن يفكر في مشاكل الدنيا، فتعرّض نفسه عن الشهوات، وتصبر على الصعوبات، ويصبح بمقدوره اقتحام العقبات بقوّة الإيمان، لأنّ رؤيته متّجهة الى المستقبل.

ونتيجة للرؤية المحدودة للكافرين فانّهم يرون يوم القيامة بعيداً بسبب طول أملهم، ويتصوّرون أنّ العقبات بعيد عنهم لأنهم يرون الموت الذي هو بوّابة العقاب بعيداً، بينما الإنسان المؤمن يراه قريباً.

ثم يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ﴾ (المعارج/8). وللأسف فانّ الإنسان يرى أنّ يوم القيامة هو شيء مجهول، في حين إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "من مات فقد قامت قيامته".[1] ونحن بالاضافة الى ذلك طويلو الأمل، وهذه من الأمنيات التي يقول عنها ربنا تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَيَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة/78) ويقول أيضاً: ﴿أَم لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (النجم/24).

ولا نبالغ إن قلنا إننا جميعاً نتمنّى أن نعيش لآلاف السنين، ولكن هل نستطيع ذلك؟ فلو كان الخلود بضاعة تشترى لاشتريناه، ولكنّه - للأسف - لا يمكن أن يشترى، فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ﴾ (الزمر/30)

**طول الأمل من الأماني**

وهكذا فانّ طول الأمل هو من الأماني، كما أنّه يبعد الإنسان عن صدق العمل، فان وقفت بين يدي ربّك لتصلّي ففكّر أنّ صلاتك هذه هي الصلاة

(1) بحار الأنوار، ج58، ص7.

الأخيرة، وصلِّ صلاة المودّع، وإن قمت بعمل خير فتصوّر أنّك تقوم بهذا العمل في الوقت الأخير من أوقات حياتك، وإن ألقيت خطاباً فليكن خطابك هذا مما يحفظ عند الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا المجال يقول النبي صلى الله عليه وآله: "من كان يأمل أن يعيش غداً فانّه يأمل أن يعيش أبداً".[1] فالذي يقول إنني سأعيش غداً، فلابدّ من أن يقول إنّه سيعيش أبداً. ذلك لأنّ الإنسان الذي يفكّر في أن يبقى غداً، فانّه في الحقيقة يفكّر في أن يتحدّى أسباب الموت أو أن يكون قادراً على تحدّي أسباب الوت. ومن المعلوم أن لا أحد بإمكانه أن يتحدّى هذه الأسباب.

**المسارعة الى الأعمال الصالحة**

إن الإنسان المؤمن يحاول دائماً أن يحصل على رضوان الله ونعيمه الأبديّ من خلال المسارعة الى القيام بالأعمال الصالحة، والمبادرة الى التحلّل من الذنوب التي ارتكبها بحق الآخرين؛ فان اغتبتَ شخصاً فحاول أن تصل إليه لكي تسترضيه عن غيبتك له، وإن كانت هناك ذنوب أخرى متراكمة على قلبك فانّ عليك أن تبادر الى الاستغفار من الله تبارك وتعالى. فمن المفروض بك أن تحاول بأيّ شكل من الأشكال أن تنقذ نفسك من أهوال يوم القيامة، وألوان عذاب النار.

ومع ذلك؛ فانّ الإنسان يحلم بالبقاء، ويعيش أحلام اليقظة.

**أهوال يوم القيامة**

ثم يقول القرآن الكريم محدّثاً إيّانا عن أهوال يوم القيامة: ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلاَ يَسْاَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمئذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ* وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ* وَمَن فِي الأَرْضِ**

(1) بحار الأنوار، ج70، ص167.

جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ (المعارج/8-14) فالإنسان يوم القيامة يكون مستعدّاً لأن يؤخذ منه كلّ ما أعطي له في الدنيا من أموال، وأزواج، وأولاد، وأصحاب وما إلى ذلك كان حبّها يحجب عنه الرؤية الصحيحة فلا يرى الآخرة؛ إنّه سيكون مستعدّاً للتنازل عنها جميعاً في مقابل أن يتخلّص من عذا النار. ولكن الجواب يأتيه من الربّ الجليل قائلاً: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى* نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (المعارج/15-17).

إنّ الإنسان عندما يرى النار يبدي إزاءها ردود فعل طبيعيّة، فيهرب منها، ويحاول أن يتجنّبها، وفي يوم القيامة يحاول الإنسان أن يهرب من النار. ومن أجل أن يعاد إليها تنعدم الحاجة الى الملائكة ليأخذوه، ويضعوه في النار مرّة أخرى رغم أنّ الملائكة موجودة في يوم القيامة وبعدد كاف، فالنار هي نفسها تدعو الإنسان الى أن يعود إليها. وهذا ما يشير إليه عز وجل في قوله: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (المعارج/17-18).

**مشكلة الإنسان**

ثم يقول ربنا عز وجل واصفاً الطبيعة البشرية المجبولة على الضعف: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (المعارج/19-21) فمشكلة الإنسان أنّه يعيش في لحظته وللحظته، ولا يفكّر في المستقبل، ولو أنّه فكر في المستقبل لوضع في حسبانه الموت وما بعده، ولغيّر نمطه وطريقته في الحياة بشكل كامل.

إنّ الإنسان تؤذيه المصائب، وتجعل يجزع، ويستسلم لليأس والقنوط، والمشاكل تحطّمه، ولكنّ الإنسان المؤمن يتحدّى جميع تلك المصائب، وإذا ما أقبل الخير على الإنسان تراه يفكّر بالإبقاء على هذا الخير، ومنعه عن الناس، فلا يفكّر في المستقبل، وفي أنه قد يحتاج الى الآخرين غداً.

ثم يستثني الله تعالى المؤمنين المصلّين المحافظين على صلاتهم من تلك الحالة، فيقول عزّ من قائل: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (المعارج/22-26).

وفي الحقيقة فانّ التصديق على نوعين: أن يصدّق الإنسان بنظرائه، أو أن يصدّق بعمله. والمؤمنون يصدّقون بيوم الدين بشكل عمليّ، فالواحد منهم عندما يمتلك شيئاً فانّه لا يقول إنّه ملك لي كلّه من دون الناس، بل إن نصفه لي، والنصف الآخر للناس، فتراه يهب أمواله للآخرين.

**المؤمن وجل دائماً**

ومن ضمن الصفات الأخرى لهذا الإنسان المؤمن؛ أنّ قلبه يعيش حالة الوجل، والخوف كما يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ﴾ (المعارج/27). والإنسان المؤمن لا يتكلّف هذا الخوف، بل إنّه حقيقة عنده، فيتّقي الله سبحانه وتعالى ولا يكذب. أما الإنسان الذي لا يستشعر الخوف من الخالق ومن العذاب الذي أعدّه يوم القيامة، فتراه يرتكب الذنوب، فان قيل لـه: اتّق الله، أخذته العزّة بالاثم. ومثل هذا الإنسان حسبه جهنّم وبئس المهاد.

ثم يقول عز من قائل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ (المعارج/28) فالانسان لا يمكنه أن يأمن عذاب الله، ولا يمكن لأيّ أحد مهما كان أن يعطى الضمان بأنّه سوف لا يتعذّب.

**طول الأمل يمنع الرؤية الصحيحة**

وخلاصة القول؛ إنّ الإنسان الغافل المغترّ بطول الأمل لا يرى الحياة كما هي، بل يراها بصورة معكوسة ومقلوبة، وغير طبيعيّة، وهو لا يرى المستقبل، ولا يعيش الحقائق؛ بل يعيش الأحلام، ولا يعيش الجدّية في العمل؛ بل يعيش دائماً في حالة اللهو واللعب.

وهناك أحاديث شريفة كثيرة تحثّ الإنسان على أن يكون جدّياً في نظرته الى الحياة كقول الإمام عليّ عليه السلام: "أما بعد أيها الناس فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإنّ الآخرة أقبلت وأشرفت باطّلاع. ألا وإنّ المضمار اليوم وغداً السباق، والسبقة الجنّة والغاية النار، ألا وإنكم من أيام مهل من ورائه أجل يحثه عجل، فمن أخلص الله عمله لم يضره أمله، ومن بطأ به عمله في أيام مهله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أمله. ألا فاعملوا في الرغبة والرهبة، فان نـزلت بكم رغبة فاشكروا الله، واجمعوا معها رهبة، وإن نزلت بكم رهبة فاذكروا الله، واجمعوا معها رغبة، فإن الله قد تأذن للمحسنين بالحسنى، ولمن شكره بالزيادة، ولا كسب خير من كسب ليوم تدّخر فيه الذخائر، وتجمع فيه الكبائر، وتبلى فيه السرائر، وإنّي لم أر مثل الجنّة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها. ألا وإنّه من لا ينفعه اليقين يضرّه الشك ومن لا ينفعه حاضر لبّه ورأيه فغائبه عنه أعجز. ألا وإنّكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد، وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل، لأنَّ اتباع الهوى يصدّ عن الحقّ وطول الأمل ينسي الآخرة. ألا وإنَّ الدنيا قد ترحّلت مدبرة وأنّ الآخرة قد ترحّلت مقبلة، ولكلّ واحدة منهما بنون فكونوا إن استطعتم من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدّنيا، فـإنَّ اليوم عمـل ولا حساب
وغداً حساب ولا عمل".[1]

إنّ مثل هذه الأحاديث الشريفة وغيره تهتف بنا أن نزهد في الدنيـا، ونضع الآخرة نصب أعيننا، ولكنّ من صفات القلب المتحجّر القاسي طول الأمل، فتراه يسوّف ويؤفّر، ويقول غداً وبعد غد، وإنّ الشيطـان ليرضى من أحدنا أن

(1) بحار الأنوار، ج74، ص417.

يؤخّر عمله من لحظة الى أخرى، إلاّ أنّ الأذن - للاسف الشديد - صمّاء، والعين عمياء، وهذا يعني أنّ الانسان ذو قلب قاس، فلنحذر من قسوة القلب هذه.

**لنقصّر من آمالنا**

فلنقصّر من آمالنا، ولنتصوّر أن الساعة التي نعيش فيها الآن هي آخر ساعة من ساعات حياتنا، ومع ذلك فانّ الإنسان إذا فكّر في المستقبل تفكيراً جدّياً وبناءً فانّ هذا لا يعني أنه طويل الأمل. فالتفكير الجدّي في المستقبل هو غير الأمنية، ومن يفكّر في مستقبل حياته في سبيل الله سوف يعطى الأجر الجزيل، لأن هذا العمل مطلوب من الله عز وجل، وقد جاء عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، أنه قال: "اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً".[1]

فلنحذر - إذن - أشدّ الحذر من (طول الأمل) بمعناه السلبيّ الهدّام، ولنحاول أن نجعله ذا معنىً إيجابي من خلال التخطيط للمستقبل، ووضع برامج للقيام بالأعمال الصالحة، لا أن يدفعنا (طول الأمل) الى نسيان الآخرة، والغفلة عن ذكر الله تعالى، وبالتالي التعرّض في يوم القيامة للعذاب الإلهيّ الأليم.

## الأماني تحجب البصيرة

(1) المصدر، ج44، ص139.

من الناس من يعيش الوهم، ومنهم من يعيش الحقيقة، وبين الوهم والحقيقة مسافة شاسعة هي كالمسافة بين الباطل والحق، وهذا الوهم الذي يعيشه الكثير من الناس - إلاّ من أدخله الله في رحاب الحقيقة - يسمّى في بعض الحالات بـ (التمنّي).

إن تصريح القرآن الكريم الذين لايعلمون الكتاب إلاّ أماني في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَيَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة/78) وقوله: ﴿أَم لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (النجم/24) وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمنّي ولكن الإيمان ما خلص في القلوب وصدقته الأعمال".[1] والأحاديث الشريفة التي تؤكد على أن التمنّي قد يحجب البصيرة ويؤدي الى الحق... كلّ ذلك وغيره يدعونا الى أن نتدبّر في معنى "التمنّي" ونتساءل قائلين: هل يجب أن نعيش الأمنيات أم الحقائق؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول: إنّ الإنسان مسؤول عن نفسه قبل كلّ شيء؛ فقبل أن يكون مسؤولاً عن عمله فانّه مسؤول عن فكره، وقبل أن يكلّف بالعمل الصالح فانّه قد كلّف بالإيمان الصادق، وهذا الإيمان يتبع البصيرة النافذة، وهذه البصيرة لا تكون إذا كانت بينها وبين الإنسان حجب.

ومن هذه الحجب (الأماني)، فهي لا تحجب الإنسان عن الحقيقة فحسب، بل إنّها - في بعض الأحيان - تقلب وتعكس أسباب الهداية والتوجيه، وكلّ أسباب وعوامل التبصّر. فالأمنية هي أشبه بالمرآة التي تنعكس عليها الحقائق بصورة مقلوبة، أو هي نظارة سوداء داكنة لا تجعل الإنسان يرى الحقائق كما هي، بل كما تضفي عليها نفسه وأخلاقه، فلا يرى الحقائق إلاّ ممزوجة بتلك الأوهام.

---

(1) بحار الأنوار، ج75، ص253.

**كيف نتجنب الأماني؟**

وهنا من حقّنا أن نتساءل: هل نحن نعيش الأماني، وكيف نستطيع أن نتحدّى ونقاوم شبح الأمنية في حياتنا، وإذا كان الرسل - وهم الذين حملوا رسالة ربّ العالمين - معرّضين للتمنّي فكيف بنا نحن؟

إننا - للأسف - نعيش الأمنية الى درجة أنّنا لا نستطيع أن نغمض أعيننا من دونها. فلو لم تكن الأماني هي التي تخدعنا، ولو لم تكن الأحلام هي التي تبرّر أعمالنا لسهرت عيوننا من خوف الله عز وجل، ولو جلت قلوبنا لذكره، ولكانت الحقائق واضحة أمامنا، ولما غفلنا عن المـوت وما وراءه، ولو كانت الأماني بعيدة عنّا لعشنا حبّ الله، ولما استقرّت جنوبنا على مضاجعنا... ولكن حيث لا ترى المسبّب فانّ هذا يعني أن لا وجود للسبب، وحيث لا نرى المعلول فلابدّ من أن نهتدي الى أنّ العلّة مفقودة.

إن الله تبارك وتعالى خلقنا على فطرة الإيمان والتوحيد كما يقول عز من قائل: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم/30) ولقد أعطانا الله هذه الفطرة النقيّة الطاهرة، ولكن لابدّ من أن نعرف ونكتشف العامل الذي جعل هذه الفطرة مدنّسة كما يشير ربنا عز وجل الى ذلك في قولـه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس/ 7-10) فالنفس هي بمثابة مصباح مضيئ تنطلق منه أشعّة التوحيد، أمّا إذا دسّت هذه النفس في تراب الأمنيات والأحلام فانّ شعلة الإيمان والتوحيد فيها سوف تخبو.

**الأمنية، إفراز النفس**

فلنطرح على أنفسنا هنا التساؤلات التالية: هل نحن نعيش الأماني أم الحقائق، وهل نحن مصداق قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَيَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ

أَمَانِيَّ﴾ (البقرة/78) أو قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الانفال/2)؟

إن علينا أولاً - ومن أجل أن نهتدي إلى الاجابات الشافية على تلك الأسئلة- أن نعرف أنّ الأمنية تأتي من إفراز النفس، لأن في داخل الإنسان قوّتين هما: قوة العقل، وقوّة الجهل. ففي نفس الإنسان قوىً متعارضة، فقوةّ العقل - كما تصرّح بذلك الأحاديث الشريفة - مزوّدة بسبعين جندياً، كما أن قوة الجهل مزوّدة هي الأخرى بنفس هذا العدد. فالجهل هو قوّة تفرز، وتلد، وتنتج، والأمنية تعتبر واحدة من إفرازاتها.

والإنسان قد يحقّق هدفه في الواقع الخارجي، وقد لا يستطيع ذلك، فيحاول تحقيقه عبر الأماني، لأن الأمنية هي إفراز النفس من أجل تعويض العجز والضعف، وللتنفيس عن الفقر والحاجة؛ وعلى سبيل المثال فهناك من يحلم في ليله ونهاره بالمستقبل المشرق، والحياة المرفّهة، ذلك لأنه يعيش النقص، وهو يريد أن يعوّض عن هذا النقص بالتمنّي لا بالعمل والتخطيط. وهذا الإنسان يختلف اختلافاً كلّياً عن ذلك الذي يخطّط ويقرّر ويعمل، لأن العمل لا ينتج عن الأمنية في حين أن الأمنية تأتي من إفراز الهوى.

**صور الأماني في النفس البشرية**

ولابد من الإشارة إلى أنّ أمنية الإنسان قد تأتي في صورة التعويض عن نواقصه، وقد تتجسّد في صورة التعويض عن أهدافه، كما وقد تتمثّل في صورة تضخيمه من خلال الغرور أو سر التبديل الذهني للحقائق الصعبة الى حقائق وأفكار سهلة وميسورة. وفيما يلي سنستعرض تلك الصور:

1- **التعويض عن النقائص.**

من المسلّم به أنّ الانسان يبدأ حياته ناقصاً، فهو عندما تلده أمّه لا يعلم شيئا كما يشير إلى ذلك ربنا سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾

(النحل/78) فبداية الانطلاق يكتنفها النقص والعجز، ولكنّ البعض لا يريد الاعتراف بهذا النقص، فيحلم - مثلاً - بأنّه عظيم، وأنّ التأريخ سوف يذكره. وكثيراً ما تذكّر هذه الأحلام في سنّ المراهقة، والمشكلة ليست في وجود هذه الحالة في هذه السنّ، بل المشكلة في استمرارها؛ فهناك البعض يبقى في سنّ المراهقة لفترة طويلة حتى يصطدم بواقع الحياة، فهو لا يقبل من أحد أن يوجّهه الى أخطائه، بل كلّ ما يريده أن يُمدَح ويثنى عليه بما ليس فيه.

إنّ خطر هذه الأحلام أنها لا تدع الإنسان يسيطر على نواقصه، فتتراكم عليه هذه النواقص. فالأحلام هي التي تحجبنا عن حقيقة أعمالنا، وفي الغد سنصطدم بالحقيقة، وقد قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"[1] فعلى الإنسان أن يحذر من أن يعيش أجواء الخيال، وعالم الأماني.

**2- التمني لتحقيق الأهداف.**

إننا عندما نهدف الى بناء حكومة إسلامية عالميّة، وإقامة العدل والحريّة والرفاه لكلّ البشر فعلينا أن لا نعيش في خيال الانتصار، وأمنية الظفر، بل يجب علينا أن نعمل للهدف؛ وأضعف هذا العمل هو الدعاء بالنصر والغلبة، ومع ذلك فان الدعاء الجامد غير المقترن بالعمل لا يمكن أن يتمخّض عن نتيجة. فالهدف المتمثّل في بناء مؤسسة حضاريّة بحاجة الى جهد ومثابرة، وإلاّ تحول ذلك إلى سراب.

ومن المعلوم إنّ الله تعالى لا يعطي النصر بالأماني، لأنّ النصر مقرون بالحركة كما يشير ربنا عز وجل الى ذلك في قوله: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج/40).

---

(1) بحار الأنوار، ج4، ص43.

3- **الغرور والعجب.**

إنّنا بحاجة الى نعم الله وأفضاله، وكلّما ازدادت نعم الله تعالى على الإنسان ازدادت مسؤوليته في اداء حقوق الله. فعندما يزداد الإنسان نعمة، تزداد حاجة الناس إليه، وبالتالي تزداد واجباته، وتكبر مسؤولياته. فعليه - إذن - أن لا يصاب بالعجب والكبر حتى لا يقصّر في أداء مسؤولياته الملقاة على عاتقه؛ فكلّما ازداد الإنسان غروراً وتكبّراً قلّت نسبة إتقان العمل لديه. وعلى هذا؛ فانّ الإخلاص هو طريق الإنسان لنيل نعم الله تبارك وتعالى ورضوانه، أمّا الكبر فهو الطريق المؤدّي الى عذاب الله وهوانه. فنحن لا يمكننا أن ننال الثواب يوم القيامة من دون أدائنا لمسؤولياتنا.

4- **تحويل أسباب الهداية الى أسباب للانتكاسة.**

هناك من يفسّر القرآن حسب أهوائه، ويحمّله ما لا يحتمله؛ فعند قراءته لآيات القرآن فإنه يصنّف نفسه مع الذين آمنوا، ويبعد عن نفسه الآيات التي تذكر الكفّار والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَيَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة/78) وهذه الأماني تتحول من أحلام داخلية إلى خارجية من خلال التشبّث ببعض التبريرات من أجل ستر الحقائق.

**الأمنية لا تنبت في قلب مؤمن**

والأمنية قد تخطر على قلب المؤمن، ولكن لا تلبث أن تتبخّر وتتلاشى. أما القلب المريض فانّه يستقبل الأماني بسرعة، حاله كحال البيئة الفاسدة التي تستقبل المكروبات. فالقلب المريض الحسود والأناني هو مرتع خصب لنمو وترعرع الأماني والأحلام، كما يشير ربنا سبحانه الى ذلك في قوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج/53) فالمريض قد يأتي ويذهب، ولكنّه إذا تراكم فانّ القلب سيصبح قاسياً، لأنّ قساوة القلب هي من أشدّ الأمراض التي قلّما نجد الدواء لها. وهناك قسم آخر

هم على العكس من مرضى القلوب، وهم الذين تتحدث عنهم الآية القرآنية التاليـة: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج/54).

فإذا أراد الإنسان أن يتحدّى الأمنيات فليسلم نفسه لله، وليرض بما يرتضيه لـه، وأن يكون على استعداد لتقبّل كل ما يريده الله منه. وهذه هي مرحلة إخبات القلب، والتسليم لله ربّ العالمين.

وبكلمة؛ إن الذين تمنّوا على الله فهم يقفون على طرف نقيض من الذين آمنوا، فهم سيضلّون الطريق، وهذه هي المسافة الفاصلة بين الأمنية والحقيقة.

# الفهـرس


| | |
|---|---|
| المقدمة | 3 |
| روائع الكلام | 7 |
| **الفصل الأول: الأخلاق أولاً..** | 9 |
| لماذا الأخلاق؟ | 11 |
| الأخلاق مبعث الإيمان | 16 |
| الأخلاق قاعدة الانطلاق | 21 |
| الأخلاق في مواعظ القرآن | 31 |
| **الفصل الثاني: قد أفلح من زكاها** | 39 |
| تزكية النفس هدف الرسالات الأسمى | 41 |
| كيف نحقق ثبات النفس؟ | 46 |
| السبيل إلى اكتشاف الذات | 53 |
| كيف نقتحم عقبة الذات؟ | 59 |
| كيف نتجاوز نواقضنا الذاتية | 66 |
| خطوات على طريق تزكية النفس | 72 |
| اسقاط الحجب فريضة إيمانية | 78 |

الروح الإيجابية أساس تزكية النفس 84
تزكية النفس مقدمة إصلاح الواقع 94
تزكية النفس طريقك إلى الجنة 100

**الفصل الثالث: من مكارم الأخلاق** 109
إن الله يأمر بالعدل والإحسان 111
الإنفاق والحياة الطوبى 118
التسابق الى الخيرات وسيلة النجاة 125
آيات لكل صبار شكور 133
شكر الله رأس الحكمة 140
الشكر أساس الحكمة 147
الحكمة بوابة الحياة السعيدة 155
العفو؛ آثاره وحاجتنا إليه 163
الأمل طريق الإنتصار 170

**الفصل الرابع: من مذام الأخلاق** 173
الغفلة؛ داء البشرية المزمن 175
الحسد سجن الذات 183
الحرص واليأس؛ دليلان على عجز الإنسان 192
الأنانية؛ عقبة في طريق التقدم 196
طول الأمل؛ آثاره وعلاجه 199
الأماني تحجب البصيرة 208